فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

454

أيلول 2025

مقالات

حسن الجنابي
صالح ياسر
فاخر جاسم
عادل كنيش مطلوب
عايدة جوهري
مجيد إبراهيم خليل
فياض موزان

نصوص قديمة

رالف ميليباند

نصوص مترجمة

أليكس ديميروفيتش
نعومي كلاين

حوارات

الثقافة الجديدة تحاور:
فهمي شاهين
حنا غريب

أدب وفن

حسب الله يحيى
باقر محمد جعفر الكرباسي
نادية هناوي
معتز عناد غزوان
سعيد الغانمي
خالد الحلّي
عقيل منقوش
يوسف أبو الفوز
زياد تركي
رعد كريم عزيز
طه الزرباطي
علي المسعودي
سحر الشامي

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير : صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل — جـــــواد الزيدي

رضـــــا الظاهر — علي إبــراهيـــــم

كـــــاوة محمود — مظهر محمد صالح

هـــــادي عزيـــز علي

هيئة التحرير

زهيــر الجـزائـري

هـــاشـم نعمــة

سوران قحطــان

حسب الله يحيى

محرر "أدب وفن"

العدد 454

أيلول 2025

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment– Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير: althakafaaljadeda@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير: thakafajadida4u@gmail.com
ايميلات باب أدب وفن : althakafaaljadeda@yahoo.com
hassab1944@yahoo.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت: althakafaaljadeda.net

عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.

رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر:

• أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
• ان لا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 - 3000 كلمة.
• ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
• باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
• وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
• ان تكون المادة معدة اصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
• ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
• لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
• بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
• للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
• يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
• بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يأتي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
• بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، عنوان الكتاب، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة.
(لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)
• بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، «عنوان الدراسة أو المقالة»، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة.
(لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5 - كلمة العدد

مقالات

8 - أزمة المياه في العراق: تحديات السيادة المائية والاستدامة .....حسن الجنابي
19 - الحرب على غزة ولبنان وبلدان اخرى من منظور جيو سياسي..... صالح ياسر
30 - سمات العولمة الرأسمالية المعاصرة ومراحل تطورها.....فاخر جاسم
41 - الذكاء الاصطناعي ومفهوم
"من كل حسب كفاءاته، ولكل حسب حاجاته".....عادل كنيش مطلوب
48 - رمزية الحجاب في كتاب السفور والحجاب.....عايدة جوهري
59 - قراءة في كتاب "مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن".....مجيد إبراهيم خليل
68 - تعقيب.....فياض موزان

نصوص قديمة

71 - الرأسمالية والديمقراطية.....رالف ميليباند

نصوص مترجمة

76 - هل تحتاج نظرية الفاشية إلى تجديد؟ أليكس ديميروفيتش.....ترجمة: حازم كويي
89 - الحياة المزدوجة
لجيمس بيكر المبعوث الرئاسي لبوش ..نعومي كلاين.....ترجمة: شاكر موسى عيسى

حوارات

102 - (الثقافة الجديدة) تحاور فهمي شاهين
عضو المكتب السياسي لحزب الشعب الفلسطيني.....حاوره: سوران قحطان

116 - (الثقافة الجديدة) تحاور حنا غريب
الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني.....حاوره: زهير الجزائري

أدب وفن

126 - لماذا يخافون الأيديولوجيا؟.....حسب الله يحيى
127 - صنع الله إبراهيم .. من السجن الى افق الرواية..... هيئة التحرير
128 - المثقف وقدرته على إحداث الوعي / كامل شياع مثالا.....باقر محمد جعفر الكرباسي
139 - الإسقاطية في نقد حركة الشعر الحر،عبد الجبار داود البصري مثالا.....نادية هناوي
145 - محمد مكية .. خلود ومعاصرة عشر سنوات على رحيله.....معتز عناد غزوان
150 - مقابلة مع الناقد: سعيد الغانمي .....أجرى المقابلة سعدون هليل
159 - قصيدة لخالد الحلي مع موضوع ديوانه الأخير ''بَيْنَ تِلَالٍ وَضِفَافْ''..... خالد الحلّي
161 - الاغتراب في ''هل ينتهي الكلام؟'' لخالد الحلِّي.....عقيل منقوش
164 - في مقهى سيدوري!.....يوسف أبو الفوز
171 - ليس من العدل أن لا تتقن انتحارك.....زياد تركي
178 - صورة الجميع..الى قاسم عجام وموفق محمد حسب اسبقية الغياب.... رعد كريم عزيز
180 - تسريباتٌ لحنيَّةٌ.....طه الزرباطي
182 - كتابة التاريخ سينمائيا..... علي المسعودي
188 - امرأتان.....سحر الشامي

مجسما غلافي العدد للفنان: ناظم الجبوري

التدقيق اللغوي: مصطفـــى عبـــاده
التصميم والاخراج الفني: علي العـتابي

كلمة العدد

حكومة عاجزة في قلب العاصفة

لا ترى حكومة المحاصصة والأزمات، ولا تريد أن ترى، حجم وآنيّة المخاطر التي تحيط بالبلد. ما من أزمة في المنطقة إلا وتمرّ بالعراق الواقع في قلب العاصفة. العجز في التعامل مع المخاطر يتحول إلى عمى إرادي. انسحاب ما تبقى من الوجود الأمريكي من البلد يفترض أن يكون موضوع فرح وطني، لكنه بفضل سياسة الحكومة، وبرلمانها، صار علامة فزع من الآتي.

الحروب والأزمات كواقع واحتمالات تطوّق البلد وهي تهيئ المنطقة كلها لـ (شرق أوسط جديد) تكون فيه اسرائيل الشرطي المطلق الصلاحيات، هي التي تحمي مصالح الأقليات، وهي التي تعاقب الخارجين عن الطاعة، وهي المرجع في القرارات السيادية. ويتجلى ذلك في:

- حرب إبادة في غزة يقابلها عجز شامل وانعدام كامل لأي موقف عربي حتى ولو استنكاراً بالكلام.
- حرب قريبة تحسب بالأيام ضد إيران وامتداداتها في المنطقة إذا فشلت المفاوضات ولم ترضخ للإرادة الأمريكية - الاسرائيلية.
- التغيرات الجيوسياسية في سوريا الذاهبة إلى اللامكان، أو إلى التطبيع وحده، هذه التغيرات لها امتداداتها في العراق المهيأ والمعد لكل الأزمات الإثنية والطائفية.
- وفي سوريا، واصلت إسرائيل عدوانها لتقويض القدرات الدفاعية السورية، متوسعة في احتلال الجولان وإلغاء اتفاقية وقف إطلاق النار لعام 1974.
- داعش، بما لديها من قدرات تستثمر الفوضى التي أعقبت انهيار نظام الأسد أواخر العام الماضي فصارت جزءاً عضوياً من السلطة في سوريا، وهي تنظر للعراق كخصم طائفي، تنتظر ثغرة، وما أكثر الثغرات، لتعود إلى بعض مواقعها السابقة.
- حكومة ترامب غاضبة على العراق، وتهدد بعقوبات اقتصادية دولية إذا لم يسحب العراق إقرار قانون الحشد الشعبي في حال التصويت عليه في البرلمان.
- احتمالات الحرب على لبنان إذا أخفقت الحكومة اللبنانية في نزع سلاح حزب الله.
- الأزمة الإقتصادية الداخلية بعد تاريخ من نهب رصيد المستقبل.

.. هذه المخاطر تحسب بتكّات الساعة، ولها تتحرك الأساطيل حولنا وتجهز لها الصواريخ، والوسطاء ذاهبون وعائدون بلا توقف يستبقون لحظة الانفجار.

.. أجراس الخطر تدق من الشمال والجنوب، من الشرق والغرب، مع ذلك لا تدرك السلطة العراقية، حكومة وبرلماناً، ولا تريد أن تدرك حجم المخاطر المحيطة بالبلد.
المخاطر تكشف بوضوح، يفوق الوضوح، أزمة الحكم البنيوية:
- مزيداً من التفكك في التحالف الحاكم.
- المحسوبية تحل محل الكفاءة في التعيينات وفي أكثر الأجهزة حساسية في السلك الخارجي.
- عجز مستتب في البرلمان ترك عشرات القوانين معطلة بسبب كثرة الاعتراضات التي تصل حدّ الشتائم والاشتباك بالأيدي.
- مزيداً من التمسك بالطائفية والتخويف من الطائفة الأخرى.
- مزيداً من النهم والفساد واستخدام مال الدولة للدعاية الانتخابية.
- ومزيداً من التضييق على الحريات حدّ منع تظاهرة سلمية في بغداد هدفها الأساس الدفاع عن كرامة العراق وسيادته خاصة قضية اتفاقية خور عبدالله الباطلة.
المخاطر تطوق العراق وتخترقه من جميع الجهات، ومع ذلك تقوم حكومة الأزمات بالترقيع فتعالج الأزمة بأزمة أكبر، وتزداد تفككاً وفساداً.
وبدلا من أن تكون كل هذه المخاطر موضوع حوار وطني، راحت قوى السلطة المهزوزة، وهي تستعد لوليمة الانتخابات، تقلّم معارضتها، لتبقى وحيدة في الساحة، تناور بالمال السياسي واستخدام النفوذ وموارد الدولة، لتجعل من الانتخابات المقبلة أداة لتدوير نفس الوجوه، لا أداة لإحداث انتقال نوعي وتغيير فعلي في الوضع السياسي لمواجهة المخاطر المحيطة بالبلد.
لقد أعطت التطورات السياسية التي عرفتها البلاد منذ 2003/4/9، وعبر كل التجارب الانتخابية والاستشارية، ديمقراطية ناقصة، مشوهة، مبتورة، لأن طبيعة وبنية السلطة في العراق و"التوازنات" التي تحكمها تجعل منها غير قابلة للتداول بالمعنى الديمقراطي الصحيح، فالديمقراطية تقوم اساسا على فكرة المواطنة وليس على اساس الهويات الفرعية وهو ما يسود اليوم؛ وإنها لا تبنى بقيادة أناس غير ديمقراطيين لا يرون في الديمقراطية إلا آلياتها الانتخابية والصعود الى السلطة واحتوائها عملا بـ "القاعدة" المعروفة: "اخذناها وما ننطيها" !! في حين أن الديمقراطية تقوم على مبدأ راسخ هو تداول السلطة وليس تأبيدها.
ومن المؤكد ان البلاد تحتاج إلى تغيير جذري وشامل. وطبيعي ان التغيير المطلوب لن يتحقق إلا ببناء بديل يكسر محاولات احتكار السلطة المستندة الى الهويات الفرعية وإعادة انتاجها، ويؤسس لوعي اجتماعي جديد، عابر للهويات الفرعية وما يماثلها من أي لون وشكل. ان تحقيق هذا البديل يحتاج الى أفق أوسع والى قوى جديدة وتحالفات تكون قادرة على احداث تغيير حقيقي في تناسبات القوى الفعلي وليس اعادة إنتاج النظام الراهن، المحاصصي – الطوائفي/ الاثني الذي اصبح عائقا امام بناء الدولة المدنية الديمقراطية العصرية، دولة المواطنة.
فالتغيير المطلوب هو ذلك الذي يخلق الممكنات الفعلية لبناء دولة مدنية ديمقراطية اتحادية وعدالة اجتماعية، وليس إعادة إنتاج نظام المحاصصات الطائفي/ الاثني!

مقالات

أزمة المياه في العراق
تحديات السيادة المائية والاستدامة

د.حسن الجنابي
وزير الموارد المائية الأسبق، سفير سابق
لدى تركيا واليابان ومنظمات الأمم المتحدة في روما

مقدمة

يواجه العراق تحديًا جوهريًا يتعلق بالانخفاض الكبير في الإيرادات المائية في أنهاره الرئيسية. يرجع ذلك بشكل أساسي إلى استنزاف الموارد المائية في المنابع، والسياسات المائية في الدول المشتركة بحوضي دجلة والفرات، فضلاً عن الزيادة الهائلة في الطلب المرتبطة بالاقتصاد وبالزيادة السكانية في المنطقة.

تتفاقم هذه المشكلة بسبب تأثيرات تغير المناخ، التي تزداد مخاطرها بالتفاعل مع الآثار الضارة للإدارة البشرية العشوائية للموارد الطبيعية للأراضي والمياه، ومنها انتهاك المحددات الفيزيائية والبيئية الضامنة للاستدامة.

يؤدي نقص المياه إلى نقص في مجمل الخدمات الأساسية التي يحتاجها المجتمع، وينتج عنه مشكلات اجتماعية واقتصادية وسياسية، تمثل خطراً جيوسياسياً، ومصدراً جديداً لعدم الاستقرار والصراعات. لذلك فإن الفشل في تطبيق سياسات مائية مناسبة يؤشر الى فشل عام في الأداء الحكومي.

السدود: حلول سريعة أم أضرار دائمة؟

اتضحت تحديات المياه في العراق في منتصف السبعينيات، بالتزامن مع اكتمال وملء سد كيبان التركي على نهر الفرات، بسعة تخزين تبلغ 30 مليار متر مكعب، وسد الطبقة السوري، أيضًا على الفرات، بسعة تخزين 12 مليار متر مكعب. اقترب نهر الفرات حينها من الجفاف، حيث انخفض تدفقه السنوي إلى العراق إلى 9 مليار متر مكعب لمدة عامين متتاليين، بعد ان كان معدل إيراده 30 مليار متر مكعب بسبب ملء السدين في وقت واحد. أي أن السعة التخزينية التي أنشئت على عمود النهر بلغت 42 مليار متر مكعب، أي ما يزيد على معدل إيراده السنوي بمرة ونصف المرة تقريباً!

جرى الملء المفاجئ للسدين التركي والسوري دون تنسيق مع العراق، وتسبب في نقص مهول للمياه في المدن العراقية الفراتية، وتوقفت الزراعة جزئياً، وكان ذلك حدثاً غير مسبوق تسبب فيه التدخل البشري. فقد كان الفرات قبل ذلك التاريخ يتدفق دون عوائق إلى العراق منذ انحسار العصر الجليدي!

دخل العراق إثر ذلك الحدث مرحلة جديدة، أشرت بوضوح إلى فقدان "السيادة المائية"، إن كان ثمة سيادة على الأنهار العابرة للحدود أصلاً. وحتى ذلك الوقت، لم يكن لدى العراق سدود أو سعة تخزين كبيرة على الفرات، باستثناء بحيرة الحبانية الصغيرة نسبيًا، بسعة تخزين قصوى تبلغ 3 مليارات متر مكعب. وبحيرة الحبانية هي منخفض طبيعي مدمج مع منظومة سدة الرمادي، التي افتتحها الملك الراحل فيصل الثاني في منتصف الخمسينيات. أما سد حديثة فقد أنشئ على الفرات في منتصف الثمانينيات، أي بعد عقد من الزمن عقب بناء سدي كيبان والطبقة في تركيا وسوريا.

تسببت السيطرة على الأجزاء العليا والوسطى من الفرات بصدمة اجتماعية وسياسية واقتصادية غير متوقعة، وسط "الحماس الثوري" المصاحب لصعود حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي حكم العراق منذ عام 1968.

كانت الحكومة العراقية تواجه حينها تحديات أمنية وسياسية داخلية وخارجية كبيرة، وكانت بحاجة إلى تعزيز سلطتها داخليًا. فقد ساهمت الأوضاع الإقليمية في زعزعة الاستقرار السياسي للعراق، خاصة بسبب دعم إيران المباشر للحركة القومية الكردية المسلحة وتدخلها في دعم معارضي حكم البعث في التخطيط لانقلابات عسكرية.

كذلك كانت العلاقات بين الفرعين العراقي والسوري لحزب البعث متوترة، وتميزت بتبادل لأعمال العنف والتفجيرات ومحاولات الانقلاب والتجسس والانشقاقات الحزبية. أما العلاقات مع تركيا فقد كانت أقل عدائية، على الرغم من عضوية تركيا في حلف الناتو، واصطفاف البعث العراقي مع الكتلة الاشتراكية، وتوقيع العراق معاهدة صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفيتي، مثّلت في حينها نقطة تحول كبيرة في مسيرة البعث وموقع العراق في الصراعات الدولية، أسفرت أيضاً عن انفتاح نسبي في السماح للحزب الشيوعي العراقي بالعمل العلني ضمن تحالف سياسي مع الحزب الحاكم.

فالدول الأربع التي تفرقها السياسة والمصالح، العراق وسوريا وتركيا وإيران، تشترك في مياه دجلة والفرات وروافدهما بدرجات متفاوتة. وفي خضم التوترات الثنائية والثلاثية والرباعية والتعقيدات الإقليمية، اتخذت مقاربة الموارد المائية المشتركة بعدًا جيوسياسيًا يسعى للتحكم بجريان المياه بمشاريع سدود كبرى أحادية الجانب، على الأقل بالنسبة لإيران وتركيا. لا شك ان هناك حاجة متصاعدة للمياه في تلك الدول، لكن الأنهار العابرة للحدود تخضع فيها المنشآت المخطط لإقامتها الى معايير مختلفة، وردت في قواعد هلسنكي عام 1966 الخاصة بالمياه العابرة للحدود ومنها الاستخدام المنصف والمعقول، وتجنب إيقاع أضرار جسيمة بالدول الأخرى، واللجوء الى مقاربات متكاملة تشمل الحوض النهري كله، وغير ذلك مما وجد طريقه الى اتفاقية الأمم المتحدة لعام 1997 المسماة "اتفاقية قانون

استخدام مجاري المياه الدولية في الأغراض غير الملاحية".

في العراق، لم تكن قضايا المياه أولوية لدى السلطة لسببين: أولاً، كانت الهموم الأمنية والعسكرية والحفاظ على السلطة أكثر إلحاحًا بالنسبة للحكومة العراقية من تحديات المياه؛ ثانيًا، كان هناك شعور سائد بالاطمئنان لدى الحكومة، والمجتمع العراقي عموماً، بشأن وفرة مياه دجلة والفرات، ولم يكن احتمال نقص المياه هاجساً أو مصدر قلق. بل على العكس، كان الشعور طافحاً بوفرة المياه، وصل حد اقتراح تزويد الكويت والأردن بالمياه، من قبل أعلى المستويات الحكومية ممثلةً بوزير الخارجية طارق عزيز على سبيل المثال. كانت النية هي استخدام المياه سياسياً لكسب النفوذ، وتحقيق هيمنة نسبية على الدول العربية المجاورة من خلال جعلها تعتمد على مياه العراق، دون أي إحساس بأن العراق نفسه سيواجه مأزقاً مائياً حقيقياً.

كانت تلك مقاربة متهورة ومغامرة ومحفوفة بالمخاطر، وقد فشلت في إدراك أن العراق كان يفقد تدريجيًا السيطرة والسيادة على جزء كبير من مياه دجلة والفرات. ولك ان تتصور الموقف لو أن جزءاً من مياه نهر الفرات قد جرى تحويلها الى الأردن، حسب رؤية طارق عزيز، وجزءاً آخر من مياه نهر دجلة جرى تحويله الى الكويت في أوج التسلط البعثي، الذي كان سيغطي الكلفة المالية للمشروعين أيضاً.

كان النقص الحاد في مياه الفرات في 1975 - 1976، الناجم عن إنجاز سدين فقط، نقطة تحول كبيرة، أزعجت حالة "الاسترخاء المائي" في العراق وأدخلته مرحلة الشحة المائية التي انكشفت بأبشع صورها في السنين الماضية. فقد تصاعدت المشاريع التنافسية على الموارد المائية منذ ذلك الحين، وظهر العراق خلال العقود الأربعة الماضية كأكبر الخاسرين، متأثرًا بعواقب الانتقال من وفرة المياه عبر كل تاريخه السابق، إلى الإجهاد المائي كدولة تقع في أسفل الأنهار التي يتحكم بها الجيران!

ومما يؤسف له هو أن مقاربة بناء السدود المتبعة في العراق لم تأخذ بالاعتبار التجربة الفاشلة للسدود الكبرى، التي يبدو أنها مغرية بسبب بعض الفوائد المؤقتة في البدء، لكنها تتحول الى أضرار فادحة على المدى المتوسط والطويل، هذا فضلاً عن دوافع الفساد التي تصاحب مشاريع الصرفيات الكبيرة في بيئة بعيدة كل البعد عن الشفافية.

السياق السياسي لمشكلة المياه

واجه العراق عبر العقود الماضية مخاطر وتحديات إضافية، ساهمت شدتها وتفاعلاتها في تدهور مقلق في الوضع المائي، الذي أصبح شحيحاً وهشّاً ويهدد استقرار المجتمع، الذي كان مهددًا بالتوترات السياسية والإرهاب والفساد والتدخلات الأجنبية.

ففي ضوء ما حصل في نهر الفرات في منتصف السبعينيات، وعوامل أخرى نابعة من أيديولوجية وطموحات حزب البعث، اتخذت السلطات العراقية قرارات وبدأت مشاريع كبرى في اتجاهين: أولاً، تدابير سياسية على المستويين المحلي والإقليمي؛ ثانيًا، تدابير فنية واقتصادية تتعلق بتنفيذ مشاريع البنى التحتية في قطاعات اقتصادية مختلفة، ومنها قطاع المياه.

كانت تلك التدابير مرتبطة بوضوح بتطورات السيطرة المفاجئة على تدفق نهر

الفرات في السبعينيات في تركيا وسوريا، مع انعدام السيطرة في الجزء العراقي من النهر. وتمثل الجانب السياسي لتلك التدابير الحكومية على المستوى الإقليمي في اتفاقية الجزائر عام 1975 مع إيران لمعالجة قضية عراقية داخلية، هي القضية الكردية، وبعض تداعياتها الإقليمية.

أما الاتجاه الثاني فقد شمل تنفيذ مشاريع ري واستصلاح كبرى على نهري دجلة والفرات ردًا على التطورات غير المتوقعة، مثل تلك التي حدثت على الفرات. وهذه المشاريع الاستصلاحية الكبرى كانت تناسب العقلية "الثورية" لسلطة البعث المهووسة بحجم المشاريع وليس جدواها، والتي جرى تنفيذها في أوقات صار واضحاً حينها بأن مشاريع الاستصلاح الكبرى، التي تغطي مساحات شاسعة ومدن وقرى وأراضي هي أقصر طريق الى الفشل منه الى النجاح. وان كلفتها الاجتماعية والاقتصادية كبيرة جداً، مثل نزوح العوائل المستقرة والتعويضات، وإيقاف النشاط الزراعي لعدة سنوات، أو تجريف بساتين لفتح قنوات ومبازل، اتضح انها ليست ذات فائدة في ظل انحسار الإيرادات المائية.

كانت اتفاقية الجزائر واحدة من أخطر الأحداث التي رسمت مستقبل العراق والمنطقة، حيث كانت المياه، خاصة الحدود النهرية بين العراق وإيران، الشرارة التي أدت إلى الحرب العراقية الإيرانية المدمرة التي تلت ذلك. وقد شملت اتفاقية 1975 ترتيبات بشأن "الأنهار الحدودية" إلى جانب "الحدود النهرية". قُسّمت الأنهار الحدودية إلى ثلاث فئات:

1 - "الأنهار المتجاورة" وهي الأنهار التي تتبع خط الحدود بين البلدين، وقد ذكرت بالاسم على ان تجري قسمتها مناصفةً بين البلدين.

2 - "الأنهار المتتابعة" وهي الأنهار التي تقطع خط الحدود بين البلدين، وقد ذكرت بالاسم ايضاً، على أن تجري قسمتها على أساس تقارير لجنة تخطيط الحدود الإيرانية-العثمانية عام 1914.

3 - وفئة ثالثة غير مسماة كان سيتم الاتفاق بشأنها وفقاً لأحكام الاتفاقية القائمة (افتراضاً) على مبادئ حسن الجوار والاحترام المتبادل.

أعتقد شخصياً بأن الاتفاقية نصّت على تقسيم عادل لمياه الأنهار المتجاورة والمتتابعة على أساس المناصفة أو على أساس مرجعية اتفاقية 1914 العثمانية-الإيرانية. أما الإشكالية الحقيقية فقد كانت في إعادة تعريف الحدود النهرية بين البلدين في شط العرب. فقد انتقلت الحدود بين البلدين من الضفة الشرقية، حيث تلتقي المياه باليابسة، مما يجعل شط العرب عراقيًا بالكامل، إلى خط التالوك (الخط العميق من الشط)، أي منح إيران السيادة على نصف شط العرب بعد عقود من النزاع بين الإيرانيين والعثمانيين والبريطانيين!

كانت هذه الاتفاقية، التي وقّعها صدام حسين في لحظة ضعف، السبب الرئيسي للحرب العراقية الإيرانية 1980-1988، بعد ان شعرت حكومة صدام حسين بالقوة إزاء إيران التي أنهكتها أحداث الثورة الإسلامية عام 1979، التي أدت الى إسقاط الشاه وإنشاء الجمهورية الإسلامية في إيران.

كانت الحرب العراقية الإيرانية صراعًا سادياً مدمراً، فشل في حلّ أي من القضايا العالقة بين البلدين، بما في ذلك قضية المياه والحدود

النهرية لاتفاقية 1975. وما زالت القضية المائية بين البلدين مقلقة وغامضة، وقامت إيران، وبالضد مما جاء في نص الاتفاقية، بالسيطرة على جميع الروافد والأنهار المشتركة المتجاورة والمتتابعة، وأكملت سيطرتها على مياه نهري الكرخة والكارون وحجبهما عن الوصول إلى مصباتهما التقليدية في جنوب العراق. وكان لهذه الأفعال آثار مدمرة على الأهوار العراقية، وهي المناطق المغمورة تاريخيًا ومهد الحضارة السومرية.

العلاقة المائية مع تركيا

فيما يتعلق بعلاقة العراق المائية مع تركيا، يبدو الوضع أوضح منه مع إيران ولكنه لا يقل تعقيداً. على مدى أربعة عقود، نفذت تركيا "مشروع جنوب شرق الأناضول"، الذي يتضمن بناء سدود كبيرة لتخزين المياه للزراعة وتوليد الطاقة الكهرومائية. وقد أنشأت منذ منتصف السبعينيات، سلسلة من السدود، آخرها سد إليسو الضخم على نهر دجلة بالقرب من الحدود العراقية.

في عام 1946، وقّع العراق وتركيا معاهدة صداقة وحسن جوار مع ملحق خاص بالمياه. كانت المقاربة تجاه مياه دجلة والفرات متقدمة وواقعية ومتجذرة في حسن الجوار، وتهدف إلى استمرار السلام والتنمية. اتفق الطرفان على أن تُبنى السدود والبنية التحتية المتعلقة بالمياه، مثل محطات القياس الهيدرولوجية، في الأراضي التركية لقياس مستويات المياه أو تخزينها مع تحمل العراق التكاليف.

لم تكن لدى تركيا في ذلك الوقت مثل هذه البنى التحتية في الأجزاء العليا من الأنهار بسبب عدم الحاجة إليها، وكان بناء السدود طلبًا عراقيًا للتخفيف من أضرار الفيضانات في العراق. وكان من المفترض أن تحدد الفرق الفنية العراقية مواقع السدود ومحطات القياس في تركيا، مما يشير إلى تفوق العراق في القدرات الفنية والبشرية. للأسف، تم إهمال اتفاقية 1946، التي لا تزال سارية بسبب عدم وجود حد زمني لها من قبل العراق. أدى هذا الموقف غير المسؤول إلى خسائر كبيرة في تدفقات المياه إلى العراق، حيث قامت تركيا ببناء مشاريع ضخمة على دجلة والفرات بشكل أحادي دون تنسيق، تاركةً العراق كمتلقي سلبي في أسفل النهر.

أنجزت تركيا بناء سدود كبيرة وصغيرة، منها خمسة سدود على الفرات وحده (كيبان، كاراكايا، أتاتورك، كركامش، وبيرجيك)، بسعة تخزين مجمعة تتجاوز 90 مليار متر مكعب، أي ثلاثة أضعاف متوسط تدفق الفرات السنوي. ومع إضافة 14 مليار متر مكعب لسوريا و8 مليارات متر مكعب لسد الحديثة في العراق، يبرز التحكم المفرط في نهر بمتوسط تدفق سنوي يبلغ 30 مليار متر مكعب. نتيجة لذلك، خسر العراق 50% من تدفقات الفرات السنوية خلال العقود الأربعة الماضية، مع توقعات تشير إلى وضع أسوأ، قد يصل إلى خسارة ثلثي التدفقات بناءً على اتفاقية مؤقتة (أصبحت الآن شبه دائمة) حيث تطلق تركيا في المتوسط 500 متر مكعب في الثانية عند الحدود السورية، حيث يتلقى العراق 58% (9 مليارات متر مكعب سنويًا)، وتركيا 15 مليارا، وسوريا 6 مليارات.

المشاريع الاروائية

على خلفية الاحتياجات المائية المتزايدة، خاصة بعد السيطرة شبه الشاملة على جريان نهر الفرات خارج الحدود، نفذت الحكومة

العراقية مشاريع ري كبرى، مثل مشروع الثرثار في نهاية 1978، الذي يربط بين دجلة والفرات. كان الهدف من مشروع الثرثار هو تعزيز تدفقات الفرات خلال فترات الشحة باستخدام مياه بحيرة الثرثار، التي تتغذى من نهر دجلة في مواسم الفيضان. فقد كانت إيرادات نهر دجلة تبلغ حوالي 50 مليار متر مكعب في بغداد، ولم يكن مسيطرا عليه وعلى روافده خارج الحدود، كما هو الآن.

سهّل مشروع الثرثار الربط الهيدروليكي بين النهرين عن طريق سدة سامراء الواقعة على نهر دجلة الى الشمال من بغداد، ومنح النظام المائي العراقي مرونة عالية تمثل استجابة ضرورية للتغيرات المباغتة لحالة نهر الفرات بعد انشاء السدين التركي والسوري، كيبان والطبقة، فضلاً عن تأمين حماية العاصمة بغداد من آثار الفيضانات المتوقعة، كما حصل في الأعوام 1954 و1969 وآخرها في عام 1988 الذي كان من أكبر الفيضانات التي شهدها العراق.

كذلك بدأت الحكومة تنفيذ مشاريع استصلاح أراضي واسعة النطاق، خاصة شمال وغرب بغداد وفي وسط العراق، لتأمين الأسواق الغذائية وإنعاش الزراعة، بعد ركود القطاع الزراعي وتلكؤ تنفيذ "قانون الإصلاح الزراعي" في العهد الجمهوري.

كان هدف الحكومة العراقية على مستوى الشعارات تحقيق التقدم وتنمية القطاع الزراعي، والوصول الى الاكتفاء الذاتي من الإنتاج والقضاء على الإقطاع وما شابه ذلك. إلا أن مفعول الإجراءات الحكومية كان في الكثير من الأحيان عكسياً، واعتمدت كلياً على العائدات النفطية التي تحوّل إثرها الريف العراقي الذي كان منتجاً، الى قطاع هامشي يتكئ على الدعم الحكومي، بعد أن كان في العهود التي سبقت ذلك، وبالأخص العهد الملكي، ينتج ما يزيد على حاجة السوق المحلي من المحاصيل.

توفر التكنولوجيا والعلوم والهندسة سبلاً ناجعة للتعاطي مع مشكلات نقص المياه وإدارتها، ولكنها تعجز عن ان تكون الحل الوحيد في بلد مثل العراق يقع في الجزء الأسفل من الأحواض النهرية ويعتبر بلد مصب، وحيث تتكون أكثر من 70% من مياهه خارج حدوده الوطنية.

بالطبع هناك إجراءات وسياسات لا تقل فعالية وكفاءة في الاستجابة للمتطلبات الضاغطة الجديدة، مثل تعزيز القدرات للصمود خلال فترات الإجهاد المائي، وتطوير البدائل المستدامة، والحوكمة الرشيدة واتباع المقاربة الذكية للموارد المتاحة فضلاً عن التوصل الى اتفاقات منصفة مع الجيران مبنية على مبادئ القانون الدولي، وابتكار سياسات تكيف مناسبة في ظل أوضاع تزداد تنافسية وصعوبة. وبدون ذلك تكون المقاربة ناقصة ووحيدة الجانب ولا تقدم حلولاً.

سياسات المياه في حوض الرافدين

تتبع الدول الأربعة المشتركة بحوضي دجلة والفرات سياسات مائية متشابهة في الجوهر برغم المقاربات والدوافع المختلفة لكل منها. فهي تعتمد سياسات السيطرة على المياه من خلال إنشاء سدود تخزينية كبيرة، ومنشآت تحويلية.

وهذه السياسة المائية كانت "مبررة" نسبياً في العراق الذي سبق جيرانه بعقود في بنائها، بسبب ان مياه الرافدين والروافد جميعها كانت تجد طريقها الى العراق بدون أي عوائق،

وكانت تتسبب في أوقات الفيضان بأضرار مادية كبيرة في ظل محدودية الموارد المتاحة للدولة في معالجة آثار الفيضان وحماية المدن والأفراد والممتلكات. ولكن استمرار هذا النهج حتى الوقت الحاضر، وخاصة في دول الجوار، لم يعد مبرراً، لأنه مضرّ وغير مستدام. أما استمرار بناء سدود كبيرة في العراق فهو عمل غير مسؤول، ويعتبر هدراً للمال العام.

من الجدير ذكره أن سياسات السيطرة وبناء السدود سادت في النصف الثاني من القرن العشرين في مختلف بلدان العالم، ومنها منطقتنا. فقد فتح "اختراع" السدود المائية مجالاً واسعاً أمام الدول لتحقيق تنمية وإدارة "فعالة" للموارد المائية خلال فترات وجيزة نسبياً. وشهد القرن العشرون "ثورة" لبناء السدود على الأنهار بضمنها 60 ألف سداً كبيراً. ويحتل سد أتاتورك التركي على نهر الفرات مرتبة متقدمة في قائمة السدود الكبرى في العالم من حيث حجم التخزين.

لعبت السدود التخزينية التي أنشئت في البلدان المختلفة أدواراً متباينة في تغيير الدورة الطبيعية للمياه وأحدثت اضطرابات غير مفهومة كما ينبغي، لكنها فاقمت من الاضطرابات التي قد تكون ناتجة عن التغيرات المناخية أيضاً. ولدينا في حوضي دجلة والفرات نموذج لحجم السيطرة والتخزين والاضطراب في الدورة السنوية الطبيعية للموارد المائية. فحجم الطاقة التخزينية المنشأة على الفرات ودجلة والروافد يزيد على 170 مليار متر مكعب، وهذا الرقم أكبر بكثير من الإيرادات الطبيعية للنهرين وبالتالي فهو غير مستدام وجائر، ويؤدي على المدى البعيد الى تغيير أنماط ومواسم الأمطار وسقوط الثلوج في أعالي الأنهار وغير ذلك.

من الصحيح أن بعض السدود الكبرى أنقذت حياة ملايين الناس وأبعدت عنهم شبح الموت عطشاً أو جوعاً، إذ أنها وفّرت خزيناً مائياً في مواسم الوفرة لاستخدامها في مواسم الشحة والجفاف. فضلاً عن أنها وفرت وتوفر طاقة كهرومائية نظيفة وصديقة للبيئة. لكن مع تزايد الوعي البيئي منذ نهاية الثمانينات ظهر أن الفوائد القصيرة المدى من إنشاء السدود الكبرى لا تقارن بحجم الأضرار البيئية الناجمة عنها على المديات الأبعد. والعراق نموذج لحجم الضرر الذي أحدثته السدود ونتج عنها الانحسار البطيء المتجه نحو الجفاف لأهم ظاهرة هيدرولوجية وأيكولوجية وثقافية ممثلةً بالأهوار العراقية في الجنوب. هذا فضلاً عن التوسع المنفلت لظاهرة التصحر وانكماش الغطاء الأخضر وفقدان التنوع الأحيائي السائد عبر آلاف السنين وتحطيم الشروط السائدة للحياة في المناطق الريفية.

أهوار العراق: التجفيف المتعمد

على مدى الخمسين عامًا الماضية، شهد العراق أحداثًا كبيرة عطلت التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتميزت بعدم الاستقرار السياسي، والحروب غير المبررة، وسوء تخصيص الموارد المالية. وقع قطاع المياه ضحية للحروب، والأولويات المنحرفة، والتسييس، وبلغ ذروته في التجفيف المتعمد لأهوار العراق في التسعينيات كأحد أهداف الحكومة الصدامية. دمر ذلك إحدى أهم الظواهر الهيدرولوجية في العراق وغرب آسيا، مما قضى على احتياطي مائي هائل

يتجاوز 20 مليار متر مكعب في الأراضي المنخفضة الجنوبية. وتسبب في تغييرات مدمرة في حوكمة وتشغيل المياه، ما أدى إلى تغيير قسري في الأنماط الزراعية واستخدام الأراضي. لقد حافظ احتياطي المياه في الأهوار على توازن بيئي قديم، وحفظ بقايا الحضارة السومرية، وضمن جودة المياه العذبة في شط العرب، وأثر إيجابيًا على المناخ المحلي، وكان محطة رئيسية للطيور المهاجرة، وقدم فوائد بيئية ومجتمعية لا حصر لها.

لم تواكب جهود الحكومة العراقية من أوائل التسعينيات حتى عام 2003 تدابير السيطرة التي اتخذتها الدول المجاورة، التي قلت من تدفقات المياه إلى العراق. وقامت الحكومة نفسها وبأوامر مباشرة في تجفيف 90% من الأهوار. وكان ذلك عملاً حكومياً سهلاً نسبياً، لأن القضاء على الأهوار العراقية "ينجز" عند تقليل، أو قطع، الإيرادات المائية عنها. وكانت الإجراءات التي قامت بها دول الجوار عن طريق السدود المنشأة حديثاً تؤدي نفس الغرض، وتحاكي رغبة الحكومة العراقية في منع وصول أي إيرادات مائية الى مناطق الأهوار، لأسباب سياسية وأمنية بحتة.

حصل، إثر التجفيف، اختلال في المعادلة العضوية بين الغذاء والمياه، وهو اختلال ما زال مستمراً الى اليوم. فالزراعة في العراق إروائية، أي أنها تعتمد كلياً على استخدام تقنيات الري ووسائل السيطرة على جريان المياه، والتحكم بتوزيعاتها وغير ذلك. أما الأهوار العراقية، التي جُففت بقرار سياسي وباستخدام جهد الدولة الهائل، فكانت تغطي أكثر من نصف حاجة السوق المحلي من الثروة السمكية والمنتجات الحيوانية الأخرى.

جرى الاختلال بين المياه والغذاء تحت ضغط توجهات أيديولوجية، أنتج التعسف في تطبيقها واقعاً زراعياً هجيناً ومشوهاً مقابل خدمات الري المستقرة منذ القدم بسبب الوفرة المائية المعتادة. انتهى الأمر الى ان القطاع الذي يستهلك 80% من موارد المياه العراقية، أي الزراعة، صار ينتج أقل من 30% من حاجة السوق المحلي للغذاء، واستمر النفط في تغطية تكاليف استيراد الـ 70% المتبقية من حاجة السوق. ونتيجة لتلك السياسات أمسى القطاع الزراعي، الذي يعمل فيه ثلث عدد السكان، عاجزاً عن الاستمرار من دون الدعم الذي تقدمه الحكومة للقطاع، وهو منذ عقود قطاع غير مربح مادياً برغم أهميته سياسياً واجتماعياً لاستقرار الدولة والمجتمع. هناك أيضاً مشكلة أكثر تعقيداً وهي قيام العراق، ومنذ عقدين على الأقل، باستيراد مياهه افتراضياً من دول الجوار. أي أن المياه التي كانت تاريخياً تجري الى العراق لينتج منها كفايته من الغذاء، أمست تُحجز في بلدان الجوار وتستخدم في إنتاج محاصيل وثروة حيوانية تصدر منتجاتها إلى العراق لسد النقص الحاصل في السوق نتيجة لانحسار المياه. وهذه قضية غاية في الخطورة ولم تحظ للآن بانتباه الحكومة والمجتمع برغم التحذيرات المستمرة.

عامل تغير المناخ

تغيّر المناخ ظاهرة عالمية، وليست إقليمية أو وطنية، مع تأثيرات عابرة للحدود. لا يمكن لأي دولة أن تمنع تأثيراته بشكل فردي، والخيار الوطني الوحيد هو التكيف. يتعارض التكيف مع المقاربات الوطنية التقليدية في جميع القطاعات الاقتصادية، بما في ذلك

الموارد المائية. وفي العراق، لا يمكن تصنيف العوامل التي أدت وتؤدي الى ارتفاع حرارة سطح الأرض، وتقلص الغطاء الأخضر، وجفاف الأهوار وانتشار الفقر، والنزوح من القرى والأرياف الى حواشي المدن، على أساس كونها نابعة من التأثيرات المناخية، التي يشترك بها مع محيطه الإقليمي والعالم أجمع، فمعظمها نتاج عوامل محلية تتعلق بالتعسف في إدارة الموارد المائية، والسيطرة الشاملة عليها والتحكم في جريانها.

صحيح أن العلاقة بين ما هو محلي أو إقليمي وما هو عالمي (Global) هي علاقة تفاعلية يؤثر من خلالها أحدهما في الآخر، ولكن الانعكاس المحلي لمظاهرٍ التغيرات في الطقس السائد، التي تفهم خطأً على انها تغير مناخي، تكون أكثر شدةً عندما تكون السياسات والبرامج والمشاريع الوطنية متعارضة مع مبادئ التكيف المعروفة.

على سبيل المثال تتعارض مشاريع السيطرة الشاملة على الموارد المائية لنهري دجلة والفرات عن طريق السدود ومنشآت تحويل مجاري الأنهار، مع فكرة التكيّف مع التغيرات المناخية. فالسيطرة الشاملة على موارد النهرين المائية والتحكم بها تخضعها تماماً الى "العامل البشري" في البلدان الأربعة. وأعمال تصميم وتنفيذ وتشغيل المنشآت العملاقة كالسدود مثلاً يقوم بها موظفون في العراق وتركيا وسوريا وإيران، وليس للمناخ من يمثله في تلك اللوحة الغامضة والمربكة من المصالح المتعارضة لدول الحوضين الأربعة، التي تقع جميعها بالنتيجة ضحية اضطرابات المناخ وتجلياته المتطرفة سواءً كانت جفافاً غير مألوف أو فيضاناً مفاجئاً.

ينطبق الشيء نفسه على جفاف الأهوار العراقية المدرجة منذ عام 2016 على لائحة التراث العالمي لليونسكو. فقد جففت بناءً على قرار سياسي في التسعينات وقطعت مغذياتها النهرية بإجراءات هندسية ومنشآت أقيمت لهذا الغرض. وبعد عام 2003 تغيرت السياسة الحكومية في العراق من التجفيف الى إنعاش الأهوار، ونجحت نجاحاً نسبياً لكنه ليس مستداماً بسبب توسع السيطرة على المنابع ومجاري الأنهار. مع ذلك هناك من يدعي بأن تقلص المساحات المغمورة بالمياه او جفافها هو بسبب التغير المناخي، وهذه مغالطة واضحة في إلقاء اللوم بعيداً عن المسؤولية النابعة عن فشل الحوكمة في هذا القطاع الهام الذي يمس حياة الملايين من المواطنين. فجفاف مساحات الأهوار في أعوام 2021 الى 2022 جرى بقرار تشغيلي قضى بتحويل الحصص المائية المخصصة لاستدامة الأهوار الى استخدامات أخرى.

يمكن على سبيل المثال تلمس التأثير المحلي المباشر لتجفيف المساحات المغمورة بالمياه في الجنوب العراقي نتيجة للقرارات التشغيلية إياها، في الفرق في درجة الحرارة على اليابسة او في مكان قريب في زورق وسط الأهوار. فالفرق المحسوس يكون بحدود 6 درجة مئوية في نفس اللحظة من اليوم نفسه. هذا الفرق الكبير ناتج عن فعل الأهوار، أو أي مساحات مغمورة بالمياه، باعتبارها سطحاً يمتص أشعة الشمس ولا يعكسها، أي يسهم مباشرة في الإحساس بلطافة الجو في أجواء الصيف الحارقة في العراق. أما المساحة الجافة فان قدرتها على عكس أشعة الشمس مباشرة عن سطح الأرض تقترب من 100% وتسهم في رفع حرارة الجو قرب السطح مباشرة، ويكون الفرق في الحالتين حوالي

6 درجات مئوية على الأقل. هذا الإحساس المباشر بالفرق في حرارة الجو ليس نابعاً من التغير المناخي بل من الإجراءات التشغيلية الخاطئة التي تضاعف من شدة تأثير التغير المناخي على المستوى المحلي. هذا التأثير سيكون على المديات الأبعد أكثر خطراً، لأنه تأثير تراكمي يشتد مع الابتعاد عن سياسات التكيف المطلوبة.

يخلق التغير المناخي شروطاً غير مألوفة وخطيرة في منطقتنا ذات تأثير يهدد الحياة بصورتها المألوفة. وهو إن لم يكن بحد ذاته تهديداً مباشراً ومحسوساً، فهو بدون شك يضاعف حجم المخاطر المألوفة الاخرى، التي يتسبب بها الإنسان ويزيد من تعقيداتها وشدة تأثيرها. وبما ان العراق والى جانبه إيران وسوريا وتركيا المشتركة بمياه الرافدين أعضاء في الاتفاقية الإطارية للتغير المناخي (UNFCCC) فإن مواصلة السياسات المائية السائدة منذ قرون يؤدي الى فشل تحقيق أهداف التنمية المستدامة، وعلى وجه التحديد الأهداف: الاول والثاني والسادس والثالث عشر والخامس عشر. وإن الإخفاق في تحقيق تلك الأهداف يؤدي الى المزيد من الفقر، والنزوح، وانعدام الأمن الغذائي والمائي، وانتهاك حقوق الانسان، وخاصة الفئات الاكثر هشاشة في ظروف عدم الاستقرار. ولا شك في أن انعقاد مؤتمري الأطراف في دورته السابعة والعشرين في شرم الشيخ ودورته الثامنة والعشرين في دبي يقرّب هذه التظاهرة الكبرى من المنطقة، ويزيد الوعي بأهمية المقاربات الإقليمية المشتركة للتكيف مع التغيرات المناخية والابتعاد عن التضحية بالبيئة لصالح منافع مؤقتة توفرها السيطرة المطلقة على مجاري المياه الدولية العابرة للحدود.

الخلاصة العامة

يحتاج العراق بشكل عاجل إلى إعطاء الأولوية لقضية المياه كضرورة للاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي. على الرغم من حساسية وضع المياه في العراق كدولة في أسفل النهر، فإن الاهتمام الرسمي والعام بالمياه يبلغ ذروته فقط خلال مواسم الندرة ويتلاشى عندما تتحسن تدفقات المياه. يجب على العراق تحويل هذه القضية إلى أولوية وطنية متجذرة في المجتمع، وليست مصدر قلق عابر. فمشاكل المياه هي حقائق ملحّة لا يمكن تجنبها من خلال الشكاوى من ظلم الجيران، بل تتطلب تدابير مبتكرة وفعالة لنقل العراق من الاستقبال السلبي إلى الاستجابة الاستباقية للظروف الجديدة، وتقديم خدمات مائية أفضل للمجتمع.

تتضمن إدارة الموارد المائية عمليات مترابطة تشمل التخطيط، والتشغيل، والصيانة، والتسعير، والتأهيل البيئي، وسن القوانين الضرورية، وتحديد مسؤوليات المؤسسات التي تدير أو تستخدم المياه، بهدف تحسين حوكمة قطاع المياه أفقيًا، عبر المؤسسات المركزية، وعموديًا في العلاقات بين المركز والأقاليم والمحافظات ومستخدمي المياه. وبالتالي، يجب على أصحاب المصلحة إعطاء الأولوية لإصلاح قطاع المياه كأداة رئيسية لمكافحة الفقر، وبالأخص في المناطق الريفية التي تعاني من ندرة المياه حيث الزراعة هي النشاط الاقتصادي الوحيد.

كذلك تشكّل ندرة المياه أو تلوثها مخاطر صحية عامة كبيرة، تتسبب في انتشار الأمراض، وسوء التغذية، والفقر. ولذلك

يحتاج العراق بشكل عاجل إلى مراجعة تعامله مع قضية المياه المعقدة، سواء فيما يتعلق بانعدام التوافق الدولي مع الدول المجاورة التي تشترك في دجلة والفرات وروافدهما، أو تأثيرات تغير المناخ، أو الحاجة إلى فصل مياه الشرب عن قطاع الري لضمان الوصول بنسبة 100% إلى مياه الشرب بغض النظر عن السنة المائية (فيضانية كانت معتدلة أم شحيحة).

ويبقى الحل البارز، على الأقل للاستخدامات المنزلية هو تحلية مياه البحر لتلبية الاحتياجات في المدن وسط وجنوب العراق. فقد تغير الواقع السياسي في العراق منذ عام 2003، مع صلاحيات دستورية جديدة للأقاليم والمحافظات، ما يستلزم إصلاح قطاع المياه ليتناسب مع الظروف السياسية والمناخية والدستورية الجديدة. يتطلب ذلك خلق بيئة تشريعية وسياسية وتنظيمية لتنفيذ الإصلاحات القطاعية الضرورية، وتطوير آلية قانونية مخولة لتنفيذ هذه الإصلاحات، وضمان انتقالات سلسة من قطاع مجزأ بمسؤوليات مؤسسية غير واضحة إلى قطاع متماسك ومتكامل وشفاف يشرك أصحاب المصلحة بنشاط في صنع القرار ويستفيد من نتائج الإصلاح لتحقيق تنمية مستدامة لقطاع المياه.

الحرب على غزة ولبنان وبلدان أخرى من منظور جيو سياسي
محاولة في فهم الخلفيات والجذور

د. صالح ياسر

بداية، يجب القول إن المرء لن يرهق نفسه بالسعي لإعمال العقل للإجابة على السؤال التقليدي: **لماذا وقعت الواقعة؟** ويبدو أن دوي المدافع وقصف الطائرات وتدفق الصواريخ من مختلف الانواع بما فيها البالستية والفرط صوتية مجددا في اطار الحقبة الترامبية ذات **صلة** وثيقة بمسعى أمريكي حثيث الى إجراء **ترتيبات سياسية** جديدة في ”النظام العالمي“، **تترجم** مجمل الحقائق المستجدة التي أسفرت عنها **حقبة** ما بعد ”الحرب الباردة“ وأحداث 11 سبتمبر 2001 وما تلاها من حروب، وصولا الى ما وقع في أوكرانيا في شباط عام 2022 وما ترتب ويترتب عليها من أحداث ووقائع استراتيجية وجيوسياسية جديدة، وأخيرا الحرب على غزة وايران ولبنان. وفي قلب تلك الحقائق كان هناك المسعى الحثيث لضمان **انفراد** الغرب الأطلسي - ومركزه الأمريكي - بإدارة الشؤون العالمية على مقتضى **احتكار** القوة والهيمنة في ”التوازن الإستراتيجي والجيوسياسي الجديد“ ومحاولات حثيثة لمنع تبلور عالم متعدد الأقطاب حتى لو تطلب الأمر فرض ذلك بقوة النار.

ومن دون الدخول في الكثير من التفاصيل يمكن الإشارة إلى أنه من بين أعرض عناوين هذه الترتيبات ما يأتي:

• **الحاجة، مرة أخرى، إلى إعادة تعريف مفهوم ”الشرعية الدولية“ ليعكس حقيقة التغيرات في المشهد السياسي العالمي منذ نهاية الثمانينات ومطلع عقد التسعينات من القرن العشرين بعد انهيار المعسكر الاشتراكي وتفكك الاتحاد السوفيتي.** فكما هو معروف فإن ”الشرعية الدولية“ السابقة قد خرجت من **رحم** نتائج الحرب العالمية الثانية، وكانت **شرعية المنتصرين** في هذه الحرب ضد **المحور** النازي - الفاشي، وجاءت - بسبب ذلك - تعبر عن مصالح القوى التي كسرت شوكة تحالف ”دول المحور“. وكانت تلك ”الشرعية“ مدفوعة الى الكينونة في صور وفاق: معلن أو مضمر، بين قوى الاستقطاب الأساسية في

"الحرب الباردة". وكان عليها أن تعّرف نفسها رسمياً - بل قل شكلياً - بوصفها "الشرعية" التي تنهل من القانون الدولي، ومن مرجعية الأمم المتحدة ....الخ. غير أنه كان عليها في الواقع أن تنتظم تحت سقف التوازن الدولي (توازن الرعب النووي) بين القوتين العظميين حينذاك (الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة) ومعسكريهما (حلف وارشو وحلف الناتو)، وقد مثل ذلك التوازن محصلة لعلاقات القوة بين المعسكرين على الصعيد العالمي. غير أن علاقات القوة على هذا الصعيد (العالمي) تغيرت بانهيار جدار برلين وتفكك الاتحاد السوفيتي، القطب الثاني في معادلة توازن الرعب النووي الذي استندت إليه "الحرب الباردة"، والذي تُوج بتفكك المعسكر الاشتراكي وحل حلف وارشو، وكانت تلك اللحظة تؤرخ لحصول تحولات جذرية في المشهد السياسي العالمي لصالح الرأسمالية العالمية، ولو الى حين.

وارتباطا بذلك فإن مفهوم "الشرعية الدولية" الذي كان يمثل محصلة لعلاقات القوة السائدة آنذاك لا يمكن

له أن يشتغل في الظروف الجديدة، بل يتعين إعادة صياغته ليتناسب ويعكس علاقات القوة الفعلية والاستقطابات السائدة، على المستوى العالمي، في اللحظة الجديدة، أي يعكس مصالح المنتصرين الجدد، وعلى رأسهم الولايات المتحدة. طبعا، كانت هناك حاجة ماسة لانتصار عسكري "ساحق" للولايات المتحدة، بعد هزائمها المذلة في جنوب شرقي آسيا التي توجت بالانتصار الباهر للشعب الفيتنامي في ربيع عام 1975.

- **إنجاز عملية واسعة لنقل "الشرعية الدولية" من مؤسساتها الفعلية الى أخرى تفرض نفسها بوصفها ممثلة لحقبة المنتصرين فقط.** أسفرت حرب العقود الأربعة الباردة عن غالب ومغلوب واستحقاقات! وإضافة لذلك فإن للحروب الساخنة استحقاقاتها والتي يتعين على المهزومين دفعها. حرب الخليج الثانية مثلا كانت تمريناً دولياً تعبوياً بالذخيرة الحية لفرض أسس ما سمي بـ "النظام العالمي الجديد" والذي حقق انتصارا عسكرياً مدفوع الأجر للولايات المتحدة وحلفائها. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو التالي: إذا كانت افتتاحية "النظام العالمي الجديد"، الذي كان مزمعا تشييده على أنقاض "الحرب الباردة" وبـ "لبنات الديمقراطية" و"حقوق الإنسان"، هي حرب تكنولوجية مدمرة الى هذا الحد، فكيف ستكون فصوله اللاحقة؟ الاحداث التالية بينت العديد من النتائج الفعلية/ الفصول التي تفقأ العين.

معالم تقسيم عالمي جديد للعمل يفرض بقوة المدفع!

سعت الملاحظات السابقة البالغة التكثيف الى تلمس أهم عناصر "الإستراتيجية الكونية الجديدة" التي تكشف عن معالم اللوحة الجديدة لتقسيم عالمي جديد للعمل بدأت ترتسم ملامحه منذ أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات من القرن الماضي، بكل استحقاقاته والالتزامات المترتبة على أطرافه. وتعني هذه الملاحظة - على بساطتها الظاهرية - أنه من الضروري دراسة التطورات الأخيرة في ضوء منهجية تفسر الحدث، وتنطلق من مستوى "الإستراتيجية الكونية الجديدة" والتحولات التي جرت فيها تمهيدا للإطلال على الوضع الإقليمي والاستحقاقات المرتبطة بإدماجه في إطار هذه الإستراتيجية،

في ضوء التحولات الحاصلة عالمياً على أرضية ما سمى بـ '' النظام العالمي الجديد '' وأولوياته والميكانيزمات الناظمة له، وكذلك الصراعات الدائرة نحو بناء نظام جديد يقوم على تعدد الأقطاب، وفي بعض جوانبه يشق طريقه بقوة السلاح.

ولهذا لا بد من القول بأنه لا يمكن فهم جوهر القضايا السابقة من دون ربطها بالتحولات الحاصلة في التقسيم العالمي الجديد للعمل في تلك الفترة حيث نُذُر العولمة بطبعتها الرأسمالية كانت تغزو عنان السماء والأرض وتفرض منطقها دون هوادة. ومن دون الدخول في تفاصيل إضافية يمكن الإشارة إلى أن التقسيم هذا يقوم على ثلاثة مستويات: المستوى الأول وهو المستوى الكوني/ العالمي ومحوره الجديد (شمال - شمال، شمال - جنوب) ويحل محل التقسيم السابق (شرق - غرب، غرب – جنوب). يتخذ هذا المستوى صيغة تنافس حاد بين الولايات المتحدة واليابان وأوروبا الغربية والصين، وتعبر هذه الصيغة عن نفسها بآليات مقاربة للآليات التي سادت في بداية القرن العشرين، خاصة وأن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تسقط من حساباتها سلاحين: النفط ومبدأ القوة في العلاقات الدولية، عند مواجهة خصومها الكبار.

والذي يهمنا هنا التأكيد عليه، بقدر تعلق الأمر بالمنطقة العربية في ارتباطها بهذا المستوى، هو أن النفط ومبدأ القوة، جزء لا يتجزأ من المعادلات الإقليمية في هذه المنطقة حيث يتركز الجزء الأعظم من إنتاج النفط واحتياطاته العالمية المكتشفة.

ومما لا شك فيه أن الولايات المتحدة تحتاج الى ''شرق أوسط'' هادئ يحيط بمستعمراتها النفطية كجزء من برنامج التركيب في المستقبل، وليس في برنامج التفكيك في حينه، حيث كان التوتر (ولا يزال طبعا) في هذه المنطقة سلاحاً أمريكياً مهماً لعرقلة مشروع ''البيت الأوروبي'' والحد من النمو الياباني والصيني المتعاظم، إضافة الى المواقف الأوروبية والامريكية من الحرب الروسية-الأوكرانية التر اندلعت في شباط 2022.

وإضافة لذلك فإن هذا التوتر كان يتجاوب مؤقتاً مع مسألتين هامتين:

الأولى:تعارضات المصالح داخل الاحتكارات الأمريكية، وخاصة حاجة المجمع الصناعي – العسكري حينذاك لفترة تكييف ملائمة من أجل إعادة إنتاج أدواته، وموقعه في الاقتصاد الأمريكي، فالاقتصاد العالمي.

الثانية: الحاجة الى فترة انتقال إقليمية كافية لإعادة صياغة الدور الإقليمي لإسرائيل طبقا لمتطلبات المرحلة الجديدة وبشروط جديدة تدمجها في الحياة الاقتصادية الاجتماعية الشرق أوسطية، كعنصر إقليمي مقرر (مشروع الشرق الاوسط الكبير كمثال على ذلك).

المستوى الثاني وهو الإقليمي، ويتعلق الأمر هنا بالملموس بمنطقة الشرق الأوسط - كإقليم - ومحورها الرئيسي البلدان العربية - إسرائيل. وطبقا للمقاربة الجيوسياسية فإن عملية تفكيك وإعادة تركيب المنطقة هذه يجب أن تكون مرهونة، باستمرار، بالقدرة على تطويع الجغرافية السياسية التي تعادل هنا الأهمية التي تلقيها الأسواق ودوائر المجال الحيوي في مناطق أخرى.

ضمن هذه الإستراتيجية، على الصعيد الإقليمي، يجب أن تكون إسرائيل بمثابة المفتاح الإقليمي والركن الثابت في كل هذه

السياسات وتجديدها من مطرقة عسكرية تقليدية، حسب الاحتياجات الإقليمية للحرب الباردة المنتهية، الى إمبريالية فرعية/ إقليمية، حسب الاحتياجات الإقليمية للخارطة الدولية الجديدة وموقع الولايات المتحدة فيها. تنص هذه الإستراتيجية على هدف مهم هو استبدال الدور السياسي للأطراف العربية بدور أمني في إطار الدور السياسي - الاقتصادي الإسرائيلي وبمباركة من الإمبريالية الأمريكية. غير أن هناك ثمة مفارقة صارخة في هذا المجال لا بدّ من الإشارة إليها، وتتمثل في حقيقة أن إسرائيل قادرة داخل هذه الإستراتيجية الأمريكية الجديدة، على تعويض دورها السابق، من خلال التمدد داخل أسواق المنطقة. وبالتالي الحفاظ على قدرٍ كافٍ من الانسجام مع قاعدتها الاجتماعيةً التي تخلقت على صورتها السياسية الإقليمية. أما "الدولة القطرية" التي تشكلت وعاشت على الريوعِ النفطية وتحويلات دورها الإقليمي شرقاً وغرباً وتمكنت من رشوة أقسام واسعة من قاعدتها الاجتماعية فهي غير قادرة على توفير شروط التعويض الداخلي عن هذه المساعدات والتحويلات، بعد أن فقدت الشروط البرانية لدورها الإقليمي، وبالتالي لاحتياجاتها الاجتماعية.

المستوى الثالث، المحلي، وهو تقسيم جرى ويجري فيه تهميش جوانب الدولة الريعية البيروقراطية الاستبدادية التي انتجتها متطلبات "الفورة النفطية" في أواسط السبعينات من القرن الماضي لصالح قوى السوق الطفيلية التي شرّعتها السياسات النيوليبرالية، التي تنتعش في ظروف خاصة (لنأخذ العراق مثالاً - لقد انتعشت هذه القوى تحت ظروف الحصار الاقتصادي وعاشت على "مزاياه"، وكذلك وضع هذه القوى بعد 2003) وليعاد إنتاج بنية بيروقراطية / طفيلية/ كومبرادورية ريعية جديدة نهابة.

إذا كانت بنية الدولة الرسمية لا تسمح لها موضوعياً بالانكفاء، حيث تشكلت هذه البنية وتطورت بالاعتماد على لعبة الجغرافيا السياسية وعائدات النفط، فإن هذه البنية البيروقراطية – الطفيلية - الريعية لا تساعد في إعادة إنتاج وظيفة جديدة بمعزل عن لعبة الجغرافيا السياسية واستحقاقاتها الجديدة.

ولا بد هنا من الإشارة مثلا إلى ان السلطة في بلادنا منذ قيام الدولة العراقية في عام 1921 لم تكن عاملاً لاستيعاب النزاعات أو إطاراً مهدئاً لها بل كانت في معظم الأحيان غاية في حد ذاتها. وكان لهذا المفهوم للسلطة مضاعفات عطلت الجدلية الاجتماعية وجنحت الى القمع للإمساك بالسلطة وإعادة إنتاج عموم النظام الاجتماعي استنادا الى طابق القمع في النسق الإيديولوجي. وهذه سمة تشترك بها الأنظمة البطرياركية الجديدة حيث يتم خصخصة السلطة التي اعتادت على "تشريك الخسائر" و "خصخصة النجاحات".

إن المرحلة (موضوع حديثنا) من التطور العالمي السائر تحت حراب **العولمة النيوليبرالية من جهة وأزمات النسق الرأسمالي المعاصر والمحاولات الحثيثة للخروج منها بأقل التكاليف**، حيث يتداخل المحلي بالكوني على درجة بالغة التعقيد، ترتب المزيد من الاستحقاقات الجديدة. ولهذا فإن الفهم السليم للتطورات التي شهدناها منذ 7 تشرين الأول| أكتوبر 2023 ومحدداتها لا بد من النظر إليها من خلال ارتباطاتها العالمية والإقليمية وديناميكياتها المحلية. ولا

بد من الإشارة هنا الى الخطأ الذي وقع فيه العديد من القوى والمتمثل بتبسيطها أو قل تسطيحها للمفهوم الأمريكي لـ ''التغير'' في المنطقة وعدم فهمها لجوهر الإستراتيجية الكونية للولايات المتحدة وأولوياتها الإقليمية المتغيرة باستمرار، وبالتالي رهانها (أي تلك القوى) على مشاريع وطبخات ملتبسة وغير جادة إلا في مظهرها المتأنق وانبهارها بالكلام الذي كان يقدمه موظفون من الدرجة الثانية او الثالثة في الإدارة الأمريكية!

فمثلا، على العكس من تلك الرهانات المتفائلة في حينه على الغزو العراقي للكويت، أفضت الهزيمة العسكرية للنظام السابق الى مجموعة من النتائج هي بمثابة استحقاقات اعتاد أن يفرضها المنتصرون في الحروب، ويمكن تلمس البعض منها في ما يلي:

- باتت القوات الأمريكية في قلب المواقع التي تنام على بحار من البترول، العصب الحيوي للاقتصاد الأمريكي والأوروبي والياباني، في حين بدأت تذرع أساطيلها البحرية المنطقة ذهابا وإيابا وكأنها في نزهة. هكذا إذن تحولت أحلام راسمي الإستراتيجية الأمريكية في أن يكون للولايات المتحدة موطئ قدم على مقربة من المنطقة العربية، الى أكثر من حقيقة. فالقوات المسلحة الأمريكية وجيوشها الجرارة، البرية والجوية والبحرية أيضا باتت لا تقف فقط على مقربة من المنطقة العربية، بل إنها أصبحت تقف وتحوم فوق المنطقة ذاتها. كما استعادت الإمبريالية وقواها المسيطرة العديد من الامتيازات التي فقدتها في معارك سابقة مع حركة التحرر الوطني في البلدان العربية في أكثر من موقع. ومنذ لحظة توقيع ''خيمة صفوان'' المذلة استأنف الهجوم الإمبريالي على المنطقة العربية زخمه العسكري والسياسي مستفيدا من الاختلال الذي نشأ في ميزان القوى الفعلي على الأرض ليملي شروط المنتصرين. كان الفلسطينيون أول ضحايا ''التفكير البسماركي الجديد'' لصدام حسين.

هكذا إذن بدأت نتائج الاختلال في ميزان القوى تنتقل ضغطا على الوضع السياسي في العالم العربي وتملي عليه المزيد من التنازلات المعلنة والمكشوفة. الذي حصل هو تنظيم الهجمة الإمبريالية المتجددة ليتم تدجين السياسات العربية وانخراطها في مدار السياسة الأمريكية وذراعها الضاربة ودركها في المنطقة، إسرائيل. ويمكن القول أنه تم تنظيم عملية ''مصالحة عربية'' مع الإستراتيجية الأمريكية والإسرائيلية في المنطقة العربية وأتت ''ثمارها'' لاحقا في جملة من التغييرات في تناسبات القوى، واختراق إسرائيل للعديد من الدول العربية وإملاء التطبيع معها بضغط أمريكي.

ويتعين التأكيد هنا ومنعا لأي التباس أن الهجوم الإستراتيجي الأمريكي لم يكن هدفه مجرد استعادة المواقع القديمة التي افتقدتها الولايات المتحدة والدول الرأسمالية المتطورة الأخرى في المنطقة في عقود سابقة، بل كان الهدف، ولا يزال، هو فرض هيمنتها كاملة وغير منقوصة عبر الإمساك بمفاتيح الوضع السياسي والاستراتيجي في العالم العربي وتوجيهه بتلك الطريقة التي تكفل إعادة إنتاجه ضمن متطلبات الإستراتيجية الكونية الجديدة للولايات المتحدة وأيضا تعظيم دور إسرائيل كإمبريالية فرعية تفرض منطقها واستراتيجيتها على منطقة الشرق الأوسط بكاملها حتى لو تطلب ذلك استخدام قوتها النارية التي لا توفر أحدا. وعدوانها المتكرر

على دول عربية وإقليمية عديدة شاهد على ذلك.

لم تكن استعادة الإمبريالية الأمريكية لمواقعها دون نتائج سلبية طبعا على "النظام العربي" بشكل عام أو بين مكوناته، وتجلى ذلك بنشوء تحالفات جديدة وتحولات جديدة بهدف أن تكون تلك التحولات بمثابة مسببات للجنوح بعيدا عن "العاصفة المدمرة" و"الانحناء" امام رياحها التي لا ترحم! هكذا إذن ولج التاريخ السياسي – الطبقي للعديد من الأنظمة العربية طور الارتداد التدريجي عن مكتسبات فترات تاريخية سابقة، لينخرط في طور الوضع السياسي السائد الذي تم تدجنيه تحت حراب انتصار "قوى التحالف الدولي" في حروب عديدة من بينها "حرب الكويت" وغيرها. وباستثناء جذوة المقاومة في بعض البلدان التي ظلت متقدة لفترة لأسباب عديدة، فإن أخطر ما حملته التداعيات التي تلت انتهاء الحرب هو الرهانات المفرطة واللامشروطة للحلول الأمريكية للعديد من قضايا الصراع وفي مقدمتها الصراع العربي - الإسرائيلي وبروز العديد من "التنظيرات" التي قدمتها القيادة الرسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية في حينه، والتي سبقتها العديد من الحوارات السرية التي توجت باتفاق غزة – أريحا واتفاق أوسلو المثير للالتباس ولا يزال، وما تركه من آثار وتداعيات سلبية على مسيرة الشعب الفلسطيني ونضاله من اجل تحقيق حقوقه الوطنية المشروعة بما فيها حقه في إزالة الاحتلال والعودة الى وطنه وإقامة دولته الوطنية المستقلة.

- في ظروف هذا الاختلال الكبير في تناسب القوى الجديد الناتج عن عوامل عدة، نضجت على "نار هادئة" كل الشروط لتطويع القرار السياسي العربي للتصديق على الحل الأمريكي بوصفه "الحل الممكن"!، والتسليم بدور الولايات المتحدة في إخراج قضايا المنطقة العربية من مأزقها المزمن. وفي مثل هذه الأجواء المختلة، حدث تحول جذري في "الإجماع العربي" تمثل بالانتقال من سياسة المواجهة الى سياسة "السلام"، وتنادى "العقلاء" للترويج للحلول الانفرادية، وساد الهدوء معظم جبهات المواجهة باستثناء الجبهة اللبنانية التي بقيت جذوة المقاومة فيها متقدة حتى توجت بانتصارها في أواسط عام 2000 ولاحقا في 2006. هذا إضافة الى المعارك والانتفاضات العديدة التي قام بها الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وغزة، والتي توجت في "طوفان الاقصى" في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 حيث شكلت مرحلة ونقلة نوعية جديدة في كفاح هذا الشعب من اجل حقوقه الوطنية المشروعة، بغض النظر عمن قام بها.

- لقد نجحت الولايات المتحدة من خلال المبادرة بالحرب ورفض التفاوض، في إعادة تأكيد السيطرة الأمريكية المطلقة على المصادر النفطية في المنطقة. ويعطي هذا التحكم للولايات المتحدة، في صراعها من أجل تحقيق المنافسة مع التكتلات الصناعية الكبرى، هامشا أو أداة مناورة إستراتيجية لا تقدر بثمن وهو ما شهدناه في الحرب الروسية - الأوكرانية الخاصة في شباط عام 2022. كما نجحت الولايات المتحدة في تأكيد هيمنتها، أو قيادتها السياسية على العالم، بعد أن وجهت من خلال الحرب ضربة إجهاضية حقيقية للوحدة الأوروبية، بما هي مشروع تكتل سياسي فاعل وليس مجرد سوق اقتصادية، كما نجحت في وضع اليابان

وألمانيا الصاعدتين اقتصاديا تحت ضغط الحاجة النفطية والطاقوية التي تتحكم بها أمريكا. وفيما يتعلق بالمستوى الإستراتيجي الإقليمي، ساهمت الحرب في تعزيز التفوق العسكري الإسرائيلي.

- بعد انهيار "النظام الإقليمي العربي" في حرب الخليج دعمت الولايات المتحدة سياستها الإستراتيجية في هذه المنطقة بنصف مليون جندي تحت مظلة الأمم المتحدة! وفي ظل التفكك العربي من جهة، وغياب الحليف الإستراتيجي من جهة أخرى، أصبحت الولايات المتحدة طليقة اليدين في رسم إستراتيجية طويلة المدى على هذه المنطقة التي تنام على بحيرات من النفط والموارد الطبيعية الأخرى.

ومقابل هذه القضايا لا بد من التوقف عند بعض العناوين بسرعة والتي طفت على السطح:

- تجذر النزعات "القطرية"، وتنامي "وعي جديد" لدى القوى المسيطرة والنخب الحاكمة يقوم على الانكفاء على الذات والسعي لتحقيق "مرابح قطرية". وقاد هذا "الوعي الجديد" الى إعادة تعريف الكثير من المفاهيم، بما في ذلك الصراع العربي – الإسرائيلي الذي تحول فجأة في مخيلة بعض راسمي الإستراتيجية الى مجرد صراع حدودي أو صراع على المياه بين إسرائيل والبلدان العربية المجاورة.. يا لخيبات "الفكر" الاستراتيجي عندما يرتكن الى "مقاربة" كهذه!

- انعكس ذلك على "التضامن العربي" الذي اتخذ انهياره أشكالا متنوعة من بينها الشلل الذي أصاب مؤسسة التضامن الرسمية وأقصد بها جامعة الدول العربية. هكذا أخلى التضامن الجماعي الطريق الى نشوء "تضامنات إقليمية" تتكئ على محاور سياسية محكومة بالتوازنات والمصالح الجهوية. وهكذا بدا انفجار الأزمة واندلاع الحرب وكأنه كان يراد منه أن يكون جزأ من "إستراتيجية التفكيك العربي".

- القبول بالحلول الانفرادية للصراع العربي – الإسرائيلي، بدأ بمؤتمر مدريد ومرورا باتفاق أوسلو و كامب ديفيد 2 وما تلاها وصولا الى التطبيع مع المحتل الإسرائيلي!

- تراجع حركة التحرر الوطني في البلدان العربية الذي قادها الى أزمة بنيوية. وكانت مظاهر هذا التراجع كثيرة، وحسبنا أن نشير الى أن العديد من القوى المكونة لهذه الحركة كانت (ولا تزال لحد الآن) تعاني من حالة شلل سياسي كبير، هذا إضافة الى ما تعانيه برامجها وخططها السياسية من صعوبات جدية.

والخلاصة أن الجهد الإستراتيجي للولايات المتحدة كان، بعد كل ما حدث، يتركز على محورين هما:

الأول: ويتعلق الأمر بمقومات وأسس الترتيبات في وسط وجنوب آسيا والمحيط الهادئ. وهنا يجب أن نتذكر ما تحدث به لاحقا الرئيس الأمريكي الأسبق جورج دبليو بوش عند تسلمه الرئاسة في كانون الثاني| يناير 2001 وهو يحدد أولويات السياسة الخارجية للإدارة الجديدة، فقد أشار في حينه الى أن الأولوية رقم واحد للسياسة الخارجية للإدارة الأمريكية خلال العقود الثلاثة الاخيرة وخياراتها الاستراتيجية هي المحيط الهادئ ووسط وجنوب آسيا. وعلينا أيضا ان نتذكر هنا التحولات "العاصفة" التي شهدتها الاستراتيجية الأمريكية بعد 11

أيلول/ سبتمبر 2001 وفي مقدمة ذلك الانتقال من استراتيجية "الردع والاحتواء" الى استراتيجية "الهجوم الوقائي"، وهو تحول خطير في التفكير الاستراتيجي الأمريكي منذ أربعينات القرن العشرين.

فعند إلقاء نظرة سريعة على الخارطة السياسية والاقتصادية لآسيا ستتضح أهمية وتعقيدات المنطقة، فهي تضم بلدا صناعيا متطورا مثل اليابان باقتصاد أكبر من اقتصاد أي بلد في أوربا، وثلاثة بلدان قارية هي الهند والصين وروسيا الاتحادية، وبلدين – كوريا الجنوبية وسنغافورة – قريبين من امتلاك الإمكانيات الاقتصادية والتكنولوجية للدول الصناعية المتقدمة، وبلدين كبيرين هما الفليبين وإندونيسيا، اللذين يتكونان من آلاف الجزر وتتحكمان بأهم الطرق البحرية، وتايلاند وبورما وهما بلدان قديمان تعداد سكانهما يبلغ حوالي (125) مليون نسمة وهو ما يقارب أو يفوق تعداد سكان فرنسا وإيطاليا، هذا إضافة الى كوريا الشمالية وهي احدى دول "محور الشر" - كما تصفها السياسة الأمريكية - والتي تعمل، باستمرار، على تطوير أسلحة نووية وصواريخ طويلة المدى.

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية من أوائل الدول التي تنبهت لتلك الأهمية الجيوستراتيجية والجيوبولوتيكية للقارة الآسيوية ككل، وما ستشكله فيما بعد من قوة عالمية بسبب امـــتلاكها لذلك المخزون الهائل مـــن الـــنفط، وغيره من الموارد الطبيعية والاقتصادية الهامة، ولكون ارتباط الاقتصاد الآسيوي بالاقتصاد والتجارة الأمريكيين ارتباطا وثيقا جدا.

الثاني: ويتعلق باستكمال الترتيبات في الشرق الأوسط لقيام تواصل يمتد من المغرب الى حدود الصين وجنوباً الى جنوب شرق آسيا والمحيط الهادئ.

والأهداف الآنية والبعيدة المدى التي كانت (ولا تزال طبعا) تسعى الاستراتيجية الأمريكية لبلوغها عديدة، ومن بينها على سبيل المثال:

- احتواء الصين: حيث تعتبر مكانتها المتزايدة الهاجس الأكبر أمام الفكر الاستراتيجي الأمريكي، لأنها على ما يبدو الدولة المهيأة لأن تكون المنافس الأكبر على الصعيد العالمي في وقت لاحق، حيث تحتل حاليا المركز الثاني من الناحية الاقتصادية على الصعيد العالمي، بعد الولايات المتحدة (فمثلا بلغ الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة 29,2 تريليون دولار في عام 2024، مقابل 18.9 تريليون دولار للصين). وهناك الكثير من الباحثين يشيرون الى ان الصين مرشحة لان تلعب دور المنافس للولايات المتّحدة باعتبارها لاعبا فاعلا في ميزان القوى العالمي، يكون قادرا على وضع حدّ لـ "القرن الأميركي". فمثلا أعلن المؤرّخ الأميركي المعروف نيل فرغسون أنّ "القرن الحادي والعشرين قرن الصين".

لذلك فان المهمة هنا هي مراقبة تحركات الصين باعتبارها منافسا اقتصاديا وسياسيا وعسكريا حقيقيا، وقطع الطريق عليها لإقامة أية تحالفات تتيح لها الإطلال منها على دول أسيا الوسطى وإيران وبلدان الخليج الاخرى، وحتى إفريقيا. إذ أن ذلك - بحسب الرؤية الاستراتيجية الأمريكية - يشكل تهديدا لهيمنتها على مكامن النفط في هذه المنطقة من جهة، ووأد طموحاتها – أي الصين - في السيطرة على دول أسيا الوسطى والوصول

إلى الاحتياطي الهائل القابع في بحر قزوين، من جهة أخرى.

وتعني الملاحظات السابقة ضرورة بسط النّفوذ الأمريكي على آسيا الوسطى وهذا الخيار بذاته يمثل تحوّلا إستراتيجيا هامّا. فهذه المنطقة التي تمتد من جبال الأورال حتى حدود الصين الغربية أصبحت على غاية من الأهمّية نظرا لموقعها الجيوستراتيجي المهم وامتلاكها لثروات متعدّدة: بترول بحر قزوين، غاز تركمانستان، قطن أوزباكستان وذهب قيرغيزستان. وبما أن القيادة المركزية الأمريكية Centcom تضع يدها على منطقة الخليج وثرواتها بات من الضّروري بسط النّفوذ على منطقة يقدّر مخزونها من النفط بثلاث مرات ما يختزنه الخليج.

وتأسيسا على ذلك، فانه يمكن توصيف الإستراتيجية الأمريكية الجديدة في هذه المنطقة من خلال إجلاء الزوايا الأربع الاتية:

أ. من زاوية التحليل الجيواستراتيجي، انصب الاهتمام الأمريكي على منع ظهور أقطاب أو تحالفات لقوى تكون منافسة للولايات المتحدة الأمريكية. في هذا السياق يبدو التفكير الاستراتيجي الأمريكي وكأنه يعيد إنتاج أجواء "الحرب الباردة" لاحتواء القوى المنافسة، أو إعادة بعث لنظرية الاحتواء containment إلى مجال أرحب يرتبط بالاحتواء الشامل للقوى الصاعدة في العالم.

ب. من زاوية التحليل الجيوسياسي، ستشكل قارة آسيا بحكم ديناميكية التطور السريع والثقل الاقتصادي والسكاني والعسكري الذي تحتله على الساحة العالمية، فضلا عن اشتمالها على قوى إقليمية متحفزة استراتيجيا وانطوائها على محاور جيوبوليتيكية مهمة، ستشكل قيدا على الحراك السياسي للولايات المتحدة. وعليه فإن هذه الأخيرة، ستسعى إلى بناء ترتيبات إستراتيجية جديدة تَحُد من ديناميات التفاعل الداخلي في آسيا وتمنعها من تهديد المصالح الأمريكية، في صورة تحالفات أوراسية Alliances Eurasian، تُفضي إلى تعددية قطبية غير متوازنة.

ج. من زاوية إعادة تعريف "المصلحة الوطنية"، حيث تسعى الولايات المتحدة إلى أن تأخذ خريطة المصالح الأمريكية وضعا شبكيا ذو امتدادات عالمية يؤشر عليها بالمناطق الحيوية Vital Areas للمصالح الاستراتيجية الأمريكية في العالم.

د. من زاوية التفاعل الارتباطي بين الجيوسياسي والجيواقتصادي، تسعى الولايات المتحدة إلى استكمال أدوات السيطرة العسكرية على مراكز إنتاج الطاقة في العالم والتحكم في المفاصل الجغرافية لنقل الطاقة، بدءا من الشرق الأوسط وصولا إلى نفط آسيا الوسطى وغازها، وبهذا تستطيع التحكم في السياسة العالمية عبر الهيمنة الاقتصادية .

- قطع الطريق على روسيا وتحجيم دورها في دول أسيا الوسطى، وبخاصة تلك التي تطل على بحر قزوين. والهدف من سيطرة الولايات المتحدة هو انه سوف تمكنها كذلك من تحجيم مشروع التحالف بين روسيا الاتحادية والهند، الذي يمكن أن يتنامى بوتائر قد تهدد الخطط الأمريكية الرامية إلى التواجد السياسي والاقتصادي والعسكري القوي للولايات المتحدة في أسيا الوسطى وجنوب أسيا والمحيط الهادي. ويظل منع تبلور محور دولي في هذه المنطقة أعمدته الأساسية الصين وروسيا أحد أهم أهداف الاستراتيجية الأمريكية وتواجدها الملموس في المنطقة.

- مراقبة النشاطات النووية التي تجري في

منطقة المصالح الحيوية للولايات المتحدة والتي تتم في بلدان عدة ومن بينها الهند وباكستان وإيران عن كثب. ولا شك أن التواجد في هذه المنطقة سيعين الولايات المتحدة على احتواء تلك النشاطات بحيث لا تشكل خطرا على ما تسميه بـ ''الأمن القومي الأمريكي''.

ويعكس هذا التواصل جوهر الفكرة/ الأطروحة الملتبسة التي أطلق عليها في حينه ''النظام الدولي الجديد'' الذي كان يراد به أن يكون ''الإنجيل الجديد'' الذي يضبط ''نظام الأحادية القطبية'' ويفتح الأفق لانتقال الرأسمالية المتعولمة الى مرحلة جديدة يتم فيها تنميط الجميع وفقا لمقاسات المنتصرين في الحروب المكشوفة، أو في ''حرب الأشباح'' التي يجري الإعداد لها بين الحين والآخر.

ولا بد من الاشارة هنا الى الحوار الثري والمتشعب الذي دار في مطلع التسعينات حول طبيعة خارطة العلاقات الدولية الجديدة وقد افضى الى رؤيتين متضاربتين:

- تذهب إحداهما الى ان القرن الجديد، الحادي والعشرين، سيكون قرنا أمريكيا آخر، بالنظر لما تجمعَ للولايات المتحدة من عناصر قوة اقتصادية واستراتيجية، مستمدة من طبيعة النموذج الأمريكي.

- في حين ذهب البعض الآخر الى تصور مضاد قوامه ان العالم سائر نحو نمط من التعددية القطبية لا يمكن ان تختزل في الأبعاد العسكرية والاستراتيجية.

بل ان اركانها اما اقتصادية او حضارية، داخل العالم المتقدم ذاته (التباين بين المركز الأوروبي الموحد والقطب الاسيوي الصيني - الياباني) او على خطوط التصدع بين ''الشمال'' و ''الجنوب''.

ولا شك ان الرؤيتين ظلتا أسيرتي البراديغم Paradigm ذاته، اي نموذج الصراع القطبي بخلفيته المحصورة في عنصر الدولة القومية ذات السيادة والمجال الحيوي، وهو – بحسب بعض الباحثين - نموذج استنفد أغراضه، ولم يعد صالحا لضبط الخارطة الجيواستراتيجية العالمية.

فما كشفت عنه لاحقا أحداث 11 ايلول/ سبتمبر 2001 هو ان هذه الخارطة تضم مكونات ثلاثة متعايشة وان كانت متنافرة ومتمايزة وهي: الدولة القومية التي لا تزال لاعبا أساسيا رغم ما يقال عن نهايتها او انتكاستها ، والسوق العالمية التي غدت خارج كل رقابة وسيطرة وان لم تفرز بعد آليات دقيقة لتنظيم اطر اشتغالها والعلاقات التي تحكم عناصرها، و''الشبكات الرمادية'' المنفلتة من قبضة الأجهزة المركزية للدولة من دون ان تعبر بالضرورة عن مصالح ونوازع قوى اقتصادية كونية (الشركات العابرة للقارات او المتعدية الجنسيات)، وإنما تتخذ صيغا اكثر بروزا في السياق الاثني القومي او الديني.

ان تعايش وتصادم هذه المكونات الثلاثة، هما اللذان يشكلان المحدد الأبرز للخارطة العالمية الجديدة.

فالنظام الدولي المندثر ولّد - على صراعاته وتناقضاته - إطارا واضحا ومحددا لتأويله، في مستوى مقاييس ديناميكية الحداثة بقاعدتها الأيديولوجية (يوتوبيا التقدم) ومرتكزها المؤسسي (نموذج الدولة القومية) ورهانها الاستراتيجي (الصراع بين اقطاب متمايزة). ويمكن الاتفاق مع المفكر الاقتصادي المصري الراحل سمير امين بقوله ان

الأيديولوجيات الثلاث الكبرى التي عرفها النظام الدولي السابق وهي الخيار الليبرالي، والمنظومة الاشتراكية، وإيديولوجيا التحرر العالم ثالثية

قد شكلت لحظات نظام واحد متحد في المرجعية العميقة، متصادم داخليا في رهانات عينية ملموسة.

وعلى خطوط التصادم بين "المركزية القومية" والعولمة الاقتصادية نمت وتنمو هوامش الرفض والاحتجاج، وتتخذ أشكالا وصورا متباينة: من الحركات السياسية الانفصالية، الى مجموعات المافيا، انتهاء بالطوائف الدينية والاستقطابات الطائفية وحركات التطرف المستندة للخصوصيات الثقافية والإثنية.

ومن جانب اخر فإن حرب الخليج الثانية أو "عاصفة الصحراء" أدّت وساعدت على توطيد سيطرة الولايات المتحدة على منابع النفط على حساب الدول الأوربية وإحكام سيطرتها على منطقة الخليج، وبالتالي واصلت نهجها هذا واستخدمت (ولا تزال وستبقى) كل الوسائل الممكنة لإدامة هذه السيطرة، وهي معنية بأن تكون هذه المنطقة هادئة من خلال أنظمة موالية أو لا تشكل خطراً على المصالح الحيوية للولايات المتحدة في المنطقة.

وهذا يفسر الدعم اللامحدود والثابت للحرب التي قامت بها إسرائيل وعدوانها على الشعبين الفلسطيني في قطاع غزة والضفة الغربية وكذلك على لبنان، وبلدان أخرى.

سمات العولمة الرأسمالية المعاصرة ومراحل تطورها*

د. فاخر جاسم

مقدمة

يثير مفهوم العولمة في الوقت الراهن، إشكاليات عديدة، ترجع إلى كثرة الكتابات التي تتناولها، وتقديم دراسات متباينة لمضمونها، تركز على آليات العولمة، وليس على مضمونها، الذي يعني التبادل الحر بكافة أنواعه (السلع، الخدمات، رؤوس الأموال، المعلومات والأفراد) عبر الحدود الوطنية بدون تدخل الدولة. إن الاختلاف في مفهوم العولمة، لا يقتصر على الباحثين والمفكرين والسياسيين، بل ماذا تعني العولمة وما هي أهدافها وتأثير تطبيقها على المواطنين في الدول الغنية والفقيرة. كل ذلك، أدى إلى خلق التباس حول حقيقة العولمة ومضمونها. وبناء على ذلك، تحاول المقالة القاء بعض الأضواء على سمات العولمة الرأسمالية المعاصرة وتأثيرها على البلدان النامية خلال العقود الثلاثة الأخيرة، استناداً على الوقائع الفعلية الناتجة عن التطبيق، وليس على الأهداف المعلنة من قبل قوى الهيمنة الدولية ومناصريها في الدول الوطنية أولاً. وثانياً، تناول العلاقة الجدلية بين العولمة كونها ظاهرة طبيعية نتيجة تطور العلاقات بأشكالها المختلفة بين دول وشعوب العالم، وبين العولمة الرأسمالية من خلال تتبع المظاهر الناتجة عن تطبيق العولمة في عالم القطبية الواحدة.

سيتم تناول الموضوع من خلال محورين، الاول، مقدمات تمهيدية. والثاني، مراحل العولمة المعاصرة.

المحور الاول، ملاحظات تمهيدية وتعريف العولمة

أولاً، ملاحظات تمهيدية

• تزامن مع بروز ظاهرة العولمة بصيغتها الأمريكية، الترويج بكثافة لكثرة من المفاهيم مثل الديمقراطية، حقوق الإنسان، الحرية، التعددية، المجتمع المدني، التدخل الإنساني، الدولة العميقة، العلمانية، صراع الحضارات، نظرية الفوضى الخلاقة، نهاية التاريخ، الليبرالية الجديدة، الكوكبة، التدويل والتكامل وغيرها، وقد كان الهدف من تصدر هذه المفاهيم وكثرة الكتابة عنها والدعاية لها من الإعلام المعولم ومراكز الأبحاث والمفكرين والباحثين المرتبطين بالنخب الحاكمة في البلدان الرأسمالية الغربية، هو حرف الانتباه عن مناقشة التأثيرات السلبية التي تتركها العولمة الرأسمالية على شعوب العالم.

• تمثل ظاهرة العولمة، تطوراً طبيعياً لحركة التاريخ البشري نحو التواصل والتكامل، وقد مر تطورها التاريخي بمراحل عديدة بدأت مع تكامل مفهوم الدولة القومية في أوروبا في منتصف القرن الثامن عشر والحاجة إلى تنظيم العلاقات الدولية، وتنظيم الاتصالات والتجارة التي ازدهرت بفضل نتائج الثورة الصناعية التي شهدتها أوروبا، وما نتج عنها من زيادة الانتاج الصناعي، وتعاظم الثروة الاجتماعية وزيادة عدد السكان وظهور طبقات اجتماعية جديدة، البرجوازية والطبقة العاملة، وبناء على ذلك ينبغي تحليل الطابع المتناقض للعولمة الرأسمالية، باعتبارها نظام تاريخي ينمو ويتطور، ويرتبط تطبيقها وتطورها بالظروف الملموسة التي تجري فيها.

• اما العولمة بنمطها الحالي، وهدفها المرتبط بهيمنة الغرب على العالم، فإن نشأتها ارتبطت بمساعي الدول الغربية للسيطرة على العالم واستعماره "المرحلة الاستعمارية" 1880 - 1925، حين أكملت الدول الأوربية والولايات المتحدة سيطرتها على أغلب الشعوب في أمريكا اللاتينية وأسيا وأفريقيا[1].

• لم يكن مفهوم العولمة جديداً في الفكر السياسي والاقتصادي، حيث تم تناوله من قبل عدد من المفكرين من توجهات فكرية مختلفة، ومنهم كارل ماركس، الذي أشار إلى فكرة عولمة نضال الشغيلة، بطرحة شعار "يا عمال العالم اتحدوا" القائم على وحدة مصالح الشغيلة من مختلف الأقطار، ردا على توحيد نشاط الرأسماليين على الصعيد العالمي، وتحليله لطبيعة تراكم رأس المال على الصعيد الدولي.

• ومن حيث المضمون، نرى أن كافة الإيديولوجيات الشمولية، تدخل ضمن مفهوم العولمة على سبيل المثال شعار تيار الإسلام السياسي، الإسلام هو الحل، وصلاحيته لكل زمان ومكان، وكذلك فكرة الشيوعية صالحة لكل مجتمع. وعلى الصعيد النظري، طرحت الماركسية، فكرة زوال الدولة لصالح تنظيم دولي خالي من مؤسسة الدولة، وقبل ان تزول الدولة طرحت الماركسية، ضرورة وحدة نضال الشغيلة في العالم لتحقيق المجتمع الخالي من الطبقات، ويمثل تأسيس الأممية الشيوعية الاولى تجسيدا لهذ المسعى. وكذلك يمثل توجه الشركات الرأسمالية من مختلف البلدان، لتوحيد نشاطها من أجل الهيمنة على الشعوب والدول، وكذلك نظرية نهاية التاريخ، لفرنسيس فوكاياما، فكلها تمثّل تعبيرات مختلفة عن ظاهرة وجوهر العولمة في الظروف المعاصرة.

• هناك التباس فيما يخص الأساس الاقتصادي الذي تستند عليه العولمة، أساسه قام على عدم التفريق بين رأس المال "بوصفه علاقة اجتماعية" وتدويل رأس المال بوصفه "تدويل لملكية رأس المال"[2]. فالأول، يعني أن التدويل قائم على علاقة العمل برأس المال. أما الثاني، فانه يدل على اشتراك رأس مال عدة دول في ملكية رأس المال. إن هذا التمييز يساعد على تبين خطأ الطروحات التي تزعم ان العولمة مفيدة بالمطلق لكل دول العالم بالاستناد على المفهوم القائل بالملكية الدولية لرأس المال، وبالتالي فأن منافع ومضار العولمة تشمل جميع دول العالم حسب حصتها من ملكية رأس المال الدولي، وبذلك يجري التمويه على تدويل الاستغلال الذي تتسم به العولمة الرأسمالية، من خلال حصر تدويل رأس المال بالعلاقة بين رأسماليين من دول متعددة.

• إن ظاهرة العولمة ينبغي أن تفهم كما هي في الواقع، وليس كما يروج لها منظرو الليبرالية الجديدة في أبحاثهم ووسائل الإعلام الليبرالية، باعتبارها مسألة ضرورية مرتبطة بالتطور العالمي ونمو الاتصالات بين الشعوب والتطور التكنولوجي ونمو المصالح الاقتصادية المشتركة، والغاء الحواجز بين الأسواق، بعد انهيار المعسكر الاشتراكي، وبالتالي أصبحت العولمة هي نتاج طبيعي لوحدانية شكل التطور الرأسمالي على الصعيد العالمي، في بداية تسعينيات القرن الماضي. وبدا الترويج لفكرة "المقاومة المستحيلة" بمعنى أن الوقوف بمواجهة العولمة الرأسمالية هو وقوف بوجه التطور البشري. وقد تم التعبير فلسفياً عن هذا بفكرة نهاية التاريخ التي طرحها المفكر الليبرالي، فرنسوا فوكوياما، قبل أن يتخلى عنها لاحقاً. وبحسبي إن ذلك تكرار لفكرة هيغل الشهيرة: كل ما هو قائم هو عقلاني.

• تعتمد العولمة الرأسمالية في تنفيذ اهدافها على مجموعة من المؤسسات الدولية الخاضعة لهيمنة الدول الرأسمالية الكبرى، بشكل مباشر، ومن اهمها: منظمة التجارة الدولية "الجات"، صندوق النقد الدولي، البنك الدولي للأنشاء والتعمير، الشركات متعدية الجنسية، الاتحاد الأوروبي، حلف شمال الأطلسي، منتدى دافوس، نادي باريس، ومجموعة الدول السبع، يضاف لها الصحافة المعولمة ومنظمة الامم المتحدة ومؤسساتها التي تسيطر عليها الدول الغربية، بشكل غير مباشر.

ثانياً، تعريف العولمة

هناك اختلاف كبير بين المفكرين والباحثين ومعاهد الأبحاث حول تعريف العولمة، يرجع إلى اختلاف المواقف الفكرية والسياسية والأهداف التي يخدمها التعريف. هناك نوعان من التعريفات، الأول، يشمل تعريفات نظرية عامة مجردة تبتعد عن تبيان أهداف العولمة الرأسمالية الحقيقة، وتركز على آليات العولمة المعلنة. والنوع الثاني، هو الذي يكشف عن الأهداف الحقيقية للعولمة الرأسمالية باعتبارها وسيلة لمواصلة هيمنة الدول الرأسمالية الغربية على البلدان الضعيفة التطور، بعناوين جديدة.

وهنا أدرج بعضاً من النوع الأول:-

1. العولمة هي أيديولوجية الليبرالية الجديدة[3].
2. تعريف سمير أمين: العولمة ستار تكمن الرأسمالية الهمجية من ورائه[4].
3. تعريف لطفي حاتم: العولمة هي تعبير عن الطور الجديد من التوسع الرأسمالي، بترابط وتناقض مستويات بيئته الاقتصادية والسياسية[5].
4. تعريف شائع، تروج له معاهد أبحاث الليبرالية الجديدة وكتابها يقول: العولمة سيرورة محققة ناتجة عن تدويل العمليات الأساسية للإنتاج وإعادة الإنتاج والعمل والأسواق والتوزيع"[6].
5. تعريف مجمع اللغة العربية: جعل الشيء عالمي الانتشار في مداه وتطبيقه. وهذا اتجاه يعتمد على الإبداع العلمي والتطور الثقافي والصناعي وثورة الاتصالات، بحيث تفرض الدول القوية المتقدمة أنماطها في مختلف المجالات، وتطمس الهوية الذاتية للأمم الضعيفة[7].

وهناك كثير من التعريفات من النوع الثاني اذكر منها:

1. "التداخل الواضح لأمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك دون

اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة أو انتماء إلى وطن محدد أو لدولة معينة ودون حاجة إلى إجراءات حكومية"[8].

2. تعريف توم جي بالمر (Tom G Palmer) من معهد كيتو بواشنطن: العولمة عبارة عن تقليل أو الغاء القيود المفروضة من قبل الدولة على كل علميات التبادل التي تتم عبر الحدود وازدهار ظهور النظم العالمية المتكاملة والمتطورة للإنتاج والتبادل الناتجة عن ذلك"[9].

3. تعريف العولمة الملموس: حرية فئة كبار رجال الأعمال في ان تقيم منشآتها اينما أرادت، حينما أرادت وان تنتج ما تريد وان تحصل على موادها وان تبيع أينما شاءت، والا تواجه سوى أقل ما يمكن من التزامات كقانون العمل والتعويضات الاجتماعي"[10].

إجمالاً، يمكن تكثيف معنى العولمة الرأسمالية بانها: تعبير عن شكل التوسع الرأسمالي أو وسيلة التوسع الرأسمالي الذي يتلاءم مع فترة القطبية الواحدة، للهيمنة على العالم ونهب ثروات الدول النامية. وبهذا المعنى تعتبر العولمة استراتيجية مشتركة من الدول الرأسمالية الغربية الكبرى، للهيمنة على العالم، في ظل نظام القطبية الواحدة الذي تقوده الولايات المتحدة.

المحور الثاني، مراحل تطور العولمة الرأسمالية المعاصرة

لقد مرّ تطور العولمة الرأسمالية بعدة مراحل بناء على المراحل التي تطورت فيها الرأسمالية الغربية ومساعيها للهيمنة والأسلوب الذي اتخذته لإخضاع دول العالم. وبخصوص العولمة المعاصرة، يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل[11]:

الأولى، بدأت بمساعي الولايات المتحدة بتعزيز نفوذها في أمريكا اللاتينية والدول الأوروبية الأكثر تطوراً (بريطانيا، المانيا، فرنسا ، إيطاليا ، إسبانيا والبرتغال) لتوسيع سيطرتها خارج أوروبا، الذي اكتمل بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى 1918، حيث تمت السيطرة على كامل قارة أفريقيا ومعظم آسيا، وهنا تحولت العولمة من طباعها الذي ينسجم مع التطور الطبيعي للتكامل بين الشعوب والدول، إلى نمط الهيمنة على البلدان والشعوب الضعيفة خارج أوروبا والولايات المتحدة، ومن أجل اضفاء شرعية على الاستعمار الغربي، ظهرت عصبة الأمم 1920، كتنظيم دولي ينظم العلاقات الدولية وتحقيق السلم والأمن الدوليين، كأهداف رئيسية معلنة، ولكن وقوعها تحت تأثير الدول الاستعمارية الأوروبية والولايات المتحدة واستغلالها لمصالحها الخاصة على حساب شعوب العالم الضعيفة، فشلت في تحقيق أهدافها المعلنة ومنع نشوب الحرب العالمية الثانية.

المرحلة الثانية، ظهرت هذه المرحلة، بعد الحرب العالمية الثانية، التي أدت نتائجها إلى نشوء نظام جديد للعلاقات الدولية ثنائي القطبية، المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي، أدى إلى تأسيس منظمة الامم المتحدة 1945 لتكون بديلاً لعصبة الأمم، هدفها تعزيز التعاون الدولي والمحافظة على السلم والامن في العالم. وقد استطاعت المنظمة، على الرغم من الحرب البادرة والتنافس بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي، تحقيق انجازات هامة، تمثلت بمساعدة عدد كبير من المستعمرات لتحقيق استقلالها الوطني وتكوين دولها المستقلة، وانشاء العديد من المنظمات

الدولية التي استطاعت تعزيز التعاون الدولي وتقديم المساعدات المختلفة للدول ضعيفة التطور.

لقد تم الحد من المظاهر السلبية للعولمة، خلال فترة الحرب الباردة، تحت تأثير الصراع بين المعسكر الاشتراكي والرأسمالي والدور الفعال لحركة التحرر الوطني التي استطاعت التخلص من السيطرة الاستعمارية وتكوين العشرات من الدول المستقلة سياسيا عن قوى الهيمنة الغربية. وهنا أشير إلى العديد العوامل التي اضعفت من قدرة قوى العولمة الرأسمالية على فرض هيمنتها على بقية دول العالم[12]، ومن أهمها:

• توازن القوى على الصعيد العالمي، لم يسمح للدول الرأسمالية الكبرى بالهيمنة على العالم.

• الدعم، السياسي والاقتصادي، الذي تقدمه دول المعسكر الاشتراكي للدولة النامية، عزز من قدرتها على مقاومة مشاريع الهيمنة الغربية.

• فعالية القوى الديمقراطية واليسارية في الدول الرأسمالية، المعارضة لسياسة النخب الحاكمة للتدخل في الشؤون الداخلية للدول النامية.

• قوة تنظيم الطبقة العاملة على الصعيد العالمي ونشاطها الفعال للدفاع عن حقوق العمال والشغيلة بشكل عام.

• كما كان للتنافس المتعدد الأشكال بين المراكز الرأسمالية الكبرى، تأثيره الإيجابي على قدرة دول العالم الثالث في مقاومة ضغوط الدول الرأسمالية الكبرى.

المرحلة الثالثة، بدأت بعد انتهاء الحرب الباردة، نتيجة انهيار المنظومة الاشتراكية، المتمثّلة بالاتحاد السوفييتي ودول اوروبا الشرقية، في بداية تسعينيات القرن العشرين، حيث سار التطور التاريخي للعولمة الرأسمالية في ظل نظام القطبية الواحدة الذي تمثله الولايات المتحدة، وتحت تأثير انتصار الرأسمالية واعتبارها النظام الوحيد لتطور البشرية. وخُلق انطباع واهم لدى النخب السياسية والثقافية، خاصة الحاكمة، بان الرأسمالية هي النظام الوحيد الذي ينسجم مع التطور البشري، وأنه لا يوجد أسلوب حياة وتطور بكافة جوانبه لا يأخذ من الغرب منابعه، وادى هذا الوهم إلى ظهور كثير من النظريات التي تروج فكرة انتصار الرأسمالية النهائي على المستوى الدولي، كنظرية "نهاية التاريخ" للفيلسوف الأمريكي، فرانسيس فوكوياما، ونظرية صراع الحضارات، لصاموئيل هنتنغتون، لتدافع عن فكرة أن حضارة الغرب هي حضارة العالم[13]. وبناء على سير تطور العولمة الرأسمالية خلال مرحلة القطبية الواحدة، يمكن تقسيمها إلى فترتين:

الفترة الاولى، 1990 - 2008

يمكن الإشارة بشكل مكثف إلى أبرز ملامح هذه الفترة، بالعناوين التالية:

1. اتخذت العولمة مسارا جديدا بعد حرب الخليج الاولى 1991، حيث تم فرض الرؤية الامريكية للعولمة الرأسمالية بالقوة، مستغلة ميل ميزان القوة العسكرية لصالح الغرب، نتيجة انهيار المنظومة الاشتراكية.

2. سيطرت أفكار الليبرالية الجديدة على تفكير النخب السياسية الحاكمة في الدول الرأسمالية الغربية وأصبح النهج السياسي المحافظ هو السائد في تعامل الدول الغربية مع بقية دول وشعوب العالم[14].

3. بعد ان شعرت الولايات المتحدة، بأنها قائدة النظام العالمي الجديد الذي تشكل بعد نهاية الحرب الباردة، ولا توجد قوة في العالم

قادرة على منافستها، شجعت سياسة الانفتاح الاقتصادي، التي أدت إلى انتعاش التجارة العالمية ونقل التكنلوجيا المتطورة إلى الدول الأخرى، الذي نتج عنه تطور عدد من البلدان في شرق أسيا "النمور الأسيوية" وظهور دول الرأسمالية الناهضة (الصين، الهند، البرازيل وروسيا)[15].

4. ومن أجل اعطاء مصداقية لمزاعم العولمة الرأسمالية عن نشر الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان في العالم، قامت الولايات المتحدة باتخاذ بعض الخطوات، منها على سبيل المثال، الضغط على إسرائيل وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية لعقد اتفاقية أوسلو عام 1993 لتلبية بعض الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، التدخل العسكري في الصومال عام 1992 لإيقاف الحرب الأهلية وتقديم المساعدة للتقليل من المجاعة، حيث مهد هذا التدخل لإضفاء شرعية دولية لمفهوم التدخل الإنساني الذي أصبح لاحقا سياسة معلنة من الولايات المتحدة ودول حلف الأطلسي للتدخل في النزاعات الوطنية في الدول النامية[16].

5. ظهور الشركات متعدية الجنسية، التي سيطرت (500) منها على 80 % من الانتاج القومي العالمي و85% من حركة التجارة العالمية، وقدرت ثروتها بـ 20 ترليون دولار، وتتوزع مقار هذه الشركات: في دول الاتحاد الأوروبي (163) الولايات المتحدة (162) واليابان (67) وفي الصين (25) وفي كوريا الجنوبية (14) والهند (6) والبرازيل (5) شركات[17]. وكان من نتائج تأثير الشركات متعدية الجنسية، الانتقال التدريجي لصناعة القرار السياسي من السلطة السياسية، الحكومة والبرلمان، إلى المؤسسات الاقتصادية الكبرى ورجال المال[18].

6. زيادة الاعتماد على المنظمات الاقتصادية الدولية كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي للاستثمار، ومؤسسة التنمية الدولية، ومؤسسة التمويل الدولية، اضافة إلى منظمة التجارة الدولية، لفرض توجهات العولمة الاقتصادية على البلدان التي تتعرض لازمات مالية واقتصادية او تحتاج إلى التمويل المالي الخارجي لتطوير اقتصادها[19]. في حالة فشل التوجهات السابقة أو رفض الدول النامية لها، يتم اللجوء إلى الضغوط والعقوبات الاقتصادية والتجارة غير المتكافئة التي أدت إلى تحول هذه البلدان إلى مصدر لتصدير المواد الأولية ونهب خيراتها، حيث بلغت خسائر بلدان الجنوب من التجارة غير المتكافئة مع دول الشمال حوالي (14) مرة من المساعدات التي تقدمها الدول الرأسمالية إلى الدول النامية (700 مليار الخسائر مقابل 50 مليار المساعدات)[20].

7. التدخل العسكري، بما فيه الغزو العسكري، من قبل الدول الغربية في النزاعات الوطنية في الدول النامية، بهدف احكام الهيمنة عليها. على سبيل المثال، التدخل العسكري في الصومال 1992، وفي البلقان "يوغوسلافيا سابقاً" بين عامي 1992 - 1999 وانتهت بتقسيم يوغسلافيا إلى ست دول. والغزو العسكري لأفغانستان 2001 والعراق 2003.

8. تأجيج الصراع الثقافي ضد ثقافات الشعوب غير الاوربية، تحت تأثير نظرية صراع الحضارات واستغلال أحداث 11 أيلول| سبتمبر، لخلق حالة الخوف من الإسلام لدى الشعوب الغربية.

9. اتخاذ الديمقراطية وحقوق الإنسان كوسيلة لاحتواء البلدان غير المتطورة التي تعلن رفض الهيمنة الغربية والضغط على النخب

الحاكمة في الدول الخاضعة لها لأحكام الهيمنة عليها، مع السعي لفرض النموذج الأمريكي، بشكل خاص، كما حدث في عدد من بلدان أمريكا اللاتينية، هايتي على سبيل المثال، التي تحولت إلى دولة فاشلة تتحكم فيها العصابات المسلحة وتجار المخدرات. كما أن تطبيق ديمقراطية الفوضى الخلاقة، بعد الغزو الأمريكي، لأفغانستان وللعراق، أدى إلى تفكك الدولة العراقية وانتشار الفوضى والعنف، وبالنسبة لأفغانستان، فقد عادت حركة طالبان إلى السلطة، بعد أكثر من عقدين من الاحتلال الامريكي.

10. تشجيع النزاعات الإثنية في كثير من البلدان غير المتطورة، تحت شعار حقوق الأقليات، الأمر الذي أدى إلى صراعات عرقية ومذهبية وحروب أهلية في كثير من الدول ذات التعدد العرقي والإثيني، ذهب ضحيتها مئات الآلاف من المواطنين وتخريب البنى التحتية ومؤسساتها الاقتصادية[21].

11. استخدام الضغوط السياسية والاقتصادية لإجبار الدولة الوطنية للتخلي عن دورها الإجتماعي، واستخدام نفس الأسلوب لتفكيك دولة الرفاه الاجتماعي في شمال أوروبا، وتشجيعها للتخلي عن دورها الاجتماعي وخصخصة القطاع العام وبشكل خاص مؤسسات الخدمات الاجتماعية في الصحة والتعليم والخدمات العامة[22].

الفترة الثانية، العولمة بعد الأزمة المالية العالمية 2008ـ 2009

شهدت هذه الفترة أول أزمة مالية عالمية (2008 - 2009) في عصر القطبية الواحدة، وبددت الاعتقاد الذي روجت له قوى الهيمنة الدولية ومفكروها، وهو انتهاء عصر الأزمات الاقتصادية العالمية، بعد انتهاء الحرب الباردة. لقد أدت الأزمة، إلى تغيير نوعي في نهج الليبرالية الجديدة والنخب الحاكمة تمثل بتدخل الدولة في الاقتصاد الوطني، بهدف انقاذ المؤسسات المالية والشركات الكبرى المعرضة للإفلاس نتيجة لآليات المنافسة التي تؤدي إلى إزاحة الشركات التي تعجز عن المنافسة، وحسب القاعدة التي تقول: إن من يفلس يخرج من السوق. وقد كسرت الدولة الرأسمالية هذه القاعدة باتخاذها العديد من الإجراءات، من أبرزها، تقديم القروض والإعانات المالية والإعفاءات الضريبية، للشركات الكبرى والبنوك، للحد من تداعيات الأزمة المالية عليها، في حين تم تحميل المواطنين، خاصة محدودي الدخل، التبعات المالية، من خلال زيادة الضرائب وتجميد الأجور وتقليل الإنفاق على قطاع الخدمات الاجتماعية، كالصحة والتعليم والسكن والخدمات الأساسية، بحيث أصبحت غير قادرة على تلبية حاجات المواطنين، اضافة إلى مساهمة الأزمة في تآكل مدخرات المواطنين في الأسهم والمساكن.

واصبح هذا النهج هو السائد في الفترة التي تلت الأزمة المالية، فاتخذت الدول الرأسمالية الكبرى، العديد من الإجراءات السياسية والاقتصادية التي تحمي شركاتها في ظروف المنافسة الجديدة التي ظهرت بعد صعود الدور الاقتصادي للدول الرأسمالية الناهضة، كالصين والهند وروسيا والبرازيل، ولجأت إلى سياسة رفع الرسوم الجمركية على البضائع التي تنتج في هذه الدول، إضافة إلى حظر الاستيراد والعقوبات الاقتصادية على الدول التي ترفض هذه السياسة.

لقد تطور النهج السابق، خلال الأزمات التي

واجهتها، الدول الرأسمالية الغربية مثلما حدث في التعامل مع الازمة الاقتصادية التي نتجت عن جائحة كورونا والحرب الروسية الأوكرانية التي اندلعت في شباط 2022، إلى سياسة الحماية الاقتصادية التي تهدف إلى المحافظة على الأمن الاقتصادي الوطني للدولة، وبشكل يتعارض مع سياسة العولمة التي تتضمن انفتاح الحدود الوطنية لتجارة السلع والخدمات ورأسمال. بمعنى العودة إلى سياسة الحرب الباردة الاقتصادية التي أدت إلى أضرار بالغة في الاقتصاديات الوطنية والاقتصاد العالمي.

ومن أبرز ملامح هذه الفترة

• تراجع دور الحركة الماركسية والاشتراكية، وتأثيرها الفكري على الصعيد العالمي، بعد الصدمة التي تعرضت لها بعد انهيار المعسكر الاشتراكي، حيث نلاحظ انحسار القاعدة الاجتماعية للأحزاب الشيوعية والعمالية في العالم وتحول الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية نحو اليمين في نهجها الاجتماعي والسياسي.

• ترافق مع جنوح الأحزاب الليبرالية "يمين الوسط" نحو اليمين، نمو التيارات الشعبوية ذات التوجه اليميني في كثرة من البلدان الرأسمالية وتوليها السلطة في الولايات المتحدة وبعض دول أمريكا اللاتينية البرازيل (سابقا) والأرجنتين، وفرنسا وبريطانيا والهند.

• تغيير استراتيجية الهيمنة الأمريكية من سياسة الاحتواء لعدو محتمل بواسطة العقوبات الاقتصادية والحرب الاستباقية المباشرة، التي طبقت في المرحلة الاولى، إلى سياسة الاحتواء بالواسطة، تأجيج الصراع الخليجي ـ الإيراني، التدخل العسكري الخليجي في اليمن، التدخل العسكري التركي في سوريا والعراق وليبيا، الحرب في أوكرانيا، الحرب الأرمنية ـ الأذربيجانية، الحروب الأهلية في عدد من الدول الأفريقية.

• تعزيز دور المخابرات الأمريكية، لتأسيس المنظمات المتطرفة، مواصلة تجربتها الواسعة بهذا المجال خلال الحرب الباردة[23] حيث ساعدت منظمات السلفية الجهادية (القاعدة وداعش واخواتها) وبالتعاون مع المخابرات التركية والخليجية، على تخريب الاحتجاجات الشعبية التي حدثت في عدد من الدول العربية، بلجوئها للعنف المسلح في صراعها مع السلطات الحاكمة، وكذلك دعم نشاط هذه المنظمات في عدد من البلدان الأفريقية، اضافة إلى دعم مجموعات المعارضة للتطرف في مواقفها في الدول التي ترفض الانصياع للمخططات الهيمنة الغربية.

• موقف متناقض من دور الدولة في الحياة الاقتصادية، ففي البلدان الضعيفة التطور حيث نلاحظ أن قوى الهيمنة الدولية تعمل على اضعاف هذا الدور، نظراً لأن الدولة هي القوة الوحيدة القادرة على تحريك مسار التنمية والتطور وتحقيق الاستقلال الاقتصادي والوقوف بوجه مشاريع قوى الهيمنة الأجنبية لنهب ثرواتها، لذلك تطالب الدول الغربية التي تقود العولمة بتقليل دور الدولة الوطنية في الحياة الاقتصادية. في حين تجري زيادة تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية في الدول الرأسمالية الكبرى، خاصة خلال الازمات الاقتصادية، من خلال تقديم الدعم للشركات كتخفيف الضرائب وتقديم القروض، وحماية الشركات من منافسة الشركات الأجنبية، اضافة إلى الوقوف مع الشركات في نزاعها مع النقابات العمالية. لقد أدت ضغوط قوى الهيمنة الدولية بخصوص اضعاف دور الدولة

الاجتماعي في العديد من البلدان إلى خلق حالة من عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي، الذي وفر الشروط المواتية للتدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية[24].

• انتقال الحروب بين الدول إلى الحروب الداخلية بين القوميات والمذاهب والاديان، بحيث أصبح نهج التدخل غير المباشر في النزاعات الداخلية في الدول الوطنية هو السائد في سياسة قوى الهيمنة الدولية، خلال هذه المرحلة، خاصة بعد فشل سياسة الغزو العسكري لأفغانستان والعراق، نتيجة المقاومة الوطنية. أدى هذا التوجه إلى ظهور مفهوم "الحروب المنسية " وهي الحروب التي تترك بدون نهايات واضحة: الحرب الروسية -الأوكرانية، كنموذج، استمرار الحروب الأهلية، منها الحرب الأهلية في الصومال، السودان، اليمن، الكونغو الديمقراطية، العنف الهمجي للمنظمات الجهادية السلفية كداعش وتفرعاتها في دول الساحل الأفريقي، الحرب الإسرائيلية المستمرة على الدول العربية والشعب الفلسطيني.

لقد أدت سياسة التدخل السابقة إلى ثلاث نتائج، الاولى، شيوع حالة عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي في عدد كبير من الدول الوطنية، وتحول البعض منها إلى دولة فاشلة، تتحكم فيها العصابات المسلحة كما يحدث في هايتي، الصومال، افغانستان، العراق، لبنان، سوريا، على سبيل المثال، والثانية، ظهور المنظمات الدولية للسلفية الجهادية الإسلامية مثل القاعدة وداعش، المدعومة من الدول الغربية، والدول المحافظة في الخليج العربي وتركيا، التي امتد نشاطها إلى بلدان عديدة في آسيا وأفريقيا. والنتيجة، الثالثة، نهوض وطني ضد سياسة العولمة الرأسمالية، خاصة في الدول الأفريقية وأمريكا اللاتينية، أدى إلى وصول القوى الوطنية الرافضة للهيمنة الغربية، إلى السلطة في عدد من هذه الدول.

اما على الصعيد الاقتصادي، شهد تطور العولمة خلال هذه الفترة، ظهور ما يعرف بالكساد الاقتصادي المستمر ومن أبرز مظاهره:

1. تكرار الازمات المالية خلال فترات قصيرة، التي يعبر عنها افلاس بنوك كبرى وتدخل مباشر من الدولة للحد من اتساع الظاهرة[25].
2. تكرر أزمات العقارات في الدول الرأسمالية وخاصة الولايات المتحدة.
3. الانهيارات المفاجئة للبورصة في الدول الرأسمالية الكبرى وتأثير ذلك على انخفاض الأسهم الذي ادى إلى تآكل مدخرات عدد كبير من المواطنين[26].
4. عدم السيطرة على التضخم الذي يرتفع باستمرار وتأثير ذلك على ارتفاع الاسعار.
5. تداخل الازمات المالية، مع أزمات أخرى، الازمة الصحية العالمية التي خلقتها جائحة كرونا، او مع ازمات اخرى ناتجة عن تحكم الولايات المتحدة بالنظام العالمي ذي القطبية الواحدة، كالأزمة التي خلقتها الحرب الروسية -الأوكرانية.

بعض الاستنتاجات

الأول، لا يعني إن مجريات العولمة الرأسمالية، تسير بشكل مستقيم وفق ما تخطط له الدول الرأسمالية الكبرى، حيث توجد كثرة من التناقضات بين هذه الدول، يفرزها قانون التطور المتفاوت، الذي ينتج عنه اشتداد المنافسة بين المراكز الرأسمالية الرئيسية، الولايات المتحدة، الاتحاد الأوروبي، بريطانيا

واليابان للسيطرة على الأسواق والمواد الخام في الدول النامية. وترافق مع هذه التناقضات نمو التيارات الشعبوية القومية المناهضة للسيطرة الأمريكية.

الثاني، العولمة الرأسمالية، افضت إلى ظهور اصطفافات جديدة، تحمل سمات، اقتصادية وسياسية، تهدف إلى تعزيز التعاون المشترك وتبني مواقف موحدة تجاه الازمات الدولية، والسعي إلى اعادة التوازن للعلاقات الدولية لخلق عالم أكثر عدالة قائم على تعدد الأقطاب، بدلا من الاحادية القطبية الأمريكية والهيمنة الغربية. لقد أصبح لهذه التكتلات مكانة مهمة ـ سياسية واقتصادية ـ على الصعيد الدولي، نظرا لقدراتها الاقتصادية والسياسية ومستوى النمو والتطور التكنولوجي العالي، ومن أبرز هذه التكتلات "منظمة شنغهاي" و"بريكس" اللتان تشكلان ما يقارب من ثلث الاقتصاد العالمي و 45% من سكان العالم وثلاثة أرباع الكرة الأرضية[27].

الثالث، نمو الحركة الشعبية، المناهضة لمخاطر العولمة الرأسمالية على الدول الوطنية، التي استطاعت إزاحة السلطات المتحالفة مع قوى الهيمنة الخارجية في العديد من دول أمريكا اللاتينية والدول الأفريقية.

الرابع، تعاني الولايات المتحدة من أزمة بنيوية تتمثل بعدم قدرة الاقتصاد الأمريكي على التفوق والمنافسة مع دول رائدة بالاقتصاد العالمي، خاصة الصين، التي تحتل المركز الثاني من حيث الناتج القومي، ومتفوقة بنسبة النمو والتكنولوجيا، وعجز الميزان التجاري الامريكي الذي بلغ في عام 2024 (1.2) ترليون دولار، وانخفاض نسبة النمو، مقارنة بدول عديدة، وارتفاع مستوى الدين العام (يبلغ بحدود 33 ترليون دولار) وبما يزيد على الدخل القومي السنوي. وأخير، يعتبر اللجوء إلى سياسة الحماية والعقوبات والرسوم الجمركية غير المنطقية على الدول الاخرى، دليلاً على ضعف الاقتصاد الامريكي وأزمته البنيوية.

*** جزء من كتاب سيصدر لاحقا .**

الهوامش :

(1) ثقافة العولمة: القومية والعولمة والحداثة، مجموعة مؤلفين، إعداد: مايك فيذرستون، ترجمة عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2000، ص 29 .

(2) هذه الفكرة أوردها، توماس سنتش، نقلاً عن لينين ، نقد نظريات الاقتصاد العالمي، ت/ عبد الإله النعيمي، ج2، مركز الأبحاث والدراسات في العالم العربي، دمشق، 1990 ص 201.

(3) بيتر غران، "العولمة أو عدم النقاش حول الحداثة"، ت. فالح عبد الجبار، مجلة النهج، العدد 50 لسنة 1988 ص 74.

(4) سمير أمين، في مواجهة أزمة عصرنا، دار سينا للنشر، ط1، القاهرة 1997، ص 93.

(5) لطفي حاتم، العولمة الرأسمالية وإعادة بناء اليسار الاشتراكي، دار الحكمة، القاهرة، 2014، ص 160.

(6) جمال محمد باروت، "العولمة: تناقضات الواحد المنقسم"، مجلة النهج، العدد55 لعام 1999، ص 69.

(7)https://www.arabicacademy.gov.eg/ar/

(8) اسماعيل صبري عبدالله، الرأسمالية العالمية في مرحلة ما بعد الإمبريالية ، مجلة الكرمل العدد 53 تاريخ الإصدار 1 أكتوبر 1997. ص 86.

(9) الموسوعة العربية للمعلومات: https://ar-wiki.com/general/9355/

(10) تعريف لرئيس مجموعة رجال الأعمال، أورده: شونيه فرانسوا في كتابه عولمة رأس المال، مراجعة حسام عيتاني، جريدة السفير بتاريخ 08-12-1998 |

(11) يقسم رولند روبرتسن العولمة إلى خمس مراحل، الاولى الجنينية، والمرحلة الثانية، الولادة، والمرحلة الثالثة، الانطلاق، والمرحلة الرابعة، مرحلة الصراع على الهيمنة، والمرحلة الخامسة، مرحلة الشك. وبدأت من أوساط ستينيات القرن العشرين إلى بداية نهاية القرن الحادي والعشرين، واتسمت بالتأزم والصراع، ثقافة العولمة: القومية والعولمة والحداثة، مجموعة مؤلفين، إعداد: مايك فيذرستون، مصدر سابق، 26 - 27.

(12) يشير، سمير أمين، إلى ان العولمة أجبرت خلال هذه الفترة على تقديم تنازلات بسبب توازن ميزان القوى على الصعيد العالمي، مقابلة مع سمير أمين صدرت بكتاب، العولمة وبدائلها العولمة وبدائلها: مقابلة مع سمير أمين | Tricontinental: Institute for Social Research

(13) إن انهيار المعسكر الاشتراكي ترافق مع تدهور نسبي في أحوال الولايات المتحدة الاقتصادية وتوقع بعض المحليين إلى صعود قوى أخرى تنافس الهيمنة الامريكية على العالم في فترة ما بعد الحرب الباردة، أنظر المزيد عن هذه التحليلات، بيتر تابلور، كولن فلنت، الجغرافية السياسية لعالمنا المعاصر، ج1، ترجمة عبد السلام رضوان وإسحق عبيد، عالم العرفة، الكويت، 2002، ص 159 وما بعدها.

(14) انتقل تأثير أفكار الليبرالية الجديدة، إلى كثير من الباحثين والمفكرين والسياسيين، في الدول النامية ومنها الدول العربية، انظر، شاكر النابلسي، الليبراليون الجدد: جدل فكر، دار الجمل، بغداد 2005.

(15) للمزيد من تأثير سياسة الانفتاح الاقتصادي خلال هذه المرحلة من العولمة، أنظر: بيتر تابلور، كولن فلنت، الجغرافية السياسية لعالمنا المعاصر ج1، مصدر سابق ص 129.

(16) يعني مفهوم التدخل الإنساني، استخدام دولة ما للقوة العسكرية ضد دولة أخرى بهدف إنهاء انتهاكات حقوق الإنسان في تلك الدولة المستهدفة. وقد بدأ تطبيق هذا المفهوم من قبل الدول الغربية في كوسوفو في عام 1990، حيث تدخلت قوات حلف الاطلسي في البلقان لدعم تفتيت يوغسلافيا إلى ست دول قومية.

(17) حسب إحصائيات "فوربس FORBES " " لعام 2007، https://worldpolicyhub.com/ar

(18) المزيد عن دور الشركات المتعددة الجنسية في ترسيخ العولمة الرأسمالية، يُنظر: أسماعيل صبري عبدالله، "الكوكبة أساس الظاهرة الاقتصادية والاجتماعية"، مجلة النهج، العدد 50، ص 23 - 25

(19) إن الوظيفة الأساسية للمؤسسات الدولية هي حماية الأسواق التي تسيطر عليها الاحتكارات وليس حماية حرية التجارة كما تروج لها سياستها المعلنة، للمزيد بشأن وظائف المؤسسات الاقتصادية الدولية، أنظر: سمير أمين، في مواجهة أزمة عصرنا، سينا للنشر، 1997، ص 97.

(20) بوستن فورسيك، رئيس منظمة آكسفام غير الحكومية، جريدة الزمان اللندنية، 30/9/2001.

(21) شهد العالم في عام 2023 أكبر عدد من النزاعات المسلحة منذ عام 1946، تم تسجيل 59 نزاعاً في العالم، ولم يسبق أن كان العنف في العالم مرتفعاً إلى هذا الحد منذ نهاية الحرب الباردة حسب تقرير معهد أوسلو لأبحاث السلام لعام 2023. كما يشير التقرير إلى أن ساحة النزاعات المسلحة أصبحت أكثر تعقيداً بسبب اشتراك عدد اكبر من الأطراف المتحاربة في نفس البلد. "عدد النزاعات المسلحة في العالم هو الأعلى منذ عام 1946 " جريدة الشرق الاوسط اللندنية 4 حزيران 2024. https://aawsat.com

(22) للمزيد عن مفهوم دولة الرفاه الاجتماعي، يُنظر: صالح ياسر، "العدالة الاجتماعية في دولة الرفاه.. بين السرديات والواقع الصارم"، مجلة الثقافة الجديدة، 452 أيار 2025.

(23) قامت المخابرات المركزية بدعم تأسيس المنظمات المسلحة اليمينية للعمل ضد الأنظمة الوطنية في أمريكا اللاتينية وأفريقيا، ولمحاربة الاتحاد السوفييتي في أفغانستان.

(24) تشير تجربة تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية إلى الدور الهام الذي تلعبه سواء وقت الأزمات أو في التنمية، يُنظر: نعيم شومسكي وآخرون، العولمة الإرهاب، حرب أمريكا على العالم، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2003، ص108.

(25) للمزيد عن أسباب أزمة إفلاس البنوك، يُنظر: صالح ياسر الاقتصاد السياسي لأزمة بنك وادي السيليكون.. أزمة بنك أم أزمة نظام؟ الجذور .. الواقع.. الرهانات.. والدروس المستخلصة 26 https://www.iraqicp.com/index.php/sections/orbits آذار 2023.

(26) بلغت خسائر سوق الأوراق المالية خلال ثلاثة أسابيع من 15 تموز لغاية 7 آب 2024، 6.4 ترليون دولار. قناة العربية 7/8/ 2024.

(27) عزالدين عبد المولى، ديناميات الأحلاف والبحث عن توازن قوى عالمي جديد، التقرير الاستراتيجي لعام 2022- 2023 شبكة الجزيرة ص 37 - 46.

الذكاء الاصطناعي ومفهوم "من كلٍّ حسب كفاءاته، ولكلٍّ حسب حاجاته"

د. عادل كنيش مطلوب

استفادت نماذج الذكاء الاصطناعي المنتجة أخيرا من عدد من التطورات التقنية، في العقدين الماضيين، المنشورة في الأدبيات العلمية "مفتوحة المصدر"، وبشكل خاص "البرمجيات مفتوحة المصدر". لكن أول هذه الابتكارات التي انفردت بها أوبن أي آي (OpenAI) الأمريكية في نهاية عام 2023 كانت سرية؛ لذلك فهي أقامت خندقا تقنيا وتجاريا لإبعاد الآخرين، لكن النموذج الصيني الرائد الأخير غيّر من هذه المعادلة، وأعاد دور "البرمجيات مفتوحة المصدر" الى الصدارة مرة ثانية.

نموذج الذكاء الاصطناعي تشات جي بي تي (ChatGPT)

في الماضي، كان التقدم في الذكاء الاصطناعي مصحوبًا بأدبيات تمت مراجعتها من قبل النظراء. في عام 2018، على سبيل المثال، عندما طور فريق كوكل شبكة بيرت (BERT) العصبية التي تعتمد عليها الآن معظم أنظمة معالجات اللغة الطبيعية (وهناك اعتقاد بأن تشات جي بي تي أيضًا)، تم نشر الأساليب في بحوث علمية تمت مراجعتها من قِبل النظراء وكانت اللغات المستخدمة في البرمجة مفتوحة المصدر.

في عام 2021، كان برنامج ألفافولد 2 (AlphaFold 2) من شركة ديب مايند، وهو برنامج استخدم في فك رموز "طي البروتين" المعقدة جدا، كان بمثابة اختراق للعلوم في ذلك العام. كانت البرنامج ونتائجه مفتوحة المصدر بحيث يمكن للعلماء في كل مكان استخدامه لتطوير علم الأحياء والطب.

بعد إصدار تشات جي بي تي، ليس هناك سوى منشور مدونة قصير يصف كيفية عمله. لم يكن هناك أي تلميح إلى إي منشور علمي مصاحب أو إن اللغة التي استخدمت في البرمجة هي مفتوحة المصدر.

لفهم سبب الاحتفاظ بسرية تشات جي بي تي، علينا أن نفهم قليلاً طبيعة الشركة التي تقف وراءه.

ربما تكون شركة أوبن أي آي واحدة من أغرب الشركات التي ظهرت في وادي السيليكون. تم تأسيسها كمنظمة غير ربحية في عام 2015

لتعزيز وتطوير ذكاء اصطناعي "صديق" بطريقة "سيفيد البشرية ككل". تعهد عدد من الشخصيات التقنية الرائدة بمليار دولار أمريكي لتحقيق أهدافها. كان تفكيرهم بأنه لا يمكننا الوثوق في الشركات الهادفة للربح لتطوير ذكاء اصطناعي قادر بشكل متزايد يتماشى مع ازدهار البشرية. لذلك، يجب أن يكون تطوير الذكاء الاصطناعي من قبل منظمة غير ربحية، وكما يوحي الاسم، بطريقة مفتوحة (OpenAI).

في عام 2019، انتقلت شركة أوبن أي آي إلى شركة ربحية محدودة (حيث يقتصر المستثمرون على أقصى عائد يبلغ 100 ضعف لاستثماراتهم) واستثمروا مليار دولار أمريكي آخر من مايكروسوفت. يبدو أن المال أعاق خطط أوبن أي آي الأولية للانفتاح وخدمة البشرية ككل!

نموذج الذكاء الاصطناعي الرائد ديب سيك (DeepSeek)

أعاد نموذج الذكاء الاصطناعي الرائد ديب سيك (DeepSeek) الى عالم التطورات التقنية في تكنولوجيا المعلومات والبرمجيات أهمية موضوعة "البرمجيات مفتوحة المصدر" كنشاط علمي هدفه الأساسي خدمة الإنسانية، بعيدا عن الربح واضعا أولى الخطوات المتواضعة لمفهوم "من كل حسب كفاءاته، ولكل حسب حاجاته".

"من كل حسب كفاءاته، ولكل حسب حاجاته"

إنّ هذا المفهوم هو شعار روّجه كارل ماركس ورد في كتابه عام 1875 نقد برنامج غوتا. ويشير المبدأ إلى حرية الوصول، وتوزيع السلع، ورؤوس الأموال، والخدمات. من وجهة النظر الماركسية فإن مثل هذا الترتيب سيكون ممكنا من خلال وفرة السلع والخدمات التي سينتجها نظام متطور. والفكرة هي أنه مع التطور المجتمعي دون قيود القوى المنتجة، سوف يكون هناك ما يكفي لتلبية احتياجات الجميع.

وردت الفقرة الكاملة التي تحتوي على صياغة ماركس للمفهوم في نقد برنامج غوتا على النحو التالي: "حين تتنامى القوى المنتجة مع تطور الأفراد في جميع النواحي، وحين تتدفق جميع ينابيع الثروة العامة بفيض وغزارة، حينذاك فقط، يصبح بالإمكان تجاوز الأفق الضيق للحق البرجوازي تجاوزاً تاماً، ويصبح بإمكان المجتمع أن يهدف الى مفهوم: من كل حسب كفاءاته، ولكل حسب حاجاته"[1].

هناك اعتقاد بأن هذا المفهوم كان شائعا قبل ماركس. على سبيل المثال، استخدمه أوغست بيكر في عام 1844 ولويس بلان في عام 1851. أصل هذه الصيغة تعزى أيضا إلى المفكر المثالي الفرنسي إتيين-غابرئيل موريلي، الذي اقترح في كتابه "قانون الطبيعة" من عام 1755 "قوانين مقدسة وأساسية التي من شأنها أن تقتلع جذور الرذيلة وكافة شرور المجتمع"[2].

فما هي "البرمجيات مفتوحة المصدر" وما علاقتها بمفهوم "من كل حسب كفاءاته، ولكل حسب حاجاته"؟

يشير مصطلح "البرمجيات مفتوحة المصدر" إلى أي برنامج يُتاح بصيغته البرمجية (source code) للاستخدام المجاني ويمكن تعديله حسبما يراه المستخدمون أو المطورون

الآخرون مناسبًا.
على عكس البرمجيات الخاصة المحتكرة (proprietary software) من الشركات المنتجة لها، فإن "البرمجيات مفتوحة المصدر" هي برمجيات حوسبة طُوّرت كتعاون عام مفتوح بين المبرمجين، ومتاحة في غالبيتها مجانًا للعامة.
فيما يأتي بعض الأسئلة الشائعة حول "البرمجيات مفتوحة المصدر"، ولماذا هي متوفرة بهذه الطريقة:

من يستخدمها؟

يُعد مبرمجو البرمجيات ومطورو التطبيقات المستخدمين الرئيسيين لـ "البرمجيات مفتوحة المصدر". وحسب البرنامج المختار، يمكن للمطورين استخدام صيغته البرمجية ولغة البرمجة ونظام التشغيل لإنشاء تطبيقات جديدة وموارد أخرى من دون الحاجة إلى استخدام برمجيات تتطلب دفع اشتراكات وتراخيص. إن مرونة البرمجيات مفتوحة المصدر، هذه توفر إمكانية لإنشاء التطبيقات بتكلفة رمزية وتكييفها مع احتياجات المستخدم سواء كان فردا أو مؤسسة.

متى بدأت "البرمجيات مفتوحة المصدر"؟

خلال السنوات الأولى لتطوير البرمجيات، كان المبرمجون يتشاركون البرمجيات غالبًا للتعلم من بعضهم البعض وتنمية مجال برمجة الحواسيب، والمشاركة في إنشاء برمجيات قد تكون غاية في التعقيد أن تنجز من قبل مبرمج واحد أو عدد محدود من المبرمجين.
أدى هذا إلى إنشاء مؤسسة البرمجيات المجانية (Free Software Foundation FSF)، والتي شملت برنامج تنضيد تي أي أكس (TeX) عام 1979، ونظام التشغيل جي أن يو (GNU) عام 1983. في الواقع، كان متصفح الويب المبكر نيتسكب (Netscape) برنامجًا مفتوح المصدر بصيغته البرمجية، والذي ساهم لاحقًا في تطوير مشاريع مفتوحة المصدر مثل موزلا فايرفوكس (Mozilla Firefox)، وهو متصفح ويب لا يزال شائع الاستخدام حتى يومنا هذا.
مع تقدم حركة البرمجيات المجانية، استُبدلت FSF بـ "مبادرة المصدر المفتوح" (Open Source Initiative OSI)، وهي مجموعة من مطوري البرمجيات تُنشئ برمجيات مخصصة لمشاركتها وتحسينها وإعادة توزيعها مجانا من قِبل الآخرين.
لم تخلُ "مبادرة المصدر المفتوح" من منتقديها. على سبيل المثال، صرّح جيم ألتشين، المدير التنفيذي لشركة ويندوز لمايكروسوفت، عام 2001، بأن مبادرة المصدر المفتوح (OSI) كانت "مدمرة للملكية الفكرية" [3].
اليوم، انضمت مايكروسوفت والعديد من الشركات الأخرى إلى مجتمع البرمجيات المجانية والمفتوحة المصدر بطرق مختلفة. وقد أحدث هذا تحولاً كبيراً في كيفية النظر إلى البرمجيات مفتوحة المصدر.
من بين المساهمين والجهات الممولة والمنظمات غير الربحية الأخرى في مشاريع "البرمجيات مفتوحة المصدر": مؤسسة لينكس (Linux)، ومؤسسة وردبريس (WordPress)، ومؤسسة المشاع الإبداعي (Creative Commons)، ومشروع أندرويد (Android) مفتوح المصدر، ومؤسسة البرمجيات الحرة، ومعهد برمجيات

المصدر المفتوح، ومؤسسة موزيلا (Mozilla).

في الشكل رقم 1: نموذج عن مخطط أحد المواقع الذي يعكس شعبية استخدام "البرمجيات مفتوحة المصدر"4 حول العالم.

"في أوائل عام 2023، احتفلت جيت هاب (GitHub) بوصول عدد المطورين إلى 100 مليون، وقد ارتفع هذا العدد بوتيرة سريعة منذ ذلك الحين. في عام 2024، قدّم المطورون حول العالم أكثر من 5.2 مليار مساهمة لأكثر من 518 مليون مشروع مفتوح المصدر، عام وخاص"[4].

مميزات تراخيص البرمجيات مفتوحة المصدر

باختصار، يُشير تعريف البرمجيات مفتوحة المصدر إلى ما يأتي:

- ترخيص البرمجيات مفتوحة المصدر مجاني، ويُسمح بإعادة توزيعه لأي شخص دون أي قيود.
- يجب إتاحة البرمجيات بصيغتها البرمجية حتى يتمكن الطرف المتلقي من تحسينها أو تعديلها.
- يمكن أن يتطلب الترخيص أن تحمل الإصدارات المُحسّنة من البرنامج اسماً أو إصداراً مختلفاً عن البرنامج الأصلي.
- يمكن أن يتم نقل البرنامج إلى نظام تشغيل آخر جديد.

في أدناه بعض اتفاقيات ترخيص برمجيات المصدر المفتوح الشهيرة والمستخدمة على نطاق واسع، والتي اعتمدت تعريف المصدر المفتوح في السنوات الأخيرة:

- ترخيص خادم الويب أباتشي (Apache).
- ترخيص توزيع برمجيات بيركلي (Berkeley).
- ترخيص جي أن يو العمومي.
- ترخيص معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT).
- ترخيص موزيلا العمومي (Mozilla).
- إطار عمل مايكروسوفت دوت نت (.NET Framework).
- مايكروسوفت فيجوال ستوديو كود

(Visual Studio Code)

كيف يُستخدم المصدر المفتوح في تطوير البرمجيات؟

لعب المصدر المفتوح دورًا كبيرًا في مجتمع تطوير البرمجيات. في الواقع، طوّر جيل من أدوات المصدر المفتوح، ويستخدمها المطورون اليوم خصيصًا لمساعدتهم على تحسين واستكشاف مشاكل الصيغ البرمجية المفتوحة وإصلاحها خلال المراحل الأولى من تطوير أي منتج برمجي.

من الأمثلة على ذلك:

- إكليبس (Eclipse).
- جيت هاب (GitHub).
- لانش باد (Launchpad).
- نت بينز (NetBeans).
- سورس فورج (SourceForge).

ما هي بعض المنتجات الأخرى مفتوحة المصدر؟

لا تقتصر تقنية المصدر المفتوح على أدوات تطوير البرمجيات. فيما يأتي أمثلة على أنواع أخرى شائعة من أدوات وتطبيقات الأعمال مفتوحة المصدر:

- رد هات سوفتور (Red Hat Software): منصة برمجيات مفتوحة المصدر، مشتقة من آي بي أم (IBM)، توفر هذه المنصة مجموعة متنوعة من تطبيقات الإنتاجية على مستوى المؤسسات.
- لبريأوفيس (LibreOffice): حزمة إنتاجية مكتبية مفتوحة المصدر، مشابهة لبرامج لمايكروسوفت أوفس (Microsoft Office).
- جي أن يو امج مانيبوليشن بروكرام (GNU Image Manipulation Pro-gram (GIMP)): أداة مفتوحة المصدر لمعالجة الصور بمكونات مشابهة لبرنامج أدوبي فوتوشوب (Adobe Photoshop).
- في آل سي ميديا بلاير (VLC Media Player): مشغل ملفات صوت وفيديو مفتوح المصدر.

ما هي إيجابيات البرمجيات مفتوحة المصدر وسلبياتها؟

في حين أن تراخيص البرمجيات مفتوحة المصدر جعلت البرمجيات في متناول الجميع بشكل عام، وساهمت بشكل كبير في نمو البرمجيات وتطويرها، إلا أن استخدامها على نطاق واسع اعتبر سلبيًا من قِبل الكثيرين.

غالبًا ما يُركز هذا النقد على غياب التنظيم الذي قد يفتح الباب أمام العديد من القضايا القانونية. في محاولة لتسوية هذا الجدل، لجأ مجتمع البرمجيات مفتوحة المصدر إلى تطبيق مخططات تصنيف - تعتمد عادةً على أحكام حقوق النسخ كوبيليفت (copyleft) لتحديد حالات الاستخدام المناسبة لنموذج تطوير البرمجيات مفتوحة المصدر.

تأثير الذكاء الاصطناعي على مستقبل البرمجيات مفتوحة المصدر

تتمتع البرمجيات مفتوحة المصدر بآفاق واعدة على المدى الطويل؛ فتأثير الذكاء الاصطناعي على هذا المفهوم يُحسّن من قيمتها. كما أن توافر أنظمة الذكاء الاصطناعي مفتوحة المصدر يُتيح أداءً أفضل لقطاع أوسع.

عند استخدام الذكاء الاصطناعي مفتوح المصدر في سياق تطوير نظام بيئي برمجي

جديد، يُمكن للذكاء الاصطناعي تبسيط عملية التطوير وتعزيز الابتكار، مع دعم مجتمع "البرمجيات مفتوحة المصدر". إن نموذج الذكاء الاصطناعي الرائد ديب سيك (DeepSeek) خير دليل على ذلك، حيث يختبر الباحثون مدى قدرة نماذج المصادر المفتوحة على أداء المهام العلمية - في مواضيع من الرياضيات إلى علم الأعصاب الإدراكي.

فقد طرحت ديب سيك نسخة من منتجها (ديب سيك-آر 1 (DeepSeek-R1)) كنموذج "استدلال" لذكاء اصطناعي رخيص وقوي؛ ما دفع العديد من الباحثين في تطوير تطبيقات للذكاء الاصطناعي لاستخدامه مجانا. دفع هذا الاستخدام الواسع الى ارتفاع حاد في سوق الأسهم الأمريكية، كونه يعمل على مصادر مفتوحة.

بالنسبة للباحثين، يمكن أن يكون رُخَص ديب سيك- آر 1 وانفتاحه بمثابة عوامل تغيير: باستخدام واجهة برمجة التطبيقات (API)، يمكنهم الاستعلام عن النموذج مقابل جزء بسيط جدا من تكلفة المنافسين، أو مجانًا باستخدام روبوت الدردشة عبر الإنترنت ديب ثنك (DeepThink). كما يمكنهم أيضًا تنزيل النموذج على خوادمهم الخاصة وتشغيله والبناء عليه مجانًا - وهو أمر غير ممكن مع النماذج المغلقة المتنافسة مثل آو وان من أوبن أي آي.

إن هذا يشكل نموذجا ساطعا على ما يقدم لمطوري الذكاء الاصطناعي بحسب كفاءة وقدرات منتجي البرامج لتوفر للاستخدام المجاني حسب حاجات المطورين لوضع نماذج أكثر تطورا، لتدخل في دائرة التطور المستمر المجاني.

منذ إطلاق ديب سيك- آر 1، في 1 يوليو (تموز) من عام 2024، كان "الكثير من الباحثين" يحققون في تدريب نماذج التفكير الخاصة بهم، استنادًا إليه ومستوحاة منه، هذا مدعوم ببيانات من هاكنك فيس (Hugging Face)، المستودع مفتوح المصدر لعلوم الذكاء الاصطناعي الذي يستضيف برنامج ديب سيك- آر 1.

في الأسبوع الذي انقضى منذ إطلاقه، سجل الموقع أكثر من ثلاثة ملايين عملية تنزيل لإصدارات مختلفة من ديب سيك- آر 1، بما في ذلك تلك التي تم بناؤها بالفعل من قبل مستخدمين مستقلين.

يرجع الكثير من الإثارة حول ديب سيك- آر 1 إلى أنه تم إصداره كـ "تطبيق مفتوح"، مما يعني أن الاتصالات المكتسبة بين الأجزاء المختلفة من خوارزميته متاحة للبناء عليها. ويمكن للعلماء الذين يقومون بتنزيل ديب سيك- آر 1، أو أحد الإصدارات "المخففة" الأصغر حجمًا التي أصدرتها ديب سيك أيضًا، تحسين أدائه في مجالهم من خلال التدريب الإضافي، المعروف باسم الضبط الدقيق، وفي حالة وجود مجموعة بيانات مناسبة، يمكن للباحثين تدريب النموذج لتحسين مهام الترميز الخاصة بالعملية العلمية.

إنّ القدرة على تنزيل ديب سيك- آر 1 ونشره على نظام محلي هي أيضًا ميزة إضافية للخصوصية، لأنها تسمح للعلماء بالحفاظ على السيطرة على بياناتهم ونتائجهم. إن هذا مهم بشكل خاص للتخصصات التي تنطوي على بيانات حساسة وخاصة، مثل البحث الطبي.

ابتكرت ديب سيك نماذجها المخففة من خلال

تعليم قدراتها على "الاستدلال" لنماذج لغوية كبيرة أخرى، مثل ميتاز أل لاما (Meta's Llama). تكشف النسخة الأولية من ديب سيك، المنشورة على أركف (arXiv) في 22 تموز| يوليو 2024 أنها فعلت ذلك من خلال تدريب نماذج اللغة الكبيرة هذه على 800000 مثال منظم لاستجابات "سلسلة من الأفكار" خطوة بخطوة، والتي أنشأها ديب سيك- آر- 1.

هناك الآن نموذج مفتوح المصدر يطفو حول الإنترنت يمكن استخدامه للتمهيد لأي نموذجٍ أساسي آخر قوي بما فيه الكفاية ليكون مُستدلًا للذكاء الاصطناعي. لقد اتخذت قدرات الذكاء الاصطناعي في جميع أنحاء العالم خطوة واحدة للأمام.

كما يطبق الباحثون أيضًا التعلم التعزيزي - تقنية التجربة والخطأ والمكافأة المستخدمة لإنشاء ديب سيك- آر -1 ولكنهم يصقلونها لمهمتهم المحددة.

ماذا سيحدث لاحقا؟

في العقد الماضي، كان التقدم السريع للذكاء الاصطناعي، في جزء كبير منه، بسبب الانفتاح من قبل الأكاديميين والشركات على حد سواء، حيث أن جميع أدوات الذكاء الاصطناعي الرئيسية لدينا هي مفتوحة المصدر. لكن في السباق لتطوير ذكاء اصطناعي أكثر قدرة، أكد تطور ديب سيك على تأكيد مفهوم "من كل حسب كفاءاته، ولكل حسب حاجاته" عبر كفاءة ما يقدمه الأكاديميون عبر نشرياتهم مفتوحة المصدر والوصول المجاني لهذه المصادر من قبل منتجيها. وإذا كان التاريخ هو أي شيء يجب أن نمر به، فنحن نعلم أن الافتقار إلى الشفافية هو محفز للسلوك السيئ في مجالات التكنولوجيا. إن تواجد ديب سيك للاستخدام المجاني العام عالج الانحراف الجشع للشركات الاحتكارية، وهذا يمثل بداية العصر الذهبي للذكاء الاصطناعي.

المصادر

1- نقد برنامج غوتا - Critique of the Gotha Programme - Marx

2- https://www.ssrcaw.org/ar/show.art.asp?aid=477608

3-https://www.cnet.com/tech/services-and-software/dead-and-buried-microsofts-holy-war-on-open-source-software/

4- https://github.blog/news-insights/octoverse/octoverse-2024/

رمزية الحجاب في كتاب السـفور والحجاب

د. عايدة جوهري
أستاذة جامعية وكاتبة في اللغة الفرنسية وآدابها

مقدمة

في العام 1928 أصدرت الكاتبة اللبنانية نظيرة زين الدين كتابَها «السفور والحجاب»، الذي تضمّن رؤيتها لتحرير المرأة المسلمة من أغلال الحجاب – النقاب، الذي كان يفرض على النساء «القرار في البيوت» والاحتجاب عن الأنظار، وعدم الاختلاط، وصولاً إلى حرمانهنّ من التعليم والعمل، والخروج إلى الفضاء الخارجي. وتلا كتاب «السفور والحجاب» كتاب «الفتاة والشيوخ» الذي صدر عام 1929، وجاء يوثّق ردودَ الفعل المتضاربة حول طروحاتها.

أشاد بطروحات زين الدين، التنويريون والنهضويون والسفوريون، وهاجمها بضراوة لا مثيل لها، السلفيون والمحافظون والحجابيون، بعضهم شهّر بها على منابر الجوامع، وصادر كتبَها المعروضة في المكتبات وأشعل النار فيها، وقام بتهديد كل من يؤيّد السفور بالقتل، وتعرّضت هي نفسها لمحاولة قتل.

تدلّ هذه الوقائع الحادّة، على جدّة خطاب نظيرة السفوري، وفرادته، قياساً للخطاب الذي كان سائداً في بلاد الشام حول السفور، والذي كان متخلّفاً عن الخطاب حول السفور الذي تأسّس في مصر على يد قاسم أمين في كتابه «تحرير المرأة» 1899، وترجمت تنفيذه على أرض الواقع هدى شعراوي ورفيقاتها.

عربياً، لم تكن نظيرة أولَ من طالب بالسفور وبإنصاف المرأة، والاعتراف بحقّها في الخروج إلى الحياة العامة، والانخراط في الثقافة الاجتماعية، ككائن مكتمل، ولكنّها كانت أولَ امرأة لبنانية وعربية تُخصّصُ كتاباً كاملاً لهذا الموضوع، وهي تفوّقت بذا، على كاتبات عديدات كتبنَ مقالات مطوّلة في قضايا المرأة ولكنّ مجموع أفكارهنّ لم يشكّل مشروعاً فكرياً متكاملاً.

وهنّ لم يتطرّقنَ إلى موضوعات محرّمة يفتي فيها الرجال، كالحجاب والاختلاط وأحكام الزواج، ونظام التعدّد، وأحكام الشهادة والميراث والطلاق، وسلطات رجال الدين، وأخطاء الفقهاء، وحق كل مسلم ومسلمة في الاجتهاد، لأنّ الأمر يعرّضهنّ لمواجهة ذاتية

مع فقهاء، اعتبروا حقّهم في التفسير والإلزام مقدّساً.

وهي كانت أول امرأة عربية تستند في مشروعها التحرري إلى التراث، في الوقت الذي لم يشكل فيه التراث مرجعية خطاب النساء التحرري الوحيدة، معتمدةً منهجاً علمياً متكاملاً، على أسس التفسير الفقهي، مرتكزةً إلى مرجعيتَي التراث الأساسيتين «الكتاب والسنّة»، وطبقاً للقواعد الفقهية المتوافَق عليها، مقتفيةً على هذا المنوال أثرَ المنهج الذي وضعه جمال الدين الأفغاني[1]، واعتمده وطوّره الشيخ محمد عبده، ويُعَدُّ كتابها «السفور والحجاب»، بعد حوالي مائة عام على صدوره، الوحيدَ الذي كتبته امرأة في تفسير الآيات القرآنية التي تخصّ بنات جنسها، ويُحسَب لنظيرة أنّها أسّست لمفهوم «المساواة القرآنية» بين الجنسين، وأنّها سوّغت للمرأة المسلمة حق الاجتهاد الديني.

إنّ العودة إلى كتابات نظيرة زين الدين ليست بكاءً على الأطلال أو انتقاماً لمساهمة معيّنة، بل بحث عن تراكم معرفي حول الإشكاليات المفاهيمية الحقوقية التي كانت تعترض علاقة النساء بالرجال الشخصية والاجتماعية، والحلول التي حاول النساء والرجال وضعها لها، كلّ وفق مرجعياته الثقافية وتجاربه، ومدركاته، ومفاهيمه، وتطلّعاته.

الحجاب فريضة بشرية

تفترض نظيرة أنّ الحجاب – النقاب ليس فريضةً دينيةً، بل بشرية، ابتدعتها العقلية الذكورية، في سبيل تحجيم أدوار النساء، والتحكّم بحيواتهنّ، وحرمانهنّ حقهنّ في الحرية، والاعتراف، والمساواة، عدا عن كونه أداةً حسيةً لإمحاء تمايز النساء الشكلي بعضهنّ عن بعض، وإلغاء فرادتهنّ، وتعطيل وظائف حواسهنّ، ومنعهنّ من الرؤية، والتنفّس، السليمين، والكلام...

أثبتت نظيرة أنّ الحجاب – النقاب ليس فريضةً دينية، معتمدةً منهجاً علمياً متكاملاً، على أسس التفسير الفقهي، ارتكزت فيه إلى مرجعيّتَي التراث الأساسيتين، الكتاب والسنّة، دون الأخذ بتفاسير الفقهاء المتناقضة، والمليئة بالمغالطات، مراعيةً القواعد الفقهية المتوافَق عليها وهي:

- التيسير لا التعسير.
- لا ينكر تغيّر الأحكام بتغيّر الأزمان.
- إذا تعارضت الحجج بلا مرجع تساقطت، ويقتضي ذلك الرجوع إلى الكتاب والسنّة[2].

وإثر إثباتها أنّ الحجاب – النقاب ليس فريضةً دينية، ولا حتى الحجاب بالمطلق، وأنّ «آيات الحجاب» تتوجه إلى نساء النبي دون غيرهنّ من المؤمنات، دعت نظيرة زين الدين إلى سفور الوجه واليدين، مستندةً في استنتاجها إلى حديثين نبويين صحيحين، الأول موجّه إلى أسماء بنت أبي بكر، والثاني إلى هند بنت أبي سفيان[3]، علماً أنّ النبي قال بعدم الأخذ بما يخالف الكتاب، علّها اقتفت أثر قاسم أمين الذي اكتفى بسفور الوجه واليدين، أو اقتنعت بالتدرّج في السفور.

كشفت نظيرة آثارَ الحجاب – النقاب الوخيمة على سيرورة النساء، فهو يعيق نموهنّ العقلي والنفسي، ويحرمهنّ من المعرفة والاختبار، والاكتساب، والترقي، ويمنعهنّ من الانخراط في «مدرسة العالم»[4]. وهي لم تكتف بالاعتراض على مفاعيله العقلية والنفسية المسيئة للمرأة، بل اعترضت على الحجاب – النقاب كحاجب لحواس المرأة ومعطّل لها، فالحجاب – النقاب يعطّل بنظرها حاسة

النظر، والشمّ، والسمع، والذوق، والقدرة على الكلام[5]، وهي حشدت، للدفاع عن أطروحتها، كمّاً من البراهين الدينية والمدنية، مستلّةً هذه الأخيرة من بنود شرعة حقوق الإنسان، ومنجزات الحداثة، مفترضةً تطابق المدنية الإسلامية مع المدنية الغربية.

اجتهدت نظيرة في بيان أضرار الحجاب – النقاب، بعد إثباتها عدم مشروعيته الدينية، فما الذي يُبرّر الإصرار عليه من قبل الحجابيين؟ وما هي حججهم؟

كان الحجابيون في تلك المرحلة لا يشدّدون على مشروعية الحجاب – النقاب الدينية، بعد أن تمّ التشكيك فيها من قبل قاسم أمين، بقدر تركيزهم على عوامل أخرى تدفعهم إلى التمسّك بالحجاب وبقوة، تجعل مشروعيته الدينية من عدمها، أمراً ثانوياً.

واستكمالاً لمسيرتها في رفض الحجاب – النقاب، فنّدت نظيرة زين الدين حججَ الحجابيين حجةً حجة، وكانت جلّ هذه الحجج تدور حول مسألتَي «الفتنة» و«النقصان الأنثوي الماهوي»، استناداً إلى المقولة الدينية المشكوك في صحتها «ناقصات عقل ودين».

بيد أنّنا ونظراً إلى محدودية المساحة المخصصة للمقالة، فقد اخترنا التوسّع في كيفية معالجة نظيرة لإشكالية «الفتنة» فحسب، لسببين: الأول هو أنّ حجة «الفتنة» هي «الركيزة الأساسية» في نظرية الحجاب الإسلامي، وهي كذلك بالنسبة إلى الحجابيين الذين نافحوا عن الحجاب – النقاب بكل ما أوتوا من قوة، والسبب الثاني لأنّ نظيرة أولت هذه المسألة اهتماماً بالغاً في ردودها على معارضة الحجابيين، لإدراكها أنّ نزع فتيل الفتنة هو الخطوة الأولى في مسيرة النضال الفكري من أجل السفور. فما هي الاستراتيجية التي اعتمدتها نظيرة لتفكيك منظومة المفاهيم التي تدور في فلك براديغم الفتنة ولتسفيه مسلّمات ومزاعم الحجابيين وأفكارهم المسبقة؟

أولاً: في تعريف مفهوم الفتنة

وفق تعريف ابن منظور في «لسان العرب»، يحمل الدال «الفاتنة» معاني سلبية، تنطلق من المادي نحو المعنوي والرمزي، وصولاً إلى القدسي، من تذويب الفضة والذهب، لتمييز الرديء من الجيد، إلى الابتلاء، والامتحان، والاختبار، والمعصية، والكفر، والاحتراق والعذاب.

كما أنّه يعني الوله والحب، والفجور، في آنٍ معاً، والخداع، والغرور، وتزيين المعاصي، دون إغفال تشبيه اختلاف الآراء، والتحزّب، بالفتنة، فيقال «الفتن» و«الحروب» للدلالة على الاضطرابات السياسية وحالات التمرّد والرفض، والاختلاف في الرأي.

ترجع اللفظة، في غالبية معانيها، إلى المنطق الديني القائم على الثواب والعقاب، مع ترجيح كفة العقاب الأليم، المرتبطين بمرتكزات واشتراطات النظام الإلهي الإسلامي، في الاجتماع والسياسة.

بأية حال، وفي معظم دلالاته الرمزية المعيارية، ينطوي مفهوم «الفتنة» على حالة الخروج عن النظام السائد، الممهور بالإرادة الإلهية، وعلى تهديد مضمر بالعذاب والعقاب، موجّه إلى كل من يعصي القوانين الإلهية، ويخالف المحظورات والمحرمات الاجتماعية العاكسة للإرادة الإلهية.

لقد ارتبطت كلمة «المرأة» عند العرب بكلمة الفتنة، فيقال «امرأة فاتنة» لا «رجل فاتن»، كما يقال «افتُتِنَ»، لا «افتُتِنَتْ»، والمرأة «العروب» المشتقّة من كلمة «عرب» نفسها،

هي المرأة الفصيحة، والضحاكة، والمغوية والعاصية لزوجها، والفاضحة لأمره، والوله بالمرأة يقود إلى الفتنة والاضطراب، ولحماية الرجال من النساء، ومن وقوع هؤلاء في الإثم والمعصية، كان لا محيد من عزل المرأة بعيداً عن أعينهم، وعن المجتمع، وذلك بتغطيتها ولعنها، كما تُلَفّ القنابل الخطرة، وتعطيل قدرتها على الإغواء تعطيلاً كاملاً.

ورثت الثقافة العربية الإسلامية الفكرة القديمة التي ألصقت تهمة الشيطنة بحواء وبالنساء أجمعين من بعدها، ومن الأمثلة الشائعة عند العرب «ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما»، ولقد ركّزت هذه الثقافة على اللذة التي يشعر بها الرجل إزاء المرأة، وعلى صعوبة مقاومته لجاذبيتها، مقابل قدرتها على إيقاع هذا الرجل في شرّها، وفي مكائدها.

وفي حال أقدمت المرأة على إغواء الرجل، أصبحت كأمّها حواء، التي تسبّبت بخروج آدم من الجنة، وحرمته نعمة الخلود، أو كزليخة امرأة العزيز التي حاولت مراودة يوسف عن نفسه، وأخفقت، أو كعشتار، ربّة الغرائز الوهاجة والعشق، والتي حاولت إغواء جلجامش المهجوس بالخلود والعظمة، وأخفقت هي الأخرى.

والرجل من جهته، وإن كان ينطوي على شهوة جنسية طاغية، ولا يحاول ضبطها وترويضها، والسيطرة عليها، فهو لا يمارس الإثم، إلا بسبب فتنة المرأة، وإيحاءاتها الشيطانية، وهذا يجعله يمارس ما لا يحق له، كما يمنعه أيضاً من التفكير في الله والدين والعلم، والإسهام في بناء الحضارة، وعليه فالزواج «نصف الدين»، ويقي الرجل من فقدان العقل والسيطرة على الذات، والإتيان بالمنكرات.

ولكنّ فقه «الفتنة» لا يكتفي بحماية الرجل وتحصينه بالزواج، من مفاسد الفتنة التي تسبّبها المرأة، فيضرب حول هذه الأخيرة حصاراً حديدياً.

ولكنّ هذه الرؤية أدّت إلى مفارقات معيارية، فبدل تعميق الموانع النفسية الفردية لدى الجنسين، يتمّ أخذ تدابير جذرية إلغائية، تقضي بمنع كلّي أو جزئي للاختلاط، والأفضل للمتشدّدين أن يُمنَع الاختلاط كلياً وأن يتم الفصل بين الجنسين، وأن توضع المرأة تحت الإقامة الجبرية.

لم يُعْنَ فقه «الفتنة» بتطبيع العلاقة بين الجنسين، والارتقاء بتواصلهما، الحتمي اليومي، إلى درجة التواصل الإنساني البحت، المنزّه من الشهوة المستعرة، كما أنّه لم يُعْنَ بحثّ الرجل على المجاهدة في سبيل تهذيب النفس، وضبط غرائز الجسد، ونزعاته، عملاً بالمبدأ الديني «الجهاد الأكبر» الذي يعلو، كما يفيد اسمه، على «الجهاد الأصغر»، وهو القتال في سبيل الإسلام، وضدّ أعدائه.

تُكرّس منظومة دلالات مفهوم الفتنة، المرأة ككائن جنسي مليء بالإيحاءات الجنسية، وهذه الإيحاءات غير حيادية، بل مصدر لافتتان الرجال، المدفوعين تحت ضغط الغريزة، إلى مخالفة النظام القائم، فيما هم مكلّفون بالحفاظ على النظام والتوازن، والتركيز على الفعل المجدي، وإعمال العقل، وبناء الحضارة، خلافاً للنساء.

إلا أنّ هذه الرؤية المؤثمة للجنس المحرّم، امتدّت على كينونة المرأة وبرّرت النظرة الدونية إليها، فهي كتلة غرائز هوجاء ولا تعقل.

ولعل اللوحة المعجمية التي وضعتها "فتنة آية صباح" في كتابها "المرأة في اللاوعي

المسلم"[6]، تجسّد هذه الازدواجية المعيارية.

المبدأ الذكري	المبدأ الأنثوي
العقل	الرغبة
النظام	الفوضى
الله	الشيطان
المسيطِر	المسيطَر عليه

لقد قمنا بالتعريف الأولي المعجمي لمفهوم الفتنة، بالإشارة إلى دلالاته المباشرة، انسجاماً مع طبيعة استعمالات نظيرة نفسها للمفهوم، والتي اقتصرت على دلالاته الأولية، أمينةً بذلك لتعريفها له، بقولها:

«أما الفتنة ففيها أمران: إما الخوف من وقوع الإثم في قلب الرجل فحسب، أو الخوف من أن تبلغ من نفسه الفتنة حدّ الفجور».

والحال، يشتبك مفهوم الفتنة مع مفاهيم محايثة، من مثل مفهوم الإحصان، والزنى، والتأكيد على الأبوة البيولوجية، والنسب الأبوي، ومشكلة المواريث، وارتباط كل هذه المفاهيم بالنظام الأبوي بشقّه الذكوري، القائم على سيادة الذكر وتبعية النساء والذرية له.

ويُعَدّ التحكّم بجنسانية المرأة، حجرَ الزاوية في بنيان النظام الأبوي، ومفهوم «الفتنة» نقطة الدائرة في منظومة المفاهيم التي يتأسّس عليها هذا النظام ويدوم، ويُعمّر.

ثانياً: المرأة والرجل كائنين معنويين

يستهدف الحجاب الجسدَ كوعاء للكينونة، وكشكل للإقامة على الأرض، متسللاً إلى العقل والوجدان، مسهماً في تشكيل صورة محدّدة عن الذات، تُستدخل وتُستبطن حتى تصبح أحد مكوّنات الشخصية. وباستهدافه شمولية الجسد الأنثوي، يُعبّر الحجاب كعلامة عن أيديولوجيا متكاملة تتعلق، في آنٍ معاً، بالنظرة إلى هذا الجسد، وعلاقته بالجسد الآخر، وعلاقتهما معاً بمنظومة أخلاقية معيارية تقوم على تشييئ جسد المرأة وتأثيمه وتبرئة الرجل.

كما تقوم هذه المنظومة الأخلاقية على التباس تجاه رغبات المرأة، فهي شهوانية، فاتنة ومُفتنة وتُسأل عن افتتان الرجل بها، وعن افتتانها به، وهو بريء من الافتتان ومحاذيره، وعليها وحدَها أن تتخذ التدابير الوقائية للحيلولة دون هذه الفتنة التي لا تتأكد هذه المرة سوى بإشهار عفّتها بالحجاب، وبتقديس التقاليد والأعراف التي ترسم لها الوسائل اللازمة للوقاية من الفتنة، من دون إشراكها بالفهم والتفسير وبالقرار. وهذه الأعراف والتقاليد والمفاهيم والقوانين ترسم وتحدّد كل تفاصيل حياة النساء ومساراتها تحت عنوان الوقاية من الفتنة والحرص على العفة، فما هي مقومات هذه الرؤية التي تؤول إلى الحجاب وتستقر من دونه لأنّها تتعلق بالذهنيات أتجسّدت بالحجاب أم لا؟

في منظور أنصار الحجاب، يُعَدّ إخفاء الجسد أو إلغاء معالمه الظاهرة المدخلَ إلى عالم الروح، مفترضين أنّ الحجاب الذي يُخفي الجسد أو يُبعد تأثيره عن ذهن الآخرين، يؤدي تلقائياً إلى مزيد من الروحانية في فكر المرأة وسلوكها. إلا أنّ الانطلاق من ازدواجية الروح والجسد كماهيتين منفصلتين والدعوة إلى إلغاء الجسد للسمو بالروح قد تؤدي إلى نقيضها، وإلى نتائج معكوسة تتساوى بين التحجيب والسفور والتبرّج المفرطين، كما يستنتج أحدهم:

وهكذا لا يكفّ دعاةُ إنصاف المرأة عن التشكيك في صحة نظرية الحجاب، مُوازين بينه وبين التبرّج المفرط، معتبرين وبشكل مفارق المتاجرة بجسد المرأة في وسائل الإعلام والإعلان وفي الموضة، الوجه الآخر للحجاب، القائم على تعزيز الجانب

الإيروتيكي. هذه النظرة الإيروتيكية البحت إلى كينونة المرأة وعتها نظيرة زين الدين واجتهدت لتشذيبها وتصويبها.

تستهجن الكاتبة تحويل المرأة إلى غرض جنسي وتشييئها، وحصر قيمة وجودها بمواصفاتها الخارجية الفيزيقية، بجسدها ومظهرها الخارجي، على حساب ما قد تتمتّع به من خصال وفضائل رمزية، وتحويلها إلى كائن إيروتيكي محض.

ففي معرض ردّها على رأي للشيخ سعيد البغدادي[7] الذي يربط فيه بين حبّ الرجل لزوجته وتثمينه لجمالها وحمايتها وصونها بالحجاب، تدعو الكاتبة إلى إيلاء أهمية رئيسة لصفات المرأة العقلية والأخلاقية التي تُضفي على كينونتها أبعاداً غير إيروتيكية، تسمو بها إلى المعنوي، والرمزي، والروحي، فتخاطب الشيخ البغدادي قائلةً: «أوليس للرجال أدلّة يؤيدون بها حبّهم لنسائهم؟ وهل الآباء والأبناء والأخوة المسلون لا يحبّون بناتهم وأمهاتهم وأخواتهم، ولا يرغبون فيهنّ ما لم يكنّ جميلات؟ والفضيلة يا سيدي المرشد؟ الشرف، الناموس، كرم الخلق، العفاف، الحياء، الإباء، الوفاء، الإخلاص، عزة النفس، أدب القلب، أدب اللسان، خوف الله، علو الهمة، الصدق، الصراحة في القول، الأمانة، النزاهة، الاستقامة، الرأفة، الحلم، الوقار، الرصانة، الاعتدال، البر، التقوى، الطاعة، حسن التدبير، محبة الأهل، محبة الوطن، محبة الأمة، حب الخير العام، أكلّ هذه الفضائل لا شيء؟ أولا تستحقّ النساء من أجلها شيئاً من الحب الخالص لهنّ، ومن الرغبة فيهنّ؟ أم أنّ كلّها من خصائص الروح لا تهمّك، بل إنّما يهمّك جمال الجسد وحده؟»[8].

إنّ الصفات التي تسمّيها نظيرة، وتكاد تؤنّثها، هي صفات عابرة للجنس، وتُعَدُّ تقليدياً من مواصفات الذكورة اللازمة واللازبة، كي يستحقّ الذكر الانتساب إلى جنسه، وإلى أبعاد الذكورة المعنوية والرمزية، بيد أنّ النظام المعياري القائم لا يكترث للمرأة التي تتمتع بهذه المواصفات، ويحشر هذه الأخيرة في أبعاد جسدها.

ترفض الكاتبة إذن، المسلّمة المضمرة القاضية بتحويل المرأة، جسماً وروحاً، إلى غرض جنسي بحت، ولكنّها تستدلّ على أنّ هذه الرؤية لا تستثني الرجل وتُحوّله هو الآخر إلى كائن جنسي، بحيث تتمّ إحالتهما معاً إلى البُعد البيولوجي، الأمر الذي يستدعي الارتقاء بالنظرة إليهما معاً، ووضع استراتيجيات تربوية لهذه الغاية، تقوم على تطبيع العلاقة بين الجنسين منذ الصغر: «فعوّدوا النساء منذ الصغر يا سادتي الرجال أن ينظروا إليكم نظرهنّ إلى منبع عقل وأدب، عوّدوهنّ أن ينظرنَ إليكم من حيث الروح لا من حيث الجسد، وعوّدوا أنفسكم الشرف والإباء والنبل عند مقابلتهنّ»[9].

كما تلفت إلى أنّ النظرة إلى المرأة، ككائن إنساني مكتمل، ومنزّهة من الشهوة، ممكنة، ما دام هذا الرجل المتشدّد يتعامل بحيادية مع غير المسلمات السافرات، وهنّ لسنَ أشرف فطرةً من المسلمات المحجبات، كما مع المسلمات القرويات، فتخاطب الرجال المزدوجي الموقف قائلةً: «إنّكم تعوّدتم مقابلة السيدات الشريفات غير المسلمات سافرات، وتعوّدتم احترامهنّ، وتعوّدت أولئك السيدات مقابلتكم واحترامكم احتراماً روحياً نزيهاً وشريفاً، فيمكن والحالة هذه أن يكون أمركم كذلك مع السيدات المسلمات الشريفات إذا تعوّدتم أن تروهنّ سافرات، فالسافرات اليوم لسنَ أشرف

فطرةً منهنّ. ألا ترونَ أنّ مقابلاتكم المسلمات من القرويات وهنّ سوافر، وهنّ يزدنَ على المتديّنات أضعافاً، لا تؤذيكم ولا تؤذيهنّ أدباً ونبلاً، فلماذا تتوقعون الأذى في مقابلة المسلمات المدنيات؟»[10].

ولذلك ترى الكاتبة أنّ هذه الاستراتيجيات تتناقض مع مفهوم «الجهاد الأكبر» المتوقَّع من المسلم بما هو السيطرة على النفس وعلى الرغبات، ومع التدابير المفروضة على المرأة من أجل منع الفتنة، إذ يجب على الآخر المفتون تحمُّل المكابدة المتوخاة والمجاهدة. وفي هذه الحالة تتعذّر الفتنة، كفعل غير محمود، ولا تعود هناك حاجة إلى تغطية المرأة وعزلها.

وعندما تنادي الكاتبة باستبدال النظرة الإيروتيكية البحت إلى العلاقة بين الجنسين كردٍّ على فرض الحجاب ومنع الاختلاط، فهي تثير مشكلة عامة كامنة في الثقافة العربية الإسلامية التي تطمس الدور الإنتاجي الاقتصادي والسياسي للجسد لصالح الإيروتيكي: «إذ إنّ النظر إلى المرأة كغرض جنسي كلياً، عتمّ (إن لم نقل طمس)، البُعد الاقتصادي، مقابل تضخيم البُعد الإيروتيكي للمرأة الذي يفضي إلى جنسنة الجسد الذكري، وغالباً العلاقات بين الجنسين من جهة، وطمس المشاكل التي تتعلق بمجالات أخرى»[11].

يقوم هذا الخطاب الإيروتيكي الطاغي والمهيمن، بنوع من البتر، على مستوى البيئة الإنسانية، حيث يؤدي إلى تحجيم كلّ المجالات التي تربط الإنسان بمحيطه، وخصوصاً المجال السياسي، مستبدلاً الصراع السياسي بالصراع من أجل السيطرة على الآخر، واحتجازه في حقل واحد هو الحقل الجنسي.

وعلى هذا المنوال، يختزل الحجاب المرأة بأنوثتها البيولوجية، والرجل بذكورته البيولوجية هو الآخر، فيتم اختزال علاقتهما الإنسانية المركّبة بهذا البُعد، دون الأبعاد الأخرى الوجودية والاجتماعية.

ثالثاً: تواطؤ الضحية

تُكرِّسُ الثقافة الذكورية المقدّسة المرأة، كغرض جنسي آثم وشيطاني عليه أن يستترَ ويتوارى عن الأنظار، درءاً للفتنة، وحفاظاً على النظام الاجتماعي، ولكن على هذا الكائن الملتبس أن يتقمّصَ شخصيةً مضادةً في الداخل، فالمرأة المأمورة بألاّ تفتن في الخارج مأمورة بأن تفتن الزوج في الداخل، وأن تلبّي رغباته.

تتكيّف المرأة مع هذه المعادلة، ولا تألو جهداً في سبيل إغراء الزوج وإغوائه، وإيقاعه في فتنتها، فتتزيّن وتتجمّل وتتبرّج لأجله، ولكنّ هذا الأخير لا يلبث أن ينقلبَ عليها، ويتّهمها، وبسبب سعيها إلى إرضائه، بعدم الأهلية، وعدم استحقاقها المطالبة بحقّ واحد من حقوق الرجل، وهذا ما قرّره الشيخ مصطفى الغلاييني حين قال في كتابه «الإسلام روح المدنية» متهكّماً: «ما دامت المرأة تضيع ثلاثة أرباع الوقت إن لم يكن أقل بتسعة أعشاره في اللبس والزينة، وتقضي معظم العشر الباقي في الكلام عن الأمرين، فهي لا يمكنها المطالبة بحقٍّ واحد من حقوق الرجل. ولو أوكل أمر تدبير هذا الكون للنساء فقط، لكان اليوم قفراً هذا إن بقي»[12].

لم يفت نظيرة الانتباه إلى هذه الازدواجية التي تسم موقف الرجال الذكوريين من المرأة، ولا افترائهم عليها، فتبادر إلى مناقشة الشيخ الغلاييني وإلى دحض حجته، ولومه، فتخاطبه قائلةً: «يا لجور الرجل، إنّه يُكرِهها على التبرّج له، ويُعوّدها على ذلك قسراً، ثم يتخذه

حجةً له عليها، ولا ينظر نظرةً إلى العالم السافر الراقي، حيث إنّه قام مقام تلك المرأة المتبرّجة، امرأة جديدة هي شقيقة الرجل، وشريكة الزوج، ومربّية الأولاد، ومهذّبة النوع، هي المرأة الحائزة لجمال المرأة، وعقل الرجل»[13].

لا تقفز نظيرة فوق الحقيقة الموضوعية، وتعترف بواقع انشغال المرأة المفرط بمظهرها دون عقلها وروحها، مضطلعةً بالدور المرسوم لها كموضوع جنسي بإتقان، ولكنّها تُحمّل الرجل مجدداً مسؤولية لامبالاة المرأة، وسذاجة طموحاتها، وتردّ هذا الانشغال إلى الأدوار العتيقة المرسومة لها، فتطالب الرجل بإطلاق حريّتها كي تتمكّنَ من لعب أدوار أخرى لائقة ومجدية، تستعمل لأجلها مهاراتها العقلية والنفسية، فتخاطب الشيخ الغلاييني مجدداً قائلةً: «إنّ المرأة تطلب حريّتها واستقلالها لتنشغل بتزيين روحها المرضية بالعلم والآداب، بدلاً من أن تبقى لدى الرجل مكرهةً على الانشغال بتزيين جسدها له اشتغالاً يُميت فيها روحها الناطقة، أجل إنّ الرجل يتطلّب منها ذلك كرهاً، إذ لا يعترف لها بقوة تدفع عنها ضرره، وتجفف شرّه، إلا بتزيين جسدها له...»[14].

رابعاً: نظرية المرأة – الجوهرية

ومن جهة أخرى، لا تنخدع الكاتبة بزيف العبارات التي ما زالت تمتدح الدور التقليدي للمرأة، وتُبرّر تالياً استراتيجيات عزلها، والتي توحي بالإطراء، ولكنّ باطنها النفاق، كتشبيهها بالجواهر التي تجب صيانتها والحرص عليها، هذا التشبيه الذي يُبرّر ضرورةَ المحافظة على المرأة في إطارها العائلي الخاص، بعيداً عن تعقيدات الحياة وصعوبات المجتمع، وبعيداً عن «رذائل معيّنة»، ينطوي على تشييء المرأة، أي إحالتها إلى شيء ينبغي أن يُحفظ ويُصان، حتى يظلّ، في نظر مالكه، محتفظاً بقيمته.

تقوم الكاتبة بتفكيك الخلفية التي تحكم هذه العبارات البرّاقة، التي تُضمر عكسَ ما تُظهر، والتي أتت في ذاك العصر على لسان الشيخ عبد القادر المغربي، في صيغة نظرية اعتبر فيها حجب المرأة عن الأنظار ومنعها من مخالفة الرجال «إنّما هو التبجيل والتكريم، لا الإهانة والتحقير، وكيف يكون حجب المسلم لامرأته تحقيراً لها وإهانة، وهو بسبب هذا الحجاب أصبح خادماً وحابساً نفسه على قضاء حاجاتها؟ إنّه يَعدُّها جوهرةً نفيسةً، فيحفظها في خزانته تكريماً لها لا تحقيراً»[15].

يستفزّ الكاتبة تشبيه المرأة بشيء مادي خالٍ من الروح، ولو كان يُعَدُّ ثميناً كالجواهر، فتطالب بأن يعامَل الرجل بالمثل، وترى أنّ مبدأ حجب المرأة عن الأنظار جدير بالمجرمين والمجرمات، ولا يمتّ بصلة إلى التكريم، عدا عن أنّ الأخذ بهذا المبدأ يُفضي منطقياً إلى تحجيب الرجل على حدّ سواء.

«أيجوز تشبيه المرأة من جهة المعاملة بالجواهر المادية التي لا روحَ لها؟ وهل كلّ مسلمة جوهرة نفيسة مملوكة مادة لكل مسلم ليحرمَها نعمتَي الحرية والإرادة، ويُنزلها إلى درك الجماد؟ وإن كانت المرأة جوهرة الرجل، فلماذا لا يكون الرجل جوهرة المرأة، فتخفيه مثلما يخفيها تبجيلاً وتكريماً؟ وهل سمع في الدنيا أنّه يحبس ويحجب الأنظار ويمنع من الاختلاط إلا المتهمون والمتهمات، والمجرمون والمجرمات؟ فكيف يكون ذلك الحبس والمنع تبجيلاً وتكريماً للمسلمات؟»[16].

وبالمنطق ذاته، تنتقد الكاتبة الإيرانية

«شاهدروث جافان» مبدأ تحجيب المرأة وعزلها عن الفضاء العام، بحجّة الحرص المفرط عليها وتثمينها وتبجيلها، ولكنّ شاهدروث تضيف أمثلةً أخرى تُظهر أنّ ما يخفيه المرء هو كل ما يخجل به، وليس فقط الحالات الإجرامية، مستنكرةً أن يكون جسدُ المرأة، الذي هو قوام وجودها، مصدرَ خجل وعار، فتتساءل: «ألا نخفي ما نخجل منه؟ عيوبنا، ونقائصنا، وتقصيراتنا، وضعفنا، وحرماننا، وشذوذنا، وتشوّهاتنا، وعجزنا، ودناءاتنا، وخورنا، وأخطاءنا، ودونيتنا، وخمولنا، وسرقاتنا، واغتصاباتنا، وخطايانا، وجرائمنا»[17].

خامساً: نظرية الرجل – الذئب

لتبرير تنقيب المرأة وعزلها عن الحياة العامة، وتقييد اختلاطها بالجنس الآخر، يلجأ الحجابيون إلى وصم الرجل بالتوحّش والهمجية، واستعداده للافتراس والانقضاض على النساء، الأمر الذي يستدعي وفق هذه النظرية الحذر والاحتراس والتحصّن بالحجاب. تدحض الكاتبة هذه الذريعة أو التهمة التي لا يتردّد الرجل في نسبها إلى نفسه، على الرغم من سلبيتها، لأنّها تُحقّق له مكاسب أكبر، يضحّي لأجلها بصورته أمام المرأة.

لم تنفِ الكاتبة وجود الذئاب، ولكنّها نفت أن يكون الحجاب رادعاً لهم، ما لم يكن على الأرجح محفّزاً، كما أنّها نفت أن يكون هذا الحجاب درعاً واقياً للمرأة من سوئهم، لأنّه يجعل هذه الأخيرة تستهين بنفسها، وتخور أمام التحديات، عكس المرأة السافرة المنفتحة على العالم، وعلى التجارب، والواعية بذاتها. فهي ترى أنّ الحجاب هو الذي يجعل الرجل ذئباً، بقدر ما يُحوّل المرأة إلى «نعجة»، والنعجة في المخيال الشعبي هي رديف الكائن الهشّ، الواهن، الساذج، والسهل الانسياق، فالمرأة المحجّبة، التي تواري وجهَها وبدنَها خوفاً من الرجل، وتهرّباً منه، تحسب نفسها، كالنعجة، رهينة افتراس الذئب اللئيم، «حين يلتقيان تصغر له نفسها، وتهن إرادتها فتهون»[18]، على عكس السافرة «التي راضت الذئاب والسباع وداست رؤوسهم دوساً، وأثبتت أنّ أقوى الفتيات على السباع أكثر رؤية لها»[19].

بكلمات أخرى، ترى نظيرة أنّ الخوف من الرجل الذي يتمّ زرعه وتنميته في نفس المرأة، هو الذي يجعلها تخور، وتتهاون، وتنصاع لأوامر الذئب وأهوائه، الذي يستغلّ خوفها، ويتغرغر بذئبيته، بينما المرأة التي ألفت حضور الرجل، واعتادته، هي وحدَها القادرة على الإمساك بزمام الأمور والمواجهة.

إنّ هذا التحليل مثير للاهتمام من منظور علم النفس، فهو ينبني على افتراض أنّ صورةَ الآخرين عن الشخص، ما هي إلا انعكاس لصورة هذا الشخص عن ذاته، فإذا كانت المرأة تنظر إلى ذاتها بوصفها جسداً قابلاً للانتهاك فحسب، فهي تشجّع الآخرين على النظر إليها كغرض جنسي سهل المنال، وكنعجة إذا استخدمنا مصطلح نظيرة، ترتعش خوفاً، من أن ينقضَّ عليها الذئب.

ثم إنّ نظرية الرجل – الذئب، والتي تنضاف إلى لائحة الأسباب الرائجة لتبرير فرض الحجاب – النقاب على المرأة المسلمة، تسيء إلى الرجل المسلم، كما إلى الامتيازات الجندرية التي انتزعها عبر التاريخ وجعلته قوّاماً على المرأة.

يفترض انتزاع الرجل لامتياز «القوامة»،

أنّه يتمتّع بقوة الإرادة، والعزم، بينما المرأة بالليونة، والهشاشة، والضعف، فتأتي نظرية الرجل – الذئب لتنفي عنه هذه الصفات، المحايثة لاستحقاقه، شرف «القوامة»، بما تستلزم هذه الأخيرة من قدرة على التحكّم بنوازع الذات، كشرط لازب للتحكّم بالآخرين وقيادتهم.

في ظلّ نظرية الرجل – الذئب، يتحوّل الرجل في منهج نظيرة التحليلي، إلى مصدر «خوف وخشية»، تضطرّ المرأة إلى الهروب منه، بسدل النقاب على وجهها، وهذا التدبير من قبلها، يدينه، دالاً على عدم رقيّه وتهذيبه، وفساده، وعلى عدم استحقاقه شرف «القوامة»، فتقول محاجِجةً: «إذا كان الرجل مصدرَ خوف وخشية، فهذا دليل على أنّه غير مهذّب وغير راقٍ، فيتحوّل الحجاب حينئذٍ إلى حجّة ضدّه، فهو يعني هروب المرأة من الرجل ومجابهتها إياه بسدل النقاب على وجهها وتحويلها ظهرها إليه. وهذا يعني، وهو قوّام، أنّه خائن، سارق أعراض لا يجوز أن يُؤمنَ شرّه، بل يجدر بالمرأة أن تهرب منه هرباً»[20].

إلاّ أنّ المدافعين عن نظرية الحجاب لا يأبهون لما يلحق بالرجل من إهانات جراء هذا التدبير، ويفضّلون قبول تهمة «الذئب» لتبرير الإجراءات المتّخذة بحقّ النساء، على ألا ينتقصَ من سلطانهم وهيبتهم المرجوّة.

خاتمـــة

في الحصيلة، لم يتوقّف مشروع نظيرة زين الدين التحرري على السفور الشكلي، بل تجاوزته إلى جملة المفاهيم التي تحصر كينونة المرأة ووجودها بجسدها، وتؤدي فوق ذلك إلى تأثيم هذا الجسد وشيطنته، فردّت على هذه التصورات العتيقة الراسخة برفض جوهرة الفتنة والتأثيم وتأنيثهما، وبرفض مفهومَي المرأة – الجوهرة والرجل – الذئب، وبتصويب مفاهيم العفّة وآلياتها، وبالدعوة إلى الفصل بين الفتنة والاختلاط، لتنادي في الآن نفسه بعدم تجنيس الفضيلة، وتأنيثها وتذكيرها، والكيل بمكيالين، الأمر الذي يؤدي إلى تمييز إضافي تتحمّل وزره المرأة ولا يُرضي العقل والمنطق. عدا عن كون هذه المفاهيم والاستراتيجيات تعني أنّ الرجل عاجز عن السيطرة على نزواته، ونزعاته الغريزية، وعن المجاهدة المتوقَّعة منه دينياً ومدنياً، للخروج من هذا المأزق الافتراضي، الذي يسيء إلى قدراته الأخلاقية، وإلى أهليته كقوّام، فهي تعني من منظور آخر أنّ قوة المرأة هي التي تجعل الرجل يهابها، فيقوم بتطويعها. إنّ موضوعة «الفتنة» موضوعة إشكالية بامتياز، وتستحقّ النظر والتفكيك من عدة زوايا، للوصول إلى الحقيقة، التي يحاول الذكوريون طمسَها بطلب النجدة من السماء والغيب.

الهوامش:

() أنظر: محمد كامل ضاهر، الصراع بين التيارين الديني والعلماني في الفكر العربي الحديث والمعاصر، الطبعة 2، دار البيروني، بيروت 2009، ص154.

(2) نظيرة زين الدين، السفور والحجاب، دار المدى، بيروت 1998، ص62.

(3) المصدر نفسه، ص63.

(4) أنظر: عايدة الجوهري، رمزية الحجاب مفاهيم ودلالات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص164-155.

(5) المصدر نفسه، ص 40.

(6)Fatna Aït Sabbah, La femme dans l'inconscient musulman (Paris: Le Sycomore, 1982), p.102.

(7) جاءت هذه الآراء في معرض ردّها على معارضة الشيخ سعيد البغدادي في رسالته «السيف في عنق المارق» بيّن فيها «حكمة الحجاب للنساء»، وطُبعت سنة 1328 في بغداد.

(8) نظيرة زين الدين، السفور والحجاب: محاضرات ونظرات مرماها تحرير المرأة والتجدد الاجتماعي في العالم الإسلامي، مراجعة وتقديم بثينة شعبان، رائدات الكتابة، ط2 (دمشق: دار المدى، 1998)، ص224.

(9) المصدر نفسه، ص129.

(10) المصدر نفسه، ص130-129.

(11) Fatna Aït Sabbah, La femme dans l'inconscient musulman (Paris: A. Michel, 1980), pp.33.

(12) نظيرة زين الدين، السفور والحجاب، مصدر سابق، ص207.

(13) المصدر نفسه، ص280-279.

(14) المصدر نفسه، ص280.

(15) المصدر نفسه، ص204.

(16) المصدر نفسه، ص205.

(17) شاهدروث جافان، فلْيُنزع الحجاب، ترجمة فاطمة بالحسن ([د.م.]: منشورات رابطة العقلانيين العرب، 2003)، ص8. وصدر لأول مرة تحت عنوان:

Chahdortt Djavann, Bas les voiles!, collection blanche (Paris: Gallimard, 2003).

(18) المصدر نفسه، ص144.

(19) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(20) المصدر نفسه، ص114.

قراءة في كتاب
"مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن"

د. مجيد إبراهيم خليل

كتاب "مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن" من الكتب المهمة للدكتور نصر حامد أبو زيد، صدر عن المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، 1996. يقع الكتاب في 319 صفحة من القطْع الكبير. وتضمن مقدمة وتمهيدا وثلاثة أبواب. البابان الأول والثاني تضمن كل منهما خمسة فصول، وخصص المؤلف الباب الثالث إلى أبي حامد الغزالي (1058 - 1111 م) ومفهومه عن النص.

الخطاب الديني والمنهج العلمي

في التمهيد يؤكد الباحث أن للقرآن في حضارتنا دورا ثقافيا لا يمكن تجاهله في تشكيل ملامح هذه الحضارة. وإذا كانت الحضارة تتركز حول "نص" بعينه، فلا شك أن التأويل وهو الوجه الآخر للنص يمثل آلية هامة من آليات الثقافة والحضارة في إنتاج المعرفة. إن البحث عن مفهوم "النص" ليس في حقيقته إلا بحثا عن ماهية القرآن وطبيعته بوصفه نصا لغويا، مستشهدا بقول الراحل أمين الخولي بضرورة الدراسة الأدبية للقرآن. إن الدراسة الأدبية ومحورها مفهوم "النص" هي الكفيلة بتحقيق "وعي علمي" نتجاوز به موقف "التوجيه الإيديولوجي" السائد في فكرنا وثقافتنا، وإن البحث عن هذا المفهوم وصياغته لا يمكن أن يتم بمعزل عن إعادة قراءة "علوم القرآن".

ويرى الباحث أن التحدي الحضاري والاجتماعي والثقافي الذي تواجهه أمتنا اليوم يختلف عن التحدي الذي واجهته منذ أكثر من سبعة قرون؛ فكان التحدي آنذاك هو الحفاظ على الذاكرة الحضارية للأمة، فكانت المصنفات في علوم القرآن محاولة لجمع التراث المتنوع في مجال "النص" الديني وتيسير تناوله على القارئ. وهذه العملية كانت تتم - بحسب رأي المؤلف- من منطلق تصور ديني للنص صاغته اتجاهات الفكر الرجعي في تيار الثقافة العربية الإسلامية، وهو تصور يعزل النص عن سياق ظروفه الموضوعية التاريخية بحيث يتباعد به عن

طبيعته الأصلية بوصفه "نصا" لغويا ويحوله إلى شيء له قداسته بوصفه شيئا. ويتساءل الباحث ماذا نفعل لمواجهة التحدي، ويجيب على التساؤل بضرورة الشجاعة والجرأة في طرح الأسئلة لإنتاج "وعي علمي" بالتراث من حيث الأصول التي كوّنته والعوامل التي ساهمت في حركته وتطوره. يؤكد الباحث أن غرض الدراسة تحقيق هدفين: الأول، إعادة ربط الدراسات القرآنية بمجال الدراسات الأدبية والنقدية، وهذه الدراسات تنتظم علوما كثيرة، محورها واحد هو "النص"؛ دراسته من حيث كونه نصا لغويا، أي من حيث بنائه وتركيبه ودلالته وعلاقته بالنصوص الأخرى في ثقافة معينة. قد يقال إن النص القرآني خاص، وخصوصيته نابعة من قداسته وألوهية مصدره، لكنه رغم ذلك يظل نصا لغويا ينتمي لثقافة خاصة. الثاني، محاولة تحديد فهم "موضوعي" للإسلام. ويتساءل الباحث: ما هو الإسلام؟ والسؤال يكتسب مشروعيته من تلك الفوضى الفكرية التي تسيطر على المفاهيم الدينية، نتيجة اختلاف الرؤى والتوجهات في الواقع الثقافي المعاصر ونتيجة أيضا لتعدد الاجتهادات والتأويلات في التراث من جهة أخرى. ولا يزعم الباحث أنه يمتلك الحقيقة، ولكنه بتواضع العالِم يرى أن هذه الدراسة بداية للبحث العلمي في مجال شائك (ص 18 - 23).

منهج الدراسة

يوضح الباحث بجلاء أن منهج الدراسة ينطلق من مجموعة الحقائق التي صاغتها الثقافة العربية حول النص القرآني من جهة. كما أنها تنطلق من المفاهيم التي يطرحها النص ذاته عن نفسه من جهة أخرى. إن النص في حقيقته وجوهره منتَج ثقافي، والمقصود بذلك أنه تشكّل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاما. إن ألوهية مصدر النص لا تنفي واقعية محتواه ولا تنفي من ثم انتماءه إلى ثقافة البشر. إن المدخل العلمي لدرس النص القرآني هو مدخل الواقع والثقافة، الواقع الذي ينتظم حركة البشر المخاطَبين بالنص وينتظم المستقبِل الأول للنص وهو الرسول، والثقافة التي تتجسد في اللغة. إن العلاقة بين الثقافة والنص علاقة جدلية معقدة، وللكشف عن هذه العلاقة تعتمد الدراسة المدخل اللغوي؛ وهو المنهج الوحيد الممكن من حيث تلاؤمه مع موضوع الدرس ومادّته. ويخلص الباحث إلى إيضاح يراه مهما، وهو أن حديثه عن دور الواقع والثقافة في تشكيل النصوص يمثل نقطة الانفصال بين منهج هذه الدراسة والمناهج الأخرى، مؤكدا أن لا تعارض بين تطبيق المنهج اللغوي -منهج تحليل النصوص- على القرآن وبين الإيمان بمصدره الإلهي (ص 24 - 28).

الباب الأول: النص في الثقافة (التشكّل والتشكيل)

مفهوم الوحي

إن الوحي مفهوم دالّ في الثقافة سواء قبل تشكّل النص أم بعد تشكّله. الاسم دال في إطار اللغة العربية قبل القرآن على كل عملية اتصال تتضمن نوعا من "الإعلام" وشرط هذا الإعلام أن يكون خفيا سرّيا من خلال شفرة خاصة مشتركة بين المرسِل والمستقبِل. يحلل الباحث الأساس الثقافي لظاهرة الوحي الديني، فيشير إلى ارتباط ظاهرتي الشعر والكهانة بالجنّ في العقل العربي وما ارتبط بهما من اعتقاد العربي بإمكانية الاتصال بين البشر والجن، فالوحي جزء من مفاهيم الثقافة، ونابع من مواصفاتها وتصوراتها.

ويتحدث الباحث عن الوحي بالقرآن، فيشير إلى أن اتصال الله بالبشر أو كلام الله للبشر له طرائق محددة عبّر عنها النص وهي: الوحي، والكلام من وراء حجاب، والوحي غير المباشر عن طريق الرسول المَلَك الذي يوحي للمستقبِل. وفي معرض التساؤل هل كان الاتصال بين جبريل والرسول وحيا بمعنى الإلهام أو وحيا بالقول. يتصدى الباحث للإجابة التي تقول أن المنزّل هو اللفظ والمعنى وأن جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به؛ فيرى أن هذا الرأي يتصور وجودا خطّيا سابقا للنص في اللوح المحفوظ. ويرد على هذا التصور باعتباره إهدارا لجدلية العلاقة بين النص والواقع الثقافي، وأدّى هذا التصور الأزلي للنص إلى نتيجتين هامتين هما: المبالغة في قداسة النص، والإيمان بعمق دلالته وتعمق مستوياتها، وتعدد مستويات الدلالة وارتباطها بالأصل الإلهي (ص -42 43).

ويتوقف الباحث عند كلمة "القرآن" هل هي مصدر من قرأ بمعنى ردّد أو من قرأ بمعنى جمع. الباحث يأخذ المعنى الأول لأن النص تشكّل من خلال ثقافة شفاهية لم يكن للتدوين فيها دور يُذكر. إن النص في إطلاقه هذا الاسم على نفسه ينتسب إلى الثقافة التي تشكل من خلالها، ولكنه في نفس الوقت يفرض تميّزه عنها. أطلق على نفسه اسم الكتاب، وهو أول نص مدون في تاريخ الثقافة كما أنه حلقة فاصلة في تاريخ الثقافة بين رحلتي الشفاهية والتدوين. إن التنزيل هو رسالة السماء إلى الأرض، ولكنها ليست رسالة مفارقة لقوانين الواقع بكل ما ينتظم هذا الواقع من أبنية، وأهمها البناء الثقافي.

المتلقي الأول للنص

كان محمد المستقبِل الأول للنص ومبلّغه جزءا من الواقع والمجتمع. كان ابن المجتمع ونتاجه. الفكر الديني السائد حوّله إلى حقيقة مثالية ذهنية مفارقة للواقع والتاريخ وجعل منه إنسانا معزولا عن المجتمع والواقع، يعيش هموما مفارقة مثالية ذهنية. تم أيضا تحويل النص من توجهه إلى المخاطَب والمخاطَبين لكي يكون نصا دالّا على المتكلم بتحويل المخاطَب الأول إلى راهب متبتل، وصارت مهمة المخاطَبين محاولة الوصول إلى المتكلم من خلال النص من جهة، ومن خلال سلوك طريق التبتل والانقطاع عن العالم تقليدا للمخاطَب الأول. وصارت الرسالة ذات ظاهر وباطن وذات دلالة مركبة معقدة لا يفهمها إلا القليل.

وليس معنى القول بأن محمدا ابن الواقع ونتاجه أنه نسخة كاربونية من صورة العربي الجاهلي. إن الواقع الذي ينتمي إليه محمد ليس بالضرورة هو الواقع السائد المسيطر، فالواقع

يحتوي على نمطين من القيم: السائد والنقيض (ص 60). وكان حب الخلاء والتحنث في غار حراء طقسا يمارسه آخرون إلى جانب محمد وقبله (الأحناف) ولم يكن محمد معزولا عن هذه الحركة الفكرية (أي الحنيفية) وكان البحث عن دين إبراهيم في حقيقته بحثا عن الهوية الخاصة للعرب. وهي هوية يهددها: الخطر الاقتصادي ومحاصرة القوى الأجنبية. وكان البحث عن إيديولوجية تحقق مواجهة الصراعات الداخلية والخارجية متمثلا في البحث عن دين إبراهيم. وكان الإسلام تجاوبا مع حاجة الواقع، وهي الحاجة التي عبر عنها الأحناف. وكان محمد واحدا منهم. محمد لا يمثل ذاتا مستقلة عن حركة الواقع، بل إنسانا تجسدت فيه أحلام الجماعة البشرية التي ينتمي إليها. هناك تصوُّر عن وجود خطّي سابق للنص في اللوح المحفوظ، وهذا التصور يجعله معطى سابقا مكتملا فرض على الواقع، كما أنه يؤدي إلى عزل النص عن حركة الواقع تدريجيا. يؤكد الباحث أن النصوص وإن تشكلت من خلال الواقع والثقافة تستطيع بآلياتها أن تعيد بناء الواقع ولا تكتفي بمجرد تسجيله أو عكسه آليا. للغة نوع من الاستقلال النسبي عن الثقافة التي تعبر عنها وعن الواقع الذي يفرزهما، ومن هذا الاستقلال تكتسب قدرتها على إعادة بناء الواقع. وقد أفصح الوحي لمحمد عن حقيقة الدور الذي أسند إليه. إنها مهمة تتطلب إنذار المجتمع والناس بحقيقة الفساد الذي نخر المجتمع، وبضرورة التغيير تحقيقا لأحلام المستقبل.

المكي والمدني

التفرقة بين المكي والمدني تفرقة بين مرحلتين هامتين ساهمتا في تشكيل النص، سواء على مستوى المضمون أو على مستوى التركيب (ص 75). وهذا يدل على أن النص هو ثمرة للتفاعل مع الواقع الحي التاريخي. وقد اعتمد علماء القرآن معيار المكان غالبا للتمييز بين المكي والمدني. معيار آخر للتمييز هو المخاطَبين بالنص على التغليب في كل مرحلة من المرحلتين؛ وعلامة التفرقة بينهما أن كل سورة فيها (يا أيها الناس) وليس فيها (يا أيها الذين آمنوا) فهي مكية، وهو معيار ناقص لأن مخاطبات القرآن كثيرة جدا. معيار التصنيف يجب أن يستند إلى الواقع من جهة، وإلى النص من جهة أخرى. إلى الواقع حيث أن حركة النص ارتبطت بحركته، وإلى النص من حيث مضمونه وبنائه.

التمايز القاطع بين مكي ومدني مجرد افتراض ذهني؛ فالتطور لا يحدث فجأة سواء على مستوى الواقع أم على مستوى النص، ولذلك تظل التفرقة بين مكي ومدني في النص تفرقة تقوم على خصائص عامة وليست حاسمة. ويمكن الإشارة إلى اثنتين من الخصائص الأسلوبية تساعدنا في التمييز بين المكي والمدني، أولاهما: معيار طول المدنية وقصر المكية، وهو قائم على أساسين: "الإنذار" في المكية و"الرسالة" في المدنية، ومراعاة حال المتلقي الأول من حيث تعوده على الوحي. ثانيتهما: مراعاة الفاصلة، وتحاشي المقارنة بينها وبين السجع. هذان المعياران إلى جانب معيار المضمون وارتباط حركة النص بالواقع (أسباب النزول) يمكن أن يحلّ كثيرا من الخلافات حول المكي والمدني.

ونتيجة عجز المفكر القديم -حسب رأي المؤلف- عن ربط النص بالواقع والثقافة بصفة عامة، وعن ربطه بغيره من النصوص بصفة خاصة؛ أنه راح يحاول الترجيح بين الروايات

المتعارضة، فإذا تساوت عنده معايير النقد الخارجي من حيث صحة السند وصدق الرواة راح يفترض أمرين: تكرر نزول النص، ونزول النص بمكة وتأخر حكمه الشرعي في المدينة. كلا الافتراضين يراهما المؤلف يؤديان إلى شناعات، فافتراض تكرر النزول هو عجز عن مواجهة آراء السابقين. كما أن منهج التلفيق بين الروايات المختلفة يؤدي إلى تعدد المعاني بتعدد مرات النزول. وهناك علاقة تلازم بين النص والدلالة. بعض العلماء يفترض أن يسبق النصُّ الحكمَ، وهذا يعني: نصوص معطلة عن أحكامها، وافتراض أن يسبق الحكمُ النصَّ يؤدي إلى إمكانية الاتصال بدون نص.

أسباب النزول

أسباب النزول من أهم العلوم الدالة والكاشفة عن علاقة النص بالواقع وجدله معه، فهو يزودنا من خلال الحقائق التي يطرحها علينا بمادة جديدة ترى النص استجابة للواقع تأييدا أو رفضا، وتؤكد علاقة الحوار والجدل بين النص والواقع. ويوضح المؤلف أن علة التنجيم هو "تثبيت الفؤاد" للمتلقي الأول، كما أن الثقافة الشفاهية يستحيل فيها استيعاب نص بهذا الطول. النص يستجيب لأحوال المرسَل إليه ليبلّغ المخاطَبين به، فالتنجيم مراعاة للوقائع والأسباب. إن معرفة أسباب النزول تستهدف فهم النص واستخراج دلالته، ودراسة الأسباب والوقائع تؤدي إلى فهم حكمة التشريع خاصة آيات الأحكام. ومن شأن فهم الحكمة أو العلة أن يساعد الفقيه على نقل الحكم من الواقعة الجزئية وتعميمها على ما يشابهها من الوقائع بالقياس، وهذا النقل يستند إلى دوالّ في بنية النص. وإن معرفة سبب نزول كثير من نصوص القرآن على سبيل القطع واليقين ليست دائما مسألة سهلة، والقدماء تصوروا أن العلم بأسباب النزول سبيله النقل والرواية ولا مجال فيه للاجتهاد. وتبقى معرفة أسباب النزول مسألة اجتهادية، ويرى المؤلف أنه لابد للباحث المعاصر من الترجيح بين الروايات استنادا إلى مجمل العناصر والدوالّ الخارجية والداخلية المكونة للنص.

وتوقف الباحث عند تكرار نزول الآية، وتعدد الآيات عند السبب الواحد، فرأى أن الترجيح بين الروايات أدّى إلى افتراضات ذهنية غايتها الجمع بين الآراء والروايات لصدورها عن صحابة وتابعين. هناك افتراضان: تعدد النصوص استجابة لواقعة واحدة، وتكرار نزول الآية لأسباب مختلفة، كلاها يؤدي إلى الفصل بين النص ودلالته، ويؤدي إلى القضاء على مفهوم النص ذاته (ص 97 - 115).

الناسخ والمنسوخ

ظاهرة النسخ تعتبر أكبر دليل على جدلية العلاقة بين الوحي والواقع. ويرى الباحث أن ظاهرة النسخ تثير في وجه الفكر الديني إشكاليتين يتحاشى مناقشتهما أولهما: كيف يمكن التوفيق بين ظاهرة النسخ وبين الإيمان بوجود أزلي للنص. ثانيهما: إشكالية جمع القرآن في عهد أبي بكر، والذي يربط بين النسخ ومشكلة الجمع، ما يورده علماء القرآن من أمثلة قد توهم أن بعضه نسي من الذاكرة الإنسانية. ويعتمد تحديد معنى النسخ على نصين من القرآن: النص المكي (سورة النحل، الآيات 98 - 103) والنص المدني (سورة البقرة، الآيات 105 - 108) والمهم في تحديد الناسخ من المنسوخ ترتيب النزول، لا ترتيب التلاوة. وذلك يعتمد أساسا على معرفة تاريخية

بأسباب النزول وبترتيب نزول الآيات، وهو أمر ليس سهلا.

إن وظيفة النسخ هي التيسير والتدرج في التشريع، ويشير الباحث إلى أنماط النسخ الثلاثة وهي: الآيات التي نسخت تلاوتها وبقي حكمها، الآيات التي نسخ حكمها وبقيت تلاوتها، الآيات التي نسخ حكمها وتلاوتها معا. ولا يسلم القدماء من الخطأ في فهم ظاهرة النسخ لعدم اتخاذ موقف نقدي من روايات الناسخ والمنسوخ. إن ظاهرة نسخ التلاوة سواء بقي حكمها أم نسخ تؤدي إلى القضاء على التصور بأزلية النص في اللوح المحفوظ. وهناك مرويات كثيرة عن سقوط أجزاء من القرآن ونسيانها. وهناك افتراض أن الروايات مكذوبة، ولم يسقط شيء من القرآن (ص 117 - 134).

الباب الثاني: آليات النص الإعجاز

البحث في قضية الإعجاز هو بحث عن السمات الخاصة للنص والتي تميزه عن النصوص الأخرى في الثقافة، وتجعله يعلو عليها ويتفوق. إن المعجزة التي هي دليل الوحي لا يجب أن تفارق حدود الإطار الذي تتميز به الثقافة التي ينزل بها الوحي، فالعرب الذين نزل فيهم القرآن كان الشعر مجال تفوقهم، لذلك كانت المعجزة نصا لغويا هو ذاته نص الوحي. والنص القرآني يتشابه مع الشعر من حيث ماهيته، أي من حيث كونه اتصالا، ويخالفه من جوانب شتّى. وأراد النص أن يدفع عن نفسه صفة الشعر لأسباب ترتبط بماهية الشعر من حيث المصدر والوظيفة، وأراد أن يدفع عن محمد صفة الشاعرية لأن وظيفة الشاعر مغايرة لوظيفة محمد. إن النص غير منعزل عن الواقع فلا حرج في فهم النص على ضوء النصوص الأخرى خاصة الشعر.

ومن أهم الفروق الأسلوبية بين المكي والمدني مراعاة الفاصلة (أي السجع) بين الآيات مما يؤكد تماثل النصوص مع النصوص الأخرى في الثقافة. ومحاولة القدماء سلب صفة السجع من القرآن تستهدف التفرقة بين الكلام الإلهي والكلام الإنساني، والفصل التام في النهاية أدى إلى تحويل النص إلى شيء مقدس. ويرى المؤلف أن الفاصلة التي يحرص عليها النص في المرحلة المكية تمثل علاقة بين النص وبين نمط آخر من النصوص في الثقافة، أما في المدنية فيغلب عليها الخروج على نسق الحرص على الفاصلة.

وعن الإعجاز خارج النص ترى بعض التفسيرات انفصال الدالّة عن المدلول في إعجاز الوحي في الإسلام. والمعجزة في رأيهم لا تنبع من طبيعة القرآن الخاصة بوصفه نصا لغويا، بل تنبع من عجز العرب المعاصرين له عن الإتيان بمثله بحكم تدخل الإرادة الإلهية (رأي النظّام)؛ بينما يؤكد (الباقلاني) أن إعجاز القرآن كامن داخله، في نظمه وتأليفه، ويجعل معيار الإعجاز "العجز" بمعنى عدم الوصول إلى إمكانية فهم سرّ الإعجاز. أما المعتزلة فقد حددوا الإعجاز على أنه قائم على أساس اكتشاف قوانين عامة يمكن للعقل البشري تقبلها. والفصاحة هي سرّ الإعجاز عند أبي هاشم الجبائي، ويمكن تلمسها في التركيب اللغوي، ولا بد من حسن المعنى وجزالة اللفظ لاعتبار النص فصيحا (ص 137 - 157).

المناسبة بين الآيات والسور

علم المناسبة يبحث في أوجه الترابط بين الآيات والسور في ترتيب التلاوة. وهو علم أسلوبي بمعنى أنه يهتم بأساليب الارتباط بين الآيات

والسور. إن العلاقات أو المناسبات بين أجزاء النص ليست في حقيقتها إلا وجها آخر للعلاقة بين عقل المفسر أو القارئ وبين معطيات النص، المفسر يكتشف جدلية أجزاء النص من خلال جدله هو مع النص (ص 161). يرى الباحث أن ثمة علاقات بين السور لا تحتاج قدرا من التأويل، بل تعتمد على وجود نوع من الترابط اللغوي أو تعتمد على التكرار اللغوي بين لفظ في آخر السورة ولفظ في أول السورة التي تليها، ويدعم رأيه بالأمثلة.

الغموض والوضوح

يرى الباحث أن جدلية الغموض والوضوح من أهم خصائص النص في الدراسات النقدية الحديثة. ومن أهم خصائص النصوص الأدبية أن يخالف النص نفسه. وللنص آليات في مخالفة ذاته ترتبط بجدل الواقع معه مِن خلال فعل "القراءة"، وإنتاج الدلالة فعل مشترك بين النص والقارئ فيكون فعلا متجددا بتعدد القرّاء واختلاف ظروف القراءة.

وفي العلاقة بيم المنطوق اللفظي للنص وبين المفهوم الذهني الناتج عن هذا المنطوق يتبلور مفهوم للنص يقرن بينه وبين الوضوح بحيث يصبح "النص" هو التركيب اللغوي الذي يتطابق فيه المنطوق مع المفهوم تطابقا تاما. إن فعل القراءة - ومن ثم التأويل - لا يبدأ من المعطى اللغوي (أي المنطوق) بل يبدأ قبل ذلك من الإطار الثقافي الذي يمثل أفق القارئ الذي يتوجه لقراءة النص (ص182).

ثم يوضح المقصود بالمجمل أي الغامض ويستعرض أشكالا عديدة للإجمال المؤدي إلى الغموض. والمبدأ الذي طرحه المفسرون أن الغموض الراجع إلى الإجمال يمكن الوصول إلى دلالته بالعودة إلى النص ذاته في مكان آخر، فالمجمل في موضع له بيان في موضع آخر. وفي كثير من أجزاء النص يحدث نوع من الاختلاف الذي يبرز من خلال "التكرار" ولكنه تكرار لا يعيد نفس الشيء، بل تكرار يطرح جديدا، فالاختلاف لا يؤدي إلى تناقض بل دالّ على الإعجاز لدلالته على قدرة النص على التصرف دون الوقوع في التكرار الحرفي. إن نفي الاختلاف الذي يوهم التناقض ليس نفيا للاختلاف، بل نفي للتناقض الذي يمكن أن يوهمه هذا الاختلاف. وعن الحروف المقطعة في أوائل السور فإن المنطوق في حالة الحروف المقطعة غير دالّ، أي ليس له مفهوم مباشر أو غير مباشر. ويناقش الباحث بعض تأويلات علماء القرآن للحروف المقطعة، ويخلص إلى أن النص خالف بين ذاته وبين غيره من النصوص من جهة، وخالف بين أجزائه من جهة أخرى، وهذه المخالفة آليّة من آليّات النص حقق بها تميزه وقدرته على التفاعل مع الثقافة في المكان والزمان.

العام والخاص

يؤكد العلماء أن النصوص وإن نزلت عند سبب خاص تتجاوز من حيث دلالتها حدود هذا السبب الخاص، وتساءلوا هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب، وهو خلاف فقهي يرتبط بآيات الأحكام دون غيرها من الآيات. واهتمام الفقهاء والأصوليين باكتشاف الطرائق التي يمكن أن يستجيب بها النص لمتغيرات الواقع في حركته المتطورة عبر التاريخ هو العامل الأكبر وراء التركيز على "عموم اللفظ" دون "خصوص السبب". ثم يشير الباحث إلى آليّات العموم ويشرحها، ويرى أن الانتقال من الخاص إلى العام انتقال دلالي يتحقق باستخدام بعض آليّات اللغة ولكنه

لا ينفي علاقة النص بالواقع. ثم يتناول آليّات الخصوص، فيشير إلى وسائل لغوية تحول العموم إلى خصوص، أي تخصص الدلالة العامة للنصوص. ويناقش علاقة أجزاء النص بعضها بالبعض الآخر من منظور العموم والخصوص. وما ورد في النصوص مطلقا قد يأتي في نص آخر ما يقيّد هذا الإطلاق، وما ورد مطلقا يظل على إطلاقه وعمومه ما لم يكن هناك نص يقيّد هذا الإطلاق (ص 195 - 217).

التفسير والتأويل

التأويل هو الوجه الآخر للنص. ويرى الباحث أن "التأويل" تحوّل إلى مصطلح مكروه لحساب مصطلح "التفسير" في الفكر الديني الرسمي، ووراء هذا التحويل محاولة مصادرة كل اتجاهات الفكر الديني المعارضة سواء على مستوى التراث أم على مستوى الجدل الراهن في الثقافة. ويرى أن وصم الفكر السائد للفكر النقيض بأنه فكر تأويلي يستهدف تصنيف أصحاب هذا الفكر في دائرة مَن يستهدف إثارة "الفتنة" (ص 219).

ويسهب الباحث في الاشتقاق اللغوي لكلمتيْ تفسير وتأويل. تم يوضح دلالتهما الاصطلاحية، فالتفسير يبدو خاصا بالجوانب الخارجية للنص مثل العلوم النقلية، ويجمع كل العلوم الممهدة للتأويل، وعليه يكون التفسير جزء من عملية التأويل. التأويل يرتبط بالاستنباط في حين يغلب على التفسير النقل والرواية. إن المؤول لابد أن يكون على علم بالتفسير يمكنه من التأويل المقبول للنص، وهو التأويل الذي لا يخضع النص لأهواء الذات. والاستنباط لا بد أن يستند إلى حقائق النص ومعطياته اللغوية. ثم يشير إلى آليات التأويل، حيث يتحتم على المفسر الوقوف عند علوم القرآن وعلم اللغة.

الباب الثالث: تحويل مفهوم النص ووظيفته

يتابع المؤلف التحول الذي أصاب مفهوم النص ووظيفته، وتوقف عند نص أبي حامد الغزالي، والدور الخطير الذي قام به في صياغة المفاهيم والتصورات التي شاعت واستقرت في مجال الفكر الديني، وتستهدف دراسة الغزالي حسب رأيه الكشف عن أسباب بداية عزل النص عن الواقع وعن حركة الثقافة والكشف عن جذور كثير من الأفكار والمفاهيم الشائعة في الخطاب الديني المعاصر. تصورات الغزالي للنص تنشأ من منطلقين أحدهما أشعري كلامي ينطلق من حقيقة تصور الأشاعرة للنص بوصفه صفة من صفات الذات الإلهية، وثانيهما صوفي غنوصي يتحدد منطلقه الصوفي من حصر غاية الوجود الإنساني تحقيق الفوز في الآخرة. ومن هذين المنطلقين يتحدد مفهوم الغزالي للنص وطبيعة مشروعه الفكري. يبين الغزالي أقسام القرآن وعلومه، ويصنف العلوم إلى علوم الدين وعلوم الدنيا. ومن خلال هذا التصور الثنائي يتم تصور النص، كما يتم تصنيف العلوم التي يمكن استخراجها منه. وعنده ثنائية أخرى هي: الظاهر والباطن، فللقرآن ظاهر وباطن على مستوى المعنى والبناء في نسق النص. الباطن هو الحقائق، والظاهر هو الصدف والقشر. واللغة في هذا التصور مجرد وسيط تؤدي فعالياته إلى اكتشاف القشرة الخارجية للنص. وصارت معرفة الله هي غاية الغايات، وأصبح الوصول إليه هو الهدف الأسمى من الحياة ومن المعرفة والعلم. وصارت الآيات الدالة عل معرفة الله هي سرّ القرآن، وصار العلم

الناتج عنها هو العلم الأول في طبقة سمّاها علوم اللباب (ص 251). ويفرق الغزالي بين عالم الحس والشهادة وعالم الغيب والملكوت. عالم الملكوت هو الحقيقي وهو بالنسبة لعالم الشهادة بمثابة اللب بالنسبة للقشر. وإذا كانت علوم الدين تنتمي إلى عالم الغيب والملكوت فإن علوم الدنيا تنتمي إلى عالم الحس والشهادة؛ والغزالي يجعل القرآن نبع العلوم كلها، الدنيوية والأخروية. إن السلوك إلى الله عند الغزالي لا يكمن في الاستجابة لأوامر الوحي، بل في التبتل والانقطاع إلى الله. والانتقال من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت، ويتم بالروح والقلب دون الجسد عبر الخيال.

وبعد أن يستشهد الباحث بنصوص الغزالي يخلص إلى أن النص يتحول إلى سرّ مقفل، وهذا السر بمثابة شفرة خاصة لا يطمح الإنسان العادي الوصول إليه إلا بشق الأنفس. ويرى الغزالي أن القرآن بحر ساحله علوم القشر والصدف، وأعماقه الطبقة العليا من علوم اللب؛ والقرآن في مفهومه هو البحر المحيط في أعماقه الجواهر لا يعثر عليها إلا الغواصون، وهم السالكون، ويستخدم لتصنيف علوم القرآن ثنائية القشر واللب أو الصدف والجواهر تصنيفا حقيقيا حرفيا. وهو يتعامل مع اللغة بوصفها رموزا، لا بوصفها نظاما رمزيا؛ أي مجموعة من الألفاظ ذات بعدين أحدهما حقيقي هو المعنى الروحي، والآخر قشرة خارجية أو رمز، وهو الدلالة اللغوية المعروفة.

موقف الغزالي من التأويل حسب رأي المؤلف يتسم بِكثير من التناقض سببه الجمع بين النهج الأشعري، وهو نهج كلامي تلفيقي، وبين النهج الصوفي، وهو نهج حدسي ذوقي. وقد كان على الغزالي أن يجمع بين هذين الشقين الفكريين من خلال ثنائية الخاصة والعامة، حيث يكون في العقائد الأشعرية غُنْية للعوام يكفي لتحقيق الخلاص الأخروي بينما يستطيع الخاصة تجاوز أفق السلامة والرضا بالنعيم المادي إلى أفق نعيم المعرفة والفناء في المطلق (ص 282). والغزالي يفضل بعض أجزاء النص، فهو يرى أن آياته وسوره تتفاضل من حيث مضمونها؛ والاعتماد الكمّي في نظره دليل على الغفلة وقلة المعرفة، أما المعيار الكيفي فهو المعيار الضروري لقياس مستويات النص وإدراك تفاوتها. ويورد المؤلف نموذج شرح الغزالي لسورة الفاتحة وآية الكرسي ملحقا برسم بياني. ويحرص الغزالي بعد بيان بعض السور والآيات ذات المكانة الخاصة أن يسرد الآيات (الجواهر) الدالّة على معرفة الله في سلك واحد، ثم يضم في سلك آخر الآيات (الدرر) الدالة على الطريق المستقيم؛ وهكذا يفتت النص إلى مهم وإلى أقل أهمية، محولا النص إلى مجموعة من الأسرار الغامضة تتفاوت في أهميتها وقيمتها.

نلاحظ أن الباحث اختار الغزالي لأن خطابه ما يزال مهيمنا على الفكر الديني، لهذا اهتم بنصّه كنموذج استغرق أكثر من ستين صفحة، مدعما برسوم بيانية، مستشهدا باقتباسات كثيرة طويلة جدا من كتابه "إعجاز القرآن" وأحيانا من "إحياء علوم الدين". وقد أثارت دراسة الباحث الأدبية للنص القرآني الكثير من الجدل. وقدم الكتاب كشاهد إدانة إلى المحكمة التي حكمت ظلما بكفره وتطليقه من زوجته. واجتهد الباحث لتقديم دراسة أدبية للنص القرآني، ليسجل موقفا مما يدور في ساحة الصراع الاجتماعي في بلاده.

المفكّر العراقي عبد الفتاح إبراهيم
المساهمات الفكرية والدور التنويري

فياض موزان

تحت هذا العنوان كتب د. حميد الهاشمي في مجلة الثقافة الجديدة 453 تموز/ 2025، مقالاً «مقتضباً» كما ذكر في مقدمته، تناول فيه المفكر العراقي البارز الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم، بموضوعية، ورصانة علمية، معتبراً اياه «الرائد الأول لعلم الاجتماع في العراق، وفق معياري التخصص والتأليف فيه». وبذلك أصاب كبد الحقيقة، فقد تناول وبشكل «مقتضب» نشأته وسيرته ومسيرته، ومساهماته وتوجهاته الفكرية، ودوره التنويري، مركّزاً على الجانب الفكري لدى الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم، وهو الركن الاساسي في المقال.

قبل أن أطّلع على المقال، قرأت على صفحة فيسبوك الصديق الاستاذ فاضل البدراوي (أبو رنا) تعليقاً على مقال الأستاذ الهاشمي، صحّح بعض المعلومات التي وردت في المقال، حيث ذكر: «عند قراءتي للمقال المذكور وجدت عدم دقة في المعلومات التي سردها الكاتب عن الراحل عبد الفتاح ابراهيم... منها تأسيسه لحزب الشعب، وتأسيس نقابة عمال السكك». وكانت ملاحظاته هذه صحيحة من وجهة نظري، بحسب ما هو متوفر لدي من معلومات.

وبعد أن اطلعت على المقال كاملاً في عدد المجلة المشار اليه في أعلاه، وجدت في المقال بعض المعلومات التي تحتاج لمزيد من التوضيح، فقد ذكر الكاتب: «قام المؤرشف والباحث شهاب احمد الحميد بجمع تراث المفكر عبد الفتاح ابراهيم وقام بتحقيقه وطبعه ونشره، ويربو على ثلاثة وثلاثين كتاباً ...، وكتاب الجذور الفكرية للحركة الديمقراطية في العراق، تأليف مشترك مع كل من محمد حديد وعلي حيدر سليمان».

لا شك أن الاستاذ شهاب أحمد الحميد قام بجهد توثيقي كبير في جمع تراث المفكر عبد الفتاح ابراهيم، وطبع ونشر عدداً من كتبه، ومن أجل دقة المعلومة، لم يتأكد لنا انه طبع «ثلاثة وثلاثين كتاباً» لعبد الفتاح ابراهيم.

أما ما تم ذكره «أن عبد الفتاح ابراهيم ألّف

كتاب الجذور الفكرية للحركة الديمقراطية في العراق بالاشتراك مع كل من محمد حديد وعلي حيدر سليمان»، أعتقد أن ثمة خطأ في المعلومة، وخلطا – حصل - بين الاسماء، ولكي تتضح الصورة نورد الأسباب والمعلومات الاتية:

أولا: من خلال قراءتي لمذكرات محمد حديد (مذكراتي - الصراع من أجل الديمقراطية في العراق - دار الساقي - لبنان - 2006) لم أجد ما يشير الى ما يؤكد هذه المعلومة، ولم يرد اسم علي حيدر سليمان، وربما يكون المقصود هو حكمت سليمان، الذي عمل مع محمد حديد وعبد الفتاح ابراهيم في «الشعبية». فقد ورد في ص 126 - 127 من المذكرات عن انتماء حكمت سليمان الى «الشعبية»، حيث يذكر محمد حديد: «حضر حكمت سليمان اجتماعاً تمهيدياً ضم كلا من جعفر ابو التمن، كامل الچادرچي. عبد الفتاح ابراهيم ومحمد حديد، وافق حكمت سليمان على الانضمام الى «الشعبية» في مطلع عام 1934». ولنفترض جدلاً أن المقصود هو حكمت سليمان، فهل يصّح أن يقبل به عبد الفتاح ابراهيم شريكاً في تأليف الكتاب وهو المختلف مع سليمان فكراً وسلوكاً وصل الى حد القطيعة.

ثانيا: ان علي حيدر سليمان هو وزير مخضرم في العهد الملكي، حيث شغل العديد من الوزارات التالية: المالية، المواصلات والأشغال، الاقتصاد، وزارة الإعمار، من عام 1948 حتى العام 1954.

ثالثاً: وجود خلاف في المنطلقات الفكرية بين عبد الفتاح أبراهيم وبين كل من محمد حديد، وعلي حيدر سليمان، سيما، الأخير، فكيف يتم الانسجام والاتفاق بين هذه الأطراف على تأليف كتاب موحَّد.

رابعاً- لم أجد، لهذه المعلومة، إشارة أو ذكراً في كل المصادر التي اطلعت وحصلت عليها من كتب، ومذكرات سردها معاصروه أو من العاملين معه، أو مقابلات تمت مع شخصيات وطنية وديمقراطية معروفة عملت معه لفترة طويلة، منها مقابلة هامة أجراها الرفيق الشهيد د. صفاء الحافظ مع الراحل الاستاذ حسين جميل الشخصية الوطنية الديمقراطية المعروفة، والتي عملت طويلاً مع عبد الفتاح ابراهيم، وقد نُشرت هذه المقابلة على صفحات مجلة الثقافة الجديدة في الأعداد (108 آب / 1978، 113 كانون أول/ 1978، 122 كانون الثاني/ 1979).

ان الأخطاء «الضئيلة» التي أُشير إليها لا تُنقص أو تهضم من القيمة البحثية العلمية لهذا المقال، أو من الجهد الكبير الذي بذله الاستاذ الهاشمي، وربما جاءت تلك الأخطاء بسبب شحّة المصادر التي حصل عليها الكاتب، وندرة ما كُتب عن الاستاذ عبد الفتاح أبراهيم، وجحود المثقفين والكتاب والمتخصصين العراقيين، وبخلهم في الكتابة عنه طيلة ثمانية عقود، باعتباره أحد المفكرين العراقيين الأوائل، وأول من ألّف كتاباً في صلب علم الاجتماع، وهذا ما وضّحه وبيّنه الاستاذ الهاشمي وألقى الضوء عليه في مقاله آنف الذكر.

إن «عدم دقة» بعض المعلومات التي وردت في المقال لا تُثلم أو تُنقص من بحثية وعلمية المقال، ومن الجهد الكبير الذي بذله الاستاذ الهاشمي، ونشدّ على يديه في التوسع في البحث والكتابة عن عبد الفتاح ابراهيم، وكشف المرتكزات الهامة في فكره، التي غابت عن الذين كتبوا عنه.

نصوص قديمة

الرأسمالية والديمقراطية *

رالف ميليباند

تتباهى الدول المتقدمة بمفخرة الديمقراطية وتعتبرها من طبيعة الرأسمالية. ويصر المدافعون عن هذا النظام على العلاقة الوطيدة بين الرأسمالية والحرية والديمقراطية. وقد قدمت الانظمة الشيوعية، هنا ايضا، خدمة كبيرة للرأسمالية عندما سوّغت الادعاء بأن الاشتراكية، هي عدو الحرية والديمقراطية، وان الليبرالية الاقتصادية هي الطريق الوحيد الذي يضمنها.

بإمعان النظر في هذا الادعاء، يمكننا الملاحظة، بداية، ان الرأسمالية، خلال الجزء الاكبر من تاريخها، لم تكن مرتبطة بالديمقراطية بأي معنى من المعاني، وان جميع المحافظين والليبراليين المدافعين عن النظام الرأسمالي كانوا دوما مصممين على مقاومة تقدم الشكل الديمقراطي، وخاصة فيما يتعلق منه بتوسيع حق الانتخاب والكثير من الاصلاحات الديمقراطية الاخرى ايضا. لقد احتاجت الرأسمالية في البداية لحريات معينة من أجل ان تتطور. وقد ارتبط هذا تاريخيا بمطالبة البرجوازية بهذه الحريات من اجل كبح الاستبداد وحماية الافراد، وخاصة ذوي الملكيات، حمايتهم من ابتزاز الدولة ورقابتها. ورغم اهمية هذه الحريات إلا انها ابقت سواد الشعب تحت ظروف قاسية من الكبت الاقتصادي والسياسي. وكانت هذه الديمقراطية، بالشكل الذي تحققت فيه، ديمقراطية تقتصر على من يملك ثروة، وبقيت الغالبية العظمى التي لا تملك حصة من ثروة البلد خارج نطاق هذه الديمقراطية.

وجاء توسيع ممارسة الديمقراطية والحرية نتيجة لضغط عنيد من مصادر متنوعة، اهمها الحركات العمالية واليسارية، ضد قوى السيطرة والامتيازات، وبمساعدة بعض افراد الطبقة المسيطرة الذين كانوا يخشون عواقب المقاومة المستمرة لتوسيع الممارسة الديمقراطية. ومع نمو الحركات العمالية واحزاب الطبقة العاملة في العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر، بات من الصعب الاستمرار في حرمان الاغلبية من حق المواطنة السياسية. وهكذا اتاحت، على مضض حق الاقتراع، بداية للذكور، ثم أخيرا إبان القرن العشرين للنساء. ولكن من المفيد ان نتذكر حجم مقاومة أصحاب الامتيازات المتمترسة عبر اوروبا (وبطرق مختلفة في امريكا ايضا) لهذه الدرجة المحدودة في توسيع الديمقراطية، وكذلك ان نتذكر الآلية التي استخدمتها اجهزة الدولة تحسبا للمخاطر على تلك الامتيازات، المتمترسة منها والبرجوازية من الخطر المتمثل في تطبيق الديمقراطية.

على ضوء هذه المقاومة الثابتة يجب ان ننظر الى اهم ادعاءات المحافظين، وتحديدا اصرار محافظي القرن العشرين على انهم، هم بالذات، اكثر المدافعين عن الديمقراطية غيرة. وما مكنهم من مواصلة هذا الادعاء هو المعنى الضيق الذي اعطوه للديمقراطية، فهم يعرّفونها على انها التنافس بين النخب السياسية من اجل الوصول الى السلطة عن طريق الحصول على التأييد الشعبي في الانتخابات القائمة على التنافس.

في كتاب ''الرأسمالية، الاشتراكية والديمقراطية'' الذي نُشر لأول مرة في الولايات المتحدة عام 1942 والذي قُدّر له ان يؤثر تأثيرا هاما على النقاشات اللاحقة حول معنى الديمقراطية، عرّف المفكر الاقتصادي جوزيف شومبيتر Jiseph Schumpeter الديمقراطية على انها ''ترتيبات مؤسساتية للتوصل الى قرارات سياسية يحصل الافراد من خلالها على سلطة اتخاذ القرار عن طريق المشاركة في انتخابات قائمة على التنافس''. وقد اعتبر أي شيء ابعد من ذلك في سبيل صناعة القرار الشعبي، خطيرا وغير مرغوب، وأيّد وجهة النظر هذه عدد كبير من منظري الديمقراطية في سنوات الخمسينات وما بعدها. ويمكن ان نضيف الى ذلك عددا من الحقوق السياسية والمدنية والمعروفة تقليديا بارتباطها بالليبرالية وما اكتنف تلك الحقوق من تقييدات.

على كل حال، اذا اعتبرنا ان الديمقراطية تمنح ''الناس العاديين'' سلطة حقيقية في جميع مجالات الحياة التي تهمهم، فإن فكرة كون المجتمعات الرأسمالية ديمقراطيا تنتمي الى اساطير السياسة، وليس الى واقع هذه المجتمعات. فالديمقراطية الرأسمالية تعني وجود صيغ ديمقراطية تجعل الضغط النفسي على السلطة والدولة ممكنا، كما تجعل اقالة الشخصيات المنتخبة بما فيها اقالة الحكومة نفسها، ممكنا أيضا، وليس هدفنا الاقلال من ذلك. كما ان الديمقراطية الرأسمالية تمكّن بالفعل من انتخاب حكومات تنشد الاصلاحات الجذرية.

في الكثير من بلدان العالم صيغ شكلية للديمقراطية، ولكن الاجراءات والممارسات التي تقتضيها الممارسة الديمقراطية فيها تحولت الى خدعة، حيث نجد تزوير الانتخابات وإرهاب المعارضة. فانتخابات كهذه تنتمي الى حقل العلاقات العامة، وتقام أصلا من اجل الحصول على مساندة

الولايات المتحدة لاشتراط هذه الأخيرة على البلدان التي تطلب المساعدات ان "تمارس الديمقراطية". مع ذلك يعد التحول من الديكتاتوريات الى انظمة "ديمقراطية" تحسنا يستحق الترحيب ولكن يبقى هذا التحسن محدودا حيث لا تؤثر التغيرات السياسية في النظام كإجراء الانتخابات كثيرا او مطلقا على النظام الاجتماعي الجائر، وهي لا ترمي، ذلك اصلا. أما في الأماكن ذات التاريخ الطويل في تطبيق الديمقراطية، حيث تتمتع الرأسمالية بتأييد عدد كبير من الناس، فيمكن للأساليب الديمقراطية ان تكون اكثر أهمية. ولا بد من الإشارة الى ان الانتخابات إذ تؤدي، أحيانا كثيرة الى تغيير كبير في السياسة وتقود أحيانا الى تغيير موظفي الإدارة ايضا، فإن انعكاس كل ذلك على السياسة العامة هو عادة أضعف بكثير مما تدعيه الأحزاب السياسية في حملاتها الانتخابية. ويلاحظ البروفسور ادمون مورغان ان المشاركة في الحياة السياسية التي كانت الانتخابات في أمريكا تتيحها قبل استقلالها انما كانت "صمام امان"، أي انها فسحة تتيح للمستضعَفين الشعور، بعض الوقت، بأن لديهم سلطة هم عادة محرومون منها، سلطة نصفها سراب، فهي طقوس لإعطاء الشرعية، أي حق العامة بتجديد موافقتهم على حكومة الأقلية". ويمكن قول الشيء نفسه عن الانتخابات في الولايات المتحدة حاليا وفي ديمقراطيات رأسمالية أخرى ايضا، مع إضافة ان الانتخابات قد تتمكن أحيانا من إحداث تغييرات فعلية.

ويجب ان لا ننسى حقيقة أخرى حول الرأسمالية تقوض ادعاءها بالديمقراطية، لأن "الحرية الاقتصادية" تمكّن المتحكمين بالنفوذ الاقتصادي للشركات من اتخاذ قرارات هامة جدا تخص الحياة المحلية، الإقليمية والوطنية. ويكون لهذه القرارات تأثيرات عالمية كبيرة أيضا، ذلك دون الرجوع الى الجماهير التي تنعكس عليها هذه القرارات. وهذا يعني مثلا ان تندمج الشركة مع أخرى فيجد العمال انفسهم يعملون لدى رب عمل جديد دون ان يكون لهم أي رأي حول هذا الاندماج. ويسري ذلك على جميع المجالات التي تتحكم بها سلطة الشركات. ففيما يخص القرارات الهامة، نرى ان استشارة العمال المأجورين تبقى في حدها الأدنى، هذا اذا ما حدث أصلا.

ان ذوي النفوذ الاقتصادي ملزمون ان يعملوا ضمن الضوابط التي تحددها سلطة الدولة، كما ان عليهم الاهتمام الى حد ما بالآراء الخارجية، ما جعل العلاقات العامة صنعة مزدهرة. ولكن هذه الشروط التي تخضع إليها القوى الاقتصادية، متساهلة جدا بحيث تترك متسعا للمناورة والاستقلالية لأناس عليهم، بحكم مواقعهم، ان يهتموا بالدرجة الاولى بجني اكبر الارباح لشركاتهم، واي همّ آخر لا يشغل سوى مساحة ثانوية في قراراتهم. وما يجعل هذا الامر أسوأ هو نمو الشركات المتعددة الجنسيات بحيث ان اهتمامها محدود بالمدينة او الاقليم او البلد حيث تعمل.

لا تملك الديمقراطية حق الدخول الى قاعة اجتماعات مجالس ادارات الشركات، وليس لها حضور يذكر في عملية الانتاج بشكل عام. ان "مشاركة" العمال في عملية الإنتاج تعدّ مسألة أساسية. ولكن هذه المشاركة لا تغير الطبيعة التسلطية لعلاقات الإنتاج في البلدان الرأسمالية، فهي تقوم على حماية امتيازات الإدارة واستخدامها لتلك الامتيازات. بكلمة أخرى، هناك أقلية صغيرة من الناس تسيطر على جانب حياتي واسع يهم الجميع، وهذه

الأقلية لا تخضع الى المساءلة إلا بقدر ما يسمح القانون بذلك، فهي ليست مسؤولة امام احد سوى أصحاب الأسهم. أما أصحاب الأسهم فسعداء في الغالب بترك المبادرة للإدارة شرط الحفاظ على الأرباح الكافية.

لا بد من الإشارة الى صفة أخرى من صفات الديمقراطية الرأسمالية، وهي ان الحقوق التي تنادي بها مهددة دوما بالتآكل ان لم نقل بالإلغاء الكلي. ويمكن لأصحاب النفوذ في المجتمعات الطبقية التي تستوطن فيها الصراعات، ان تضايقهم هذه الحقوق لأنها معوقة لغاياتهم، فيحاولون تقليص مضامينها ومداها، خاصة عندما تزداد حدّة الصراعات الطبقية. أكثر الأمثلة على ذلك وضوحا هي القيود الصارمة التي يخضع لها حق الإضراب في الديمقراطيات الرأسمالية. فلهذه الأنظمة الرأسمالية جانب تسلطي قوي موازٍ للصيغ الديمقراطية ومتساوقٍ معها تقريباً، ولكنه في صراع دائم معها. كما يجد هذا الجانب التسلطي انعكاساته العملية في الحياة اليومية: في الجمود البيروقراطي الذي يتعامل به المتلقون للمعونات الحكومية، في طريقة التعامل مع العمال الاجانب، في ممارسات البوليس الفظة وإنكار المسؤولين والقضاة لهذه الممارسات او تبرئة أصحابها، في الظروف الرديئة لحياة السجون في غالبية هذه البلدان، وما إلى ذلك.

يمكننا القول ان الديمقراطيات الرأسمالية اقل الأنظمة التسلطية قسوة، ولكن حقيقة كون سجلات الديمقراطيات الرأسمالية فيما يخص الحقوق المدنية والسياسية أفضل من سجلات الانظمة التسلطية، يجب ان لا تنسينا المظالم التي تشكل جزءاً من الحياة اليومية لكثير من الناس الأشد فقرا في هذه المجتمعات. يمكن للمرء ان يهز كتفه بلا مبالاة قائلا ان ما يعزى الى النظام الاجتماعي الرأسمالي من صفات يصح بالنسبة الى أي نظام اجتماعي آخر، وان اكثر ما يمكننا ان نطمح إليه هو تخفيف الشرور الفادحة الجلية. اما الاشتراكيون فلا يقبلون بهذا ويعتقدون ان من الممكن، في الظروف المناسبة، تحقيق ماهو افضل من ذلك بكثير.

*** (الثقافة الجديدة)، العدد 278، أيلول – تشرين أول 1997، ص 13 - 17**

نصوص مترجمة

هل تحتاج نظرية الفاشية إلى تجديد؟

أليكس ديميروفيتش*
ترجمة: حازم كويي

نحن نشهد اليوم موجة فاشية عالمية. فما الذي تشترك فيه هذه الموجة مع تلك التي ظهرت في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين؟ وكيف يمكننا فهم الطابع الجديد لهذا التطور؟

قد يبدو طرح السؤال بهذه الطريقة منحازاً بعض الشئ، إذ إنه يفترض ـ في ضوء التطورات الاجتماعية والسياسية الأخيرة ـ الإجابة مسبقاً: نعم، نحن بصدد فاشية،وعلى الأرجح لا تقتضي الحاجة إلى تجديد النظرية فقط بسبب التحولات التاريخية، بل أيضاً بفعل التغيرات البنيوية داخل نمط الإنتاج الرأسمالي نفسه.

في النقاشات السابقة داخل أوساط اليسار والحركة المناهضة للفاشية، كانت التوقعات من النظرية كبيرة.

كان يُعتقد أن الفاشية لا يمكن منعها أو وقفها إلا إذا جرى فهمها نظرياً.من كلارا زيتكن وإغناسيو سيلونه، مروراً بليو تروتسكي وبيرتولد بريشت، وصولاً إلى تيودور دبليو. أدورنو، شهدنا محاولات جادة لصياغة نظرية تشرح الديناميكيات السلطوية والفاشية التي تنشأ داخل المجتمع الرأسمالي.

وفي سبعينيات القرن العشرين، كان من الممكن القول إن صعود اليمين يعود بدرجة كبيرة إلى نقص في إنتاج النظرية داخل اليسار،ذلك لأنّ هذه النظرية كانت ـ إلى حد بعيد ـ ذات طابع اقتصادوي ضيق.

لكن كل تلك النظريات والدراسات الواسعة حول البنية الاجتماعية، وكتل رأس المال، والناخبين وسلوك التصويت، والوضع الاجتماعي للعمال أو القاعدة الانتخابية، والأخلاق الجنسية، وتنظيم اليمين وأيديولوجياته، لم تتمكن من منع صعود القوى السلطوية.

كيف ينبغي لنا إذن أن نفهم هذا النجاح لسياسة معادية للديمقراطية، باردة، وعنصرية اجتماعياً؟

في الواقع، هذه الظواهر قد تجاوزت كل النظريات ـ إن لم تكن قد دحضتها، فإنها على الأقل أفرغتها من فاعليتها.

وهي تشير إلى حالة من الارتباك والعجز داخل الطيفين الديمقراطي والاشتراكي.

فإذا لم تكن النظريات خاطئة، فإن نجاح اليمين السلطوي يشير إلى أن المشكلة ليست في صحة النظرية بحد ذاتها.

لقد قدمت النظريات النقدية- المادية للفاشية والسلطوية رؤى مهمة جداً.لكن مع ذلك، هناك شيء ما ناقص أو غير كافٍ: إذ إن هذه النظريات لا تمنع القوى المهيمنة (البرجوازية، الحاكِمون، النخب) من تنظيم سيطرتهم بهذا الشكل،كما أنها لا تمسك بالجماهير (المقهورين، الكتل الشعبية، الشعب، البروليتاريا) بما يكفي لتحويلهم إلى قوة مقاومة مستمرة وبديلة.

ربما كانت التوقعات المرتبطة بهذه النظريات أكبر من اللازم أو حتى خاطئة من الأساس.

مع أن الموقف الذي اتخذته نظريات الفاشية النقدية لم يكن ـ في الغالب ـ عقلانياً صرفاً.

لم يكن الأمر يتعلق بتنوير بسيط بالمعنى الإنساني للكلمة،ولا بنداء إلى العقل أو إلى القيم البرجوازية مثل الحرية والمساواة أو الديمقراطية،ولم يكن مجرد الإشارة إلى "الحقائق" كافياً.

لقد كان بإمكان الحركة المناهضة للفاشية أن تستند إلى "قوة البنادق" لدى قوات الحلفاء المنتصرة وحركات المقاومة،وأن تؤمن بأن التمرد السلطوي للفاشية قد جرى سحقه عسكرياً.

فالديمقراطية لم تكن ـ ولا تزال ـ ضعيفة.وقد تمثّل التعامل مع الفاشية والنزعات اليمينية المتطرفة والسلطوية في جهود التنوير بالإشارة التالية:

انظروا ماذا ستكون العواقب:الدمار، الفقر، الجوع، تدمير التعليم، الأحكام المسبقة والعنصرية، العنف والقتل.

أما الفاشية اليوم، فقد تعلمت من هزيمتها التاريخية.إنها تسعى إلى النصر على المدى البعيد، لكنها مستعدة أيضاً لقبول فناء البشرية.

ومن خلال استراتيجية ميتاسياسية (أي تتجاوز السياسة المباشرة) تسعى الفاشية إلى إضعاف أو تدمير القوى التي قد تكون قادرة على الدفاع عن الديمقراطية وتقف في وجه القبول بالعدمية.

سأقوم فيما يلي بطرح حجة تقوم على ما يلي: أولاً، أن من المفيد التفكير في تجديد نظرية الفاشية؛ثانياً، أن هذا التجديد وحده لا يكفي؛وثالثاً، أن الوضع الراهن لا ينبغي اعتباره فاشيةً بالمعنى الدقيق.

الفاشية اليوم قومية متحالفة عبر الحدود

هناك على الأقل جانب واحد ذو أهمية يمكن من خلاله مقارنة الموجة الحالية بالموجة الفاشية في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين: وهو تصاعد القوى المعادية للديمقراطية.

وقد ساهمت التطورات في عدة دول، بوتيرة مختلفة، في ذلك منذ فترة طويلة.

لكن هذه التطورات لا تحدث بشكل معزول:فهناك أحزاب قومية وسلطوية- شعبوية يلتقي ممثلوها، ووسائل إعلام يمينية محافظة، ودوائر فكرية تتبادل التأثير،إضافة إلى جماعات نازية جديدة مسلحة جزئياً تنشط في عدة دول وتتعاون فيما بينها،ومشهد

ثقافي يشمل الموسيقى والملابس ودور النشر والمجلات.
إن الاستراتيجيات اليمينية والفاعلين اليمينيين - وبعضهم فاعلون نازيّون جُدد أو فاشيون جُدد - يعززون بعضهم البعض،ويتواصلون مع قوى داخل الكنائس، والدوائر الحكومية،والإعلام، أو حتى في الجريمة المنظمة،ويجدون في تلك الدوائر تعاطفاً ودعماً وهم يعملون على إضعاف الحدود بين النشاط المؤسسي القانوني، والمجتمع المدني، والعمل السري.
الديناميكية السلطوية لا يمكن تفسيرها فقط من خلال الوضع الاجتماعي لشريحة من السكان، أو التطورات السياسية، أو أنشطة الأحزاب اليمينية داخل دولة قومية بعينها.
بل إن هناك تطابقاً برامجياً واضحاً بين الأحزاب اليمينية، على الرغم من نزعتها القومية المعلنة.
نشهد تنسيقات، وتحالفات، وتعاوناً، ودعماً متبادلاً، وزيارات ومؤتمرات مشتركة.
أحدث مثال على ذلك هو الانتقاد الذي وُجِّه للحكم القضائي ضد مارين لوبان، التي استغلت أموال الاتحاد الأوروبي لحساب حزبها حين كانت نائبة في البرلمان الأوروبي.
فبُعيد صدور الحكم، أدلى أوربان وميلوني وترامب بتصريحات علنية ينتقدون فيها هذا الحكم السياسي المزعوم. وهذا بمثابة فضيحة متعددة الأوجه:
تدخل حكومات أجنبية في السلطة القضائية لدولة أخرى، تجاهل تام للقانون الفرنسي،دعم سياسي واضح لسياسات سلطوية، في حين لا تُوجَّه انتقادات مماثلة لحكومات أخرى مثل التركية أو الروسية.
وقد تكرر الأمر نفسه عندما أعلن جهاز حماية الدستور الألماني (الاستخبارات الداخلية) أن حزب البديل من أجل ألمانيا (AfD) يمثل تطرفاً يمينياً مؤكداً.حينها، تحدث ممثلون عن الحكومة الأمريكية عن "استبداد في ألمانيا".
وهذا يشبه أسلوب الدعاية النازية، حيث يجري قلب الأدوار بين الجلادين والضحايا، والمضطهِدين والمضطَهَدين.
ونشهد مشهداً غير متوقع:
جزء من النخب الحاكمة يقوم بتجريح جذري لأجهزة السلطة نفسها - الإعلام، القضاء، الشرطة - ويرفض شرعيتها.
لا بد أن تكون هناك أسباب عميقة لهذه العمليات المتزامنة.
وهذه الأسباب لا تكمن في أنشطة الجماعات القومية اليمينية أو السلطوية،ولا في الآراء الشائعة التي ترصدها استطلاعات الرأي،ولا في الفقر الاجتماعي وحده.بل هناك نزعة سلطوية عابرة للحدود،تحظى بدعم قوى مؤثرة داخل البرجوازية.
بعض تلك المجموعات قد لا ترغب صراحة في حكومات يمينية، أو أنها تقف منها موقفاً متردداً،مثل جيف بيزوس أو إيلون ماسك بعد عام 2017، أو الموقف المتحفظ لاتحادات رجال الأعمال الألمان من حزب البديل (AfD).
لكن يُحتمل أنهم ينجرفون هم أنفسهم في ديناميكية سلطوية،تتحول تدريجياً إلى علاقة قسرية يصعب الفكاك منها.
لقد غرقوا في خطاب عدائي بشكل متزايد:
ضد النوع الاجتماعي (الجندر)، ضد "الصواب السياسي"، ضد ما يُسمى بسياسات الهوية،
ضد عبء دولة الرفاه، وضد البيروقراطية.
ومن شعارات مثل "الأجانب إلى الخارج" التي رُفعت في حزب (الديمقراطي المسيحي

الألماني CDU))،ومن التآكل المستمر لقانون اللجوء،ومن ادعاءات مثل "الإسلام لا ينتمي إلى ألمانيا"،ينبثق الطلب الصريح على الترحيل الحازم،ومنع الهجرة بشكل قاطع.

وحقيقة أن شخصيات مثل وولفغانغ شويبله، وكريستيان فولف، أو هورست زيهوفر(سياسيون محافظون ألمان.المترجم) تراجعوا عن تصريحاتهم العنصرية بعد ترك مناصبهم،ولم تعد لها أهمية تُذكر.

فنحن بصدد قوى يمينية حاضرة باستمرار داخل وسائل الإعلام،وفي الأحزاب المحافظة،وفي الجمعيات.هؤلاء يُمارسون هذه السياسة، أو يتبنون ديناميكيتها بوعي،ويعملون بها بشكل استراتيجي،ويتّخذون مواقف حاسمة ضد ما يعتبرونه تردّداً ونفاقاً من الأحزاب الحاكمة. إنهم يُرَكّزون ويُرَسّخون مواقف شائعة أصلاً داخل ما يسمى بـ"الوسط الديمقراطي"

لنأخذ مثلاً: (ساركوزي"فرنسا"، كورتس"النمسا"، زيهوفر،و شّبان"المانيا"). وبسبب وجود تردّد داخل الأوساط البرجوازية ـ في الأحزاب، والإعلام، والكنائس ـ بشأن المدى الذي يمكن الذهاب إليه،وحول التنازلات الممكنة،وبسبب الصراعات السياسية والاستراتيجية حول ما يجب كبحه أو فتحه،تنشأ عمليات تطرف وانشقاق بين أفراد ومجموعات.

وهذا ما حدث مع حزب البديل من أجل ألمانيا (AfD) ،الذي نشأ من ليبراليي السوق ومن كوادر يمينية داخل الحزب الديمقراطي المسيحيCDU.

أحياناً يُطلِق بعض الفاعلين في الأحزاب اليمينية على أنفسهم صراحةً صفة"الفاشيين"، ويستندون إلى نماذج تاريخية مثل هتلر، و"قوات الإس إس" و"قوات العاصفة إس إيه"

(مثل شعار "كل شيء من أجل ..." ـ كما يقوم بهAfD))، يعبرون بوضوح عن عدائهم لليهود،ويُنكرون الهولوكوست،ويقومون باقتلاع أحجار الرصيف التذكارية(حجر ينقش بإسم الشخص الذي أغتيل من قبل النازية أمام الدار الذي كان ساكناً فيه.المترجم)،ويخربون مواقع الذكرى، أو يدنسون المقابر اليهودية ـ ثم، بعد لحظات فقط، يهددون خصومهم بأنهم سيفعلون بهم ما ينكرونه هم أنفسهم،مثل التهديد بالقول: "من عُلّق معهم، يُعدم معهم" غالباً لا يكون الأمر بهذا الوضوح،بل يتم التلميح فقط إلى نوع من التعاطف أوالاستمرارية مع الفاشية التاريخية .لكن سرعان ما يتم التراجع عن هذه التلميحات.

ويُبرَّر الأمر بخطاب مراجعة تاريخية، أو بتقليل من الخطورة،أو يُدّعى أنه سوء فهم لا أكثر.

ومع ذلك، هناك أيضاً جهود واضحة للتبرؤ من الماضي الفاشي أو النازي.

فالأحزاب الشعبوية السلطوية تطرد أعضاءها الذين يبدون مواقف معادية للسامية أو يصرّحون بتأييدهم للنازية.ويميل ممثلو هذه الأحزاب إلى زيارة إسرائيل،ويبحثون عن التقارب مع الحكومات والسياسيين الإسرائيليين اليمينيين.

العلاقة مع اليهود علاقة ملتبسة.فترامب، على سبيل المثال، يحارب المؤسسات الأكاديمية باسم مكافحة معاداة السامية في الجامعات الأمريكية،لكن وقاحته تتجلّى في أنه يصف النازيين الجدد في شارلوتسفيل ـ الذين أعلنوا أنهم لن يسمحوا لليهود باستبدالهم ـ بأنهم "وطنيون طيبون"،ويمنح عفواً لليمينيين المتطرفين.

الدينامية الفاشية في الولايات المتحدة

يشير هذا إلى مشكلة التسمية: كيف يمكن تسمية هذه القوى وهذه التطورات؟

هناك العديد من المحاولات النقدية ـ وغالباً المتضاربة ـ لإعطاء هذه الظواهر اسماً مناسباً:الشعبوية، القومية، الشعبوية السلطوية، التطرف اليميني، الفاشية، السلطوية، المحافظة المتطرفة،الليبرالية المتأخرة أو ما بعد الليبرالية، الفاشية المتأخرة أو ما بعد الفاشية، الفاشية الدقيقة أو الفاشية الانفصامية، القومية السلطوية اليمينية.

بعد ما جرى خلال الأسابيع الأولى من رئاسة ترامب،بات بعض المفكرين في الولايات المتحدة يتحدثون ببساطة ووضوح عن فاشية.

لقد حدث انقلاب إداري ودستوري بفعل أنشطة وزارة العدل (DOJ) وجِهات تنفيذية،أُقيل على إثره العديد من الموظفين الحكوميين بشكل فوري.

تعرّض أشخاص للاعتقال والترحيل بطرق أشبه بممارسات الشرطة السرية.

لم تُحترم الإجراءات القضائية،بل تجاهلت الحكومة أحكام المحاكم العليا.تعرضت وسائل الإعلام للإقصاء،ورُفعت ضدها دعاوى قضائية هدفها ترهيبها مالياً وقانونياً.

مكاتب المحاماة التي تمثل منتقدي الحكومة فقدت عملاءها أو أصبحت هي نفسها معرضة للملاحقة.

حرية البحث العلمي في الجامعات ومراكز الأبحاث تُنتَهك بشكل منهجي.وتُوجَّه التهديدات للسياسيين.

هذا الانقلاب الإداري يترافق مع أزمة سياسية ودستورية،إذ لا توجد مؤسسة سياسية تُطبّق الحقوق أو تحترم قرارات المحاكم،ولا توجد وسيلة للمتضررين لمراجعة تصرفات الدولة أمام القضاء.

ومع ذلك: فإن اللجوء إلى مصطلح الفاشية يخلق صورة تاريخية خاطئة.

الفاشية كانت تسمية ذاتية،وُظفت لوصف شكل معين من العنف، والتعبئة الجماهيرية، وفهم الدولة.

غالباً ما استند اليسار في تفسيره لها إلى نظرية ماركس عن البونابرتية.وقد ربط هذا اليسار في عشرينيات القرن الماضي بخيال تاريخي(مثل دعم مجموعة كبيرة من الفلاحين المعزولين)،مما حال دون التعرف بشكل كافٍ على واقع النازية:

تحطيم الحركة العمالية،والتعبئة الدائمة للجماهير الكبيرة،وتوحيد المجتمع عبر الزي الرسمي،وإنشاء ميليشيات شبه عسكرية وجيوش سرية للشرطة.

كان الكثيرون يعتقدون أن هتلر لن يظل طويلاً في السلطة،وأن الجماهير ستدرك أن وعد الاشتراكية لن يُنفذ.كان يُتوقع الحرب، والانتصارات العسكرية السريعة،والغزو ونهب

أجزاء كبيرة من أوروبا،لكن لم يكن يُتوقع السياسة العنصرية للإبادة،وهي سياسة تسببت أيضاً في تدمير ذاتي لألمانيا والنمسا.

بسبب حكم النازية، كان اليسار يتبنى بسرعة تقديراً بأن هناك عودة للفاشية أو فاشية جديدة في التظاهرات خلال السبعينيات ضد حرب فيتنام، الانقلاب في تشيلي، أو الإمبريالية الأمريكية، لم يكن من غير المألوف أن يهتف المشاركون بشعارات مثل "USA-SA-SS".

أيضاً، توسع وتسلح قوات الشرطة،وهيمنة أجهزة القضاء في السبعينيات،والعديد من الهجمات اليمينية في إيطاليا،والوظيفة

المعادية للشيوعية للنشاطات السرية للناتو ضد الجماعات اليسارية أو المنظمات غير الحكومية،كل ذلك دعا إلى الحديث عن "فاشية" ودولة سلطوية.
كانت هناك مثل هذه الاتجاهات، لكنها لم تتبلور في شكل جديد لحكم استثنائي.
من المفاجئ أنه في بلد مثل الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يوجد دستور ديمقراطي منذ أكثر من مئتي عام، والديمقراطية البرلمانية متجذرة إلى حد ما ومستقرة في الظروف الاجتماعية، ويتم فيه تداول السلطة بشكل منتظم، تنشأ ديناميكية فاشية تحظى بدعم شريحة واسعة من السكان.
هذا يعني أن المحاولات التي تفسر نجاح النازية في عشرينيات القرن الماضي بضعف ترسيخ المؤسسات الديمقراطية في المجتمع الألماني، أو بقلة معرفة السكان بالعادات الديمقراطية وقلة خبرتهم بالديمقراطية، تبدو غير مقنعة إلى حد كبير.
كما أن الخبرة الطويلة والمجتمع المدني النشط لا يوفران حماية واضحة من ذلك.
وربمايكون الأمر عكس ذلك تماماً،فالتناقضات التي يعيشها السياسيون داخل المؤسسات الديمقراطية تُعتبر بالنسبة لهم نفاقاً.
كما أن تمسكهم بالقواعد الديمقراطية يحول دون تصور أن ممارسات سلطوية يمكن أن تنشأ من داخل الديمقراطية ومن خلالها.
التطورات الفاشية لا تعتمد بالأساس على الآراء أو المواقف السائدة في أوساط السكان.
في الأربعينيات، جادل ممثلو النظرية النقدية، بناءاً على تجارب شخصية، بأن معاداة السامية كانت أكثر انتشاراً في مواقف سكان الولايات المتحدة مما كانت عليه في ألمانيا قبل عام 1933.

بالنسبة للنظرية النقدية، كانت هذه الفكرة ذات أهمية كبيرة من الناحية الاجتماعية للسلطة.
فالآراء السائدة بين الجماهير لا تسمح بالتنبؤ بالتطور السياسي لأي بلد.
ما يهم فعلاً هو ما يريده الحكام أو الطبقة الحاكمة.
هم من يخلقون، من خلال الضغوط الاقتصادية، والتهديد، والعنف، والبروباغندا، والكذب، جواً من الطاعة والتوافق،بحيث ينضم الكثير من الناس إلى الجماعة السلطوية ويصبحون جزءاً منها.وأبحاث الرأي العام تؤيد هذه الفكرة.

أنا أفكر إذن في إتجاه مختلف

فنحن لا نتعامل مع ظواهر جديدة تماماً، ولا مع تكرار تاريخي بحت.فأنماط السياسة الاستبدادية وممارسات السلطة تمثل اتجاهاً طويل الأمد، وهي جزء جوهري من أسلوب الإنتاج الرأسمالي ومن عمليات تشكيل المجتمع البرجوازي.
وفي هذا السياق، أتبع فكرة ماركس التي طرحها في الجزء الثالث من كتاب رأس المال.ما كان يحاول تحديده هو "المعدل المثالي" لأسلوب الإنتاج الرأسمالي.
ماركس اقترح في نظريته التركيز على القوانين الإحصائية والانتظامات لفهم التغيرات المستمرة، والاضطرابات، والأزمات، والتحولات الثورية الذاتية في تكوين المجتمع البرجوازي.
لا شئ يبقى ثابتاً أو متطابقاً بالكامل،لكن بعض الممارسات تعود بشكل منتظم، في شكل متطابق ومتغير في آنٍ واحد.
وهذا لا يشمل فقطً العمليات الاقتصادية وتقلباتها، التي تؤدي بقدر معين من الاحتمالية

إلى فائض ونقص في الإنتاج، وإلى وفرة وندرة في قوة العمل، وإلى الفقر والغنى في الوقت نفسه، وإلى النزاع بين الحرية الاقتصادية والتجارية الحمائية (المركانتيلية).
كان ماركس في أبحاثه غير متأكد تماماً من الظواهر التي يجب أن تُحسب ضمن المعدل المثالي لأسلوب الإنتاج الرأسمالي،لكنه أخذ في الاعتبار خاصية الحداثة في المجتمع البرجوازي:فالأسلوب الرأسمالي هو الوحيد الذي يتميز بتوزيعات إحصائية، وإنتظامات، وإحتمالات، ومتوسطات،وذلك مرتبط بشكل أساسي بتحديد القيمة من خلال العمل المجرد، الذي هو نتاج التبادل السوقي للأعمال المفيدة الملموسة.
هذا التفكير يشمل أيضاً الدولة الرأسمالية والاستراتيجيات السياسية المختلفة للسلطة البرجوازية.
في تحليلاته، توصل ماركس إلى نتيجة مفادها أن الجمهورية البرلمانية هي في "المعدل المثالي" الشكل الطبيعي للدولة البرجوازية الرأسمالية.
وهذا "المعدل المثالي" يعني أنه في الواقع، تم تنظيم السلطة البرجوازية بطرق مختلفة وغالباً في أشكال غير دولة: مثل المدن، والسلطات الإقطاعية-النبلاء، والإمبراطوريات،أو تم ممارستها في أشكال استبدادية: الملكية، الدكتاتورية الاستعمارية، الديكتاتورية العسكرية، البونابرتية، الفاشية.
تشكّلت السلطة البرجوازية منذ نهاية القرن الخامس عشر،وفي هذه الصراعات ضد الفلاحين الذين كانوا يرغبون في التخلص من الإقطاع والكنيسة الكاثوليكية، لعبت أشكال الحكم الاستبدادي دوراً مهماً، مثل:إبادة حركة تحرير الفلاحين وحركات المدن،الإصلاح المضاد (المقاوم للإصلاح الديني)،سحق الحركات الشعبية للاستيلاء على ملكية الأراضي الزراعية،المستعادة بعد الثورة الفرنسية مع ممثلين فكريين مثل دي ميستر وبونالد أو أجزاء من الرومانسية الألمانية،محاربة الحركة العمالية الناشئة،الثورة المضادة الكاثوليكية بعد عام 1848 مع ممثل مثل دونوسو كورتيز،وظهور معاداة السامية،وبعد الحرب العالمية الأولى جاءت الفاشية والنازية.
كانت هذه جهوداً واستراتيجيات للحفاظ على السلطة وإعادة إنتاجها على مراحل متصاعدة، أي ليس فقط محاربة الحركات الشعبية بعد ظهورها،بل العمل بشكل مضاد للثورة وبشكل وقائي،حتى لا تنشأ مقاومة أو احتجاجات أو حركات اجتماعية أصلاً.
وبذلك أعادت السلطة تنظيم نفسها على أساس احتمال نشوء المقاومة والحركات الشعبية.
لقد نظمت العمليات السلطوية البرجوازية نفسها بشكل خاص مع حركة اجتماعية شاملة وجديدة تاريخياً، وهي حركة العمال، التي لم تكتفِ فقط بتنظيم مستمر وواسع النطاق جغرافياً، بل طورت أيضاً معرفة علمانية حول العلاقات الاجتماعية الواقعية، ووضعت خططاً ملموسة لبديل للعالم البرجوازي وطريقة العيش فيه.
هذا أجبر الطبقة البرجوازية على تبني الواقعية، أي التوجه نحو البُعد الملموس للعلاقات الاجتماعية، وتطوير معرفة، عن السلطة والنضالات،وكذلك على بناء آليات وقائية (Préventivdispositiven) لضمان الأمن والنظام، ولمراقبة الأحداث الاجتماعية ومدى تأثيرها على العادات الثابتة والأنماط المستقرة.

لذلك كانت الفاشية ممارسة مضادة للثورة.
وليس الهدف الأساسي فيها فرض مصالح فصيل برجوازي مُحدد، كما اقترح ديميتروف، الذي رأى الفاشية كديكتاتورية إرهابية صريحة لأشد عناصر رأس المال المالي رجعية وشوفينية وإمبريالية.
لكن مع غرامشي وبولانتزاس، يمكن تفسير الفاشية كنتيجة لأزمة شاملة في تكتل السلطة البرجوازي،أزمة اقتصادية، أزمة هيمنة، أزمة سياسية، وأخيراً أزمة الدولة،أي عملية زعزعة توازنات التوافق السابقة بين القوى الاجتماعية.حتى لو لم تكن لحركة العمال أية آفاق للنجاح الثوري،كان البرجوازيون محبطين، يشعرون بالتهديد، وغير متأكدين من كيفية التعامل مع مشكلات إعادة إنتاج المجتمع الرأسمالي وحلها.
كان لا بد من منع حركة الاشتراكيين والشيوعيين من تنظيم أنفسهم بما يُمكنهم من تقويض السياسة الوطنية والعسكرية من الداخل،وتغيير علاقات الإنتاج،وتأميم الإنتاج الاجتماعي وإعادة إنتاجه.
شكّلت الفاشية التاريخية في إيطاليا، وأكثر في ألمانيا، مجموعة متكاملة من الممارسات السلطوية التي طوّرتها السلطة البرجوازية على مدى قرون.
كانت الفاشية شكلاً جديداً من العنف السلطوي-الدولتي غير المعروف من قبل.
لقد دمجت الفاشية الصناعة الحديثة، ووسائل الاتصال، والقانون، والعلوم، والتطورات التكنولوجية،لكي تفرض السيطرة على جماهير ضخمة، وتديرها، وتضطهدها، وتبيدها على أساس معايير عنصرية.
كانت الوقاية تستهدف قمع كل انحراف على مستوى الحياة البيولوجية بحيث تسود فقط "طبيعية" عنصرية نقية ومجتمع شعبي متجانس.
وشمل ذلك إبادة الماركسية وحركة العمال، واليهود في أوروبا، والسلاف، والسنتي والروما، والمثليين، والمعوقين،أي كل من لا يتناسب مع صورة "العرق المتفوق" الذي تمت تربيته.
حتى وإن كان هناك أحياناً أعتراض على تحديد الفاشية من خلال نوع من قائمة تحقُق، أجد أنه من المفيد تحديد مجموعة من الخصائص التي تميز الشكل الفاشي من الحكم السلطوي. من بين هذه الخصائص: الاستعداد للعنف كممارسة يومية وعشوائية للسلطة، الاحتقار النخبوي للجماهير، الجماعة الوطنية ورفض الفرد الحر، العدمية والتشاؤم الفلسفي التاريخي (انحطاط الثقافة)،الشعبوية والقيادة التي تصور نفسها كمقاومة، وذلك لاستخدام الجماهير المُحشدة لفرض مصالح الحكام، القومية، المحافظة، العنصرية ومعاداة السامية، التمييز الجنسي، وكراهية النساء ومعاداة الأقليات الجنسية، رفض الديمقراطية، رفض التحضر والمثقفين والعقلانية العلمية.
كانت الفاشية محاولة في المجتمع البرجوازي للبحث عن اللحظات الجوهرية للمعارضة والانحراف بالقوة العلمية والشرطة والقضاء عليها، مقرونة بالاعتقاد الهَوسي بأن أي ممارسة للاختلاف أو وجهة نظر بديلة يجب القضاء عليها نهائياً. كان الهدف تحقيق نصر نهائي وتدمير مطلق للعدو. بالمقابل، أظهرت الهزيمة العسكرية على يد قوات الحلفاء بقيادة الولايات المتحدة أن ممارسة الحكم البرجوازي عبر الديمقراطية، والانتظامات الإحصائية المفتوحة، والمسارات الطبيعية غير المستقرة أكثر نجاحاً. لقد تم دحض الاعتقاد الهَوسي

بتفوق الألمان، العرق الآري. ولكن في شكل عنصرية أسرية، والاعتقاد بالاختيار الخاص والتفوق العائلي، والاعتقاد بمعرفة الحقيقة حول الجنس والاقتصاد ورفاهية الولايات المتحدة، يظهر هذا الخيال مجدداً على المسرح السياسي مع ترامب وماسك. وهما يمنحان أنظمة أخرى، رغم أنها قومية وعنصرية، لكنها تفتقر إلى مثل هذه القوة، الدعم لتوسيع مصالحها واستغلال الآخرين.

اتخذت الفاشية شكل حكم استثنائي. كانت بمثابة تكثيف لكل تلك اللحظات السلطوية. وفي نهايته وقعت جرائم مروعة من قتل عدد كبير من الناس، والإبادة الجماعية، والدمار، وتحركات سكانية في أوروبا، وتفكك الإمبراطوريات الاستعمارية، مما أدى إلى زعزعة اليقين في تفوق الأوروبيين الإثني. عندما يُتحدث عن الفاشية، يُقصد في كثير من الأحيان هذا النوع من النهاية في الدينامية الاجتماعية، أي الحكم الشمولي والتبعات المدمرة. لذلك، كانت الإشارة إلى الطابع الفاشي أو المعادي للسامية لقناعات أو تصريحات أو أفعال عامة بمثابة خط سياسي-أخلاقي يرسم حداً. فقد كانت تكفي الإشارة إلى الدلالات المعادية للسامية في تصريح سياسي لفرض اعتذار أو استقالة أو تغيير في السلوك. لأن أغلبية الطبقة البرجوازية، بعد تجربتها للعنف العنصري المفرط والقضاء على الديمقراطية، كانت تتراجع عن كل محاولات إعادة تجربة حكم استبدادي على شكل فاشي. لم تكن البرجوازية ضد تطبيق ممارسات سلطوية، لكنها لم تكن تريد أن تُعرض نظام الحكم نفسه للخطر، أو أن تؤدي إلى دمار غير مسبوق، وهزائم، واضطرابات في التوازنات ومسارات إعادة التطبيع. هذا الأمر تغير في السنوات الأخيرة بسبب الاستراتيجية الميتا- سياسية للتيار اليميني. فهم لا ينكرون الهولوكوست، لكن يمكنهم تخفيف أهميته، والعمل على الغموض، أو التراجع عن الإيحاءات، أو الاعتراف بسخرية: "إذن أنا فاشي." تفقد الحجج التنويرية تأثيرها. ويظهر ضغط متزايد لتجربة أشكال جديدة من الحكم السلطوي والعمل بها.

النظر في الدينامية

عندما أجادل بأن الفاشية التاريخية كحكم استثنائي تتكون من مجموعة من الممارسات،فإنني أستخلص من ذلك أنه لا يجب بالضرورة أن يكون هناك هذا المصير النهائي. أتصور الأمر كنوع من المنشور: كل العناصر السلطوية موجودة. في الصراعات الاجتماعية وتوازن القوى، يمكن لكل ممارسة أيديولوجية وسياسية محددة أن تتقدم إلى الأمام: المحافظة السياسية والاقتصادية، معاداة الجندر، الشعبوية السلطوية، العنصرية، معاداة السامية، الدولة المركزية، الفاشية (المتميزة هنا، كما يقترح أدورنو وسكوراتي، بالعنف والدعاية). يمكن لأحد هذه اللحظات أن يلقي على جميع الآخرين لوناً معيناً ويهيمن عليهم.

لا يجب أن تتكثف هذه اللحظات ديناميكياً إلى شكل حكم استثنائي فاشي بحيث تصبح الفاشية هي الجانب السائد. يمكنها أن تتصلب مع أشكال الديمقراطية القائمة، وتتكامل فيها، وتخترقها. قد يظل هناك برلمان، أحزاب، جمهور إعلامي، دستور، قوانين، ومحاكم. لكن هذه المؤسسات الرسمية وممثليها تتعرض للانقسام وتتحول إلى حقل قوى مفتوح ومشحون بالأزمات: يصبح القضاة،

والمُدَّعون العامون، والشرطة جزءاً من شبكات فاشية، ويتواصل الصحفيون والكتاب تدريجياً بشكل عضوي مع اليمين ويصبحون ناطقين باسمه.

وفي الوقت نفسه، يُلاحظ أن القضاة والسياسيين والعلماء والصحفيين وأفراد عائلاتهم يتعرضون للإهانة، والتهديدات القانونية والجسدية، والهجوم، وأحياناً حتى القتل. تستمر هذه العملية بشكل مستمر، وتتعرّض المؤسسات والأفراد غالباً لهجمات فردية، وتبدو هذه الهجمات مُهدِدة، مُدمِرة، ومُحبِطة، لأنه لاتوجد رؤية حل واضحة.

الشرطة والنيابات لا تستطيع فعل الكثير حسب القانون القائم، أو قد لا ترغب في فعل شئ. يتبين أن النموذج القضائي في مواجهة التهديد والعنف الفاشي (أكثر بكثير من حالة الجريمة المنظمة) غير صالح. حتى التعبئة الواسعة ضد اليمين بالكاد تستطيع منع الإرهاب ضد أفراد محددين، والتهديدات، والإهانات.

بدلاً من الحديث عن الفاشية كمفهوم ثابت، قد يكون من المفيد النظر إلى العملية الديناميكية للفاشية أو ''الفاشية المتصاعدة''. ولكن ماذا يعني هذا بالضبط؟ يشير ذلك إلى ديناميكية خطيرة، لكنها لا ينبغي أن تُفهم كعملية هادفة أو نهائية ينتهي بها المطاف إلى الفاشية الكاملة. بل يجب التفكير في التشكيلات التي تضم تلك اللحظات التي ذُكرت سابقاً.

العناصر الفاشية هي لحظات موجودة باستمرار ضمن جهاز السلطة البرجوازي (مثل العنصرية، مجموعات النازيين الجدد، المراجعة التاريخية، عبادةالعسكر)، لكنها تبرز فقط بشكل ظرفي مؤقت، وتضفي على باقي الأوضاع السلطوية هالة خاصة.

إذا كانت ''الفاشية المُتصاعدة'' هي لحظة مهمة في السياق الراهن، لكنها لا تتحول حتماً إلى حكم استثنائي فاشي، فهنا يطرح السؤال عن تحديد الشكل الفعلي للحكم السائد.

في مكان آخر، طالبتُ باستخدام مصطلح الشعبوية السلطوية لوصف هذا النوع من الحكم. وكان الأساس لهذه الممارسة الحكمية هو إحباط أجزاء مهمة من الطبقة البرجوازية بعد الأزمة المالية، وظهور موجة كبيرة من حركات الاحتجاج. كان يُتوقع أن تؤدي هذه الدينامية إلى التوصل إلى ''الصفقة الخضراء الجديدة'' (Green New Deal). ولكن الأزمة المتعددة الأوجه استمرت وتفاقمت.

في العديد من الجوانب، تم تجاوز نقاط التحول الحاسمة: ذوبان الأنهار الجليدية والغطاء الجليدي في القطب الشمالي، ارتفاع حرارة البحار وتدمير السواحل، انبعاثات عالية من ثاني أكسيد الكربون والميثان، انقراض الأنواع، التلوث بالميكروبلاستيك والنانو بلاستيك، فقدان المياه الجوفية، الجفاف وتآكل التربة، وحركات نزوح جماعية كبيرة.

أدى نقص الموارد والطاقة، خاصة مع الاستخدام المتزايد للذكاء الاصطناعي، إلى تهديد أمن البنى التحتية والاستعداد العسكري، بينما أصبح الفضاء العميق والمحيطات مناطق صراع سياسية وعسكرية جديدة.

التحول الضروري الذي يجب أن يبدأ فوراً لا يدر أرباحاً كافية مقارنة بالاستثمارات، كما أنه يمثل بداية لعملية تُبعد عن علاقات الملكية والإنتاج الرأسمالية. فالتحديات الناجمة عن التناقض بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج كبيرة جداً

يجب أن يكون هناك جدية في التخلي عن تراكم رأس المال على مستويات متزايدة، وإعادة هيكلة أو حتى إيقاف قطاعات إنتاج كاملة،

وتطوير أنماط استهلاك جديدة، والتغلب على الاعتماد على الطاقة الأحفورية، وتحقيق توازنات اقتصادية عالمية جديدة.
الطبقة البرجوازية العابرة للقوميات لا تنكر هذه المشاكل، فهي على وعي بالتحديات.
تشهد النقاشات في الاجتماعات السنوية للمنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس على ذلك. لكن هناك جهداً يُبذل لمكافحة المعرفة وظهور ممارسات جديدة مناسبة لها. فلا يجب أن تصبح المعرفة قابلة للتطبيق العملي، ولا يجب أن تتبع السياسة الرؤية العلمية.
للاختباء من المعرفة، يجب أن يجعلوا أنفسهم جهلاء، ويغلقوا آفاق العمل، ويردوا بنوع من اللامبالاة المستمرة: سيارات أكثر وأكبر وأفخم، تسليح أكثر وذكياً، استعادة أشكال الأسر التقليدية والممارسات الجنسية، تدمير مراكز الأبحاث والجامعات ـ كأنما لا وجود لكل هذه المعارف من بحوث نظم الأرض، ودراسات الجندر، أو بحوث العنصرية النقدية.
ويتضمن ذلك أن يسيطروا على الكوارث الحالية أو المقبلة وممارسات التضامن التي تنشأ عنها، ويرفضوا تحذيرات الجيش أو شركات التأمين: لن يكون الأمر سيئاً إلى هذا الحد، كانت مجرد أحداث فردية.
بعبارة أخرى: تعزيز اللحظات الفاشية هو محاولة لمنع التحول الاجتماعي- البيئي. المجتمع البرجوازي لا يريد أن يعرف شيئاً عن الوحوش التي خلقها، ويأمل أن يكبح أو يمنع تدفقات التواصل والممارسات المعارضة عبر قمع العلوم (”الجامعات كعدو“)، ومضايقة وسائل الإعلام، والتحكم والسيطرة على وسائل التواصل الاجتماعي.

إقطاعية أجهزة الدولة

تحدد طبيعة الاستحقاق الاقتصادي شكل الحكم الاستبدادي. وهذا ما يميز التشكيلة الراهنة عن أشكال الحكم الاستثنائي السابقة. فالذين يسيطرون على السلطة في الدولة ليسوا موظفين يمثلون طبقة البرجوازية وقواها المختلفة، بل هم أنفسهم من الطبقة الحاكمة مباشرة. هم رجال أعمال يسعون لتحقيق مصالح أوليغارشية.
يحدث إقطاعية في أجهزة الدولة: تداخل السلطة، تغطية أو إلغاء الهياكل الهرمية. ويمكن أن يصل هذا إلى سلوكيات إقطاعية جديدة تُلاحظ عند شخصيات مثل ترامب، بوتين أو أردوغان.
قد يُسهّل أو يُعقّد وصول ممثلي مصالح رأس المال الأخرى، لأنهم الآن يواجهون نظراء لهم، وليس أشخاصاً ملزمين بالقوانين (مثل المساواة أمام القانون) ومدربين عليها.
تُعاد هيكلة وسائل الإعلام العامة ويتم حجب بعضها جزئياً (رفض الصحف، محاربة البث العام، ملاحقة الصحفيين)، كما تُقلص أهمية بعض منظمات المجتمع المدني بشكل كبير، ويقل تأثير المعرفة العلمية.
يبدو أن الاستبداديين يشككون في أجهزة الدولة، في هيكليتها، وفي موظفيها. فهم يخترقون الدولة ويعيدون تشكيلها جزئياً، ويستبدلون قياداتها بأوليغارشيين، أصدقاء، وأفراد عائلاتهم.
تتداخل المؤسسات الديمقراطية مع القيادة الاستبدادية، تبقى البرلمانات والأحزاب وحقوق التصويت، لكنها تُعيد تنظيمها بحيث تحافظ مجموعة واحدة على السلطة باستمرار، ويصبح تبديل المسؤولين في مراكز اتخاذ القرار صعباً للغاية، ويتحول الأمر إلى

تمثيلات شبه أسرية.
تشير التطورات في الولايات المتحدة إلى أن أجهزة الدولة يمكن تقليصها بشكل كبير، أو قد تُستخدم منظمات خارجية مثل "DOGE" لجعل بعض أجهزة الدولة (مثل الوزارات الاجتماعية، الخارجية، التعليم، مؤسسات البحث، الجامعات، وسائل الإعلام) غير فعالة أو لتدميرها.
ربما تمارس هذه السلطة الاستبدادية مزيجاً من أشكال الحكم البرجوازي المختلفة. بالإضافة إلى الديمقراطية التمثيلية، قد تشمل شكل الدولة الشمولية، أو شكل تفكيك الدولة الحر في صورة مدن بحرية((Seasteads، مدن ميثاقية (Charter Cities)، أو مناطق التجارة الحرة والمناطق الاقتصادية الخاصة.

الدفاع عن الإنجازات التحررية

تواجه القوى اليسارية تحديات من نوع جديد. فالواقع أن الحضارة، وكذلك ترتيبات السلطة التي سادت لعقود بل ربما لقرون، أصبحت موضع تساؤل. ينطبق هذا أولاً على الاضطرابات البيئية التي تمس يقينيات استمرت لآلاف السنين ـ وبالتالي أيضاً على تصورات النظام التي كانت تعتقد أنها تستند إلى معطيات طبيعية مستقرة.
ومع إدراك أن "قوانين الطبيعة" تظهر في عصر الأنثروبوسين كحقائق إنسانية وتاريخية، يُصاب أحد المحاور الأيديولوجية الأساسية للبرجوازية في الصميم: أي اللجوء إلى "طبيعة" الأوضاع الاجتماعية لتبريرها. فالدولة القومية، والهيئات القضائية، وآليات الديمقراطية البرجوازية، ووسائل الإعلام، والفضاء العام البرجوازي ـ وهي جميعها باتت مُنهكة أصلاً بسبب عمليات العولمة ـ وأصبحت الآن تحت ضغط شديد.
أما الجوانب التقدمية التي أمكن تحقيقها منذ ستينيات القرن الماضي ـ أحياناً في تحالف مع ما يُسمى بـ"النيوليبرالية التقدمية" ـ فهي تتعرض لهجوم شديد من اليمين، يصل إلى حد فرض رقابة لغوية. ومن هنا، يتوجب على اليسار أن يدافع عن هذه المكاسب التحررية، وألا يَسمح بإضعاف نفسه من خلال تبني الفكرة التي تروج لها القوى المحافظة والسلطوية، والتي تزعم أن هناك تعارضاً بين التوجهات الاجتماعية وتلك المرتبطة بالهوية. لقد كانت هذه المكاسب، ولا تزال، إستباقاً لحضارة جديدة، يصبح فيها الاختلاف عن الآخر ممكناً دون خوف، وتصبح الحياة في حرية، وفي انسجام مع الطبيعة، أمراً متاحاً.
الدولة الوطنية، المؤسسات القانونية، الإجراءات الديمقراطية البرجوازية، وسائل الإعلام والجمهور البرجوازي ـ التي تعرضت بالفعل للتآكل بفعل العولمة ـ جميعها تحت ضغط شديد.

هناك حاجة لممارسات تضامنية جديدة

لأن الاتجاهات الكارثية ستستمر: حرائق الغابات، الفيضانات، الجفاف، نقص الإمدادات بسبب اضطرابات في النقل. يتعرض الناس، وممتلكاتهم، والبُنى التحتية للتهديد. الدول لا تقدم المساعدة الكافية، والتأمينات تتنصل من التزاماتها. هناك حاجة إلى إرادة عامة جديدة تدفع التجديدات البيئية إلى الأمام وتنظم التضامن في حالات الطوارئ البيئية.
أثناء حكومة الائتلاف «إشارة المرور» بين الحزب الأجتماعي الديمقراطي، الخضر، والحزب الديمقراطي الحر، تعرض ممثلو الحزب الاجتماعي الديمقراطي والخضر

لانتقادات كثيرة ووُصفوا أحياناً بأنهم أسوأ حكومة شهدتها ألمانيا. هذا كان إستقطاباً خاطئاً، لأن العديد من المشاريع كانت مهمة، وإن لم تكن كاملة الصواب، مثل التحول إلى التنقل الكهربائي، وقف دعم الديزل أو بدائل التنقل، حظر استخدام المبيدات مثل الغليفوسات، قانون التدفئة، وزيادة أسعار انبعاثات ثاني أكسيد الكربون.

كانت المشكلة في التنفيذ غير الكافي والفرصوية في التقييم، وفي الحقيقة أن المجتمع لم يتم تحفيزه لدعم تحولات اجتماعية- بيئية مناسبة.

في الوضع الحالي، حيث تهدد الحكومة الائتلافية الصغيرة الكبيرة بالتسليح، الخدمة العسكرية الإلزامية، وتقليص أنظمة الضمان الاجتماعي، ومع وجود لحظات تشبه الفاشية تتجه نحو حكم استبدادي، يجب التفكير في تحالفات ديمقراطية جديدة.

هناك حاجة إلى قطب اشتراكي. القوى التي تدعم هذا القطب تحتاج إلى موقف واضح. لكن من المهم أيضاً تطوير رؤية للتحالفات.

نظراً لقوة الديناميات الاستبدادية، من الحكمة ألا تُبنى هذه التحالفات على الانتماءات التنظيمية أو الحدود الحزبية.

نقطة البداية يمكن أن تكون (دون تكرار خاطئ للزمن) أفكار حركة الجبهة الشعبية، كما طورها فيلي مونزينبيرغ في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين.

مثل هذه السياسة لا يمكن أن تنجح إلا إذا استوفت مطالب الديمقراطية في علاقات الشركاء في التحالف ومشاركة الأفراد.

أليكس ديميروفيتش*

فيلسوف وعالم اجتماعي. درّس في جامعات فرانكفورت وبرلين، وهو عضو في مجلس إدارة مؤسسة روزا لوكسمبورغ، وأحد المؤسسين لهذه المجلة.

المصدر:

Alex Demirovic, '' Braucht Es Eine Erneuerung Der Faschismus-theorie?", Luxemburg, no. 2, 2025.

الحياة المزدوجة لجيمس بيكر

المبعوث الرئاسي لبوش ومصالحه الخاصة في ديون العراق البغيضة*

نعومي كلاين**

ترجمة: الدكتور شاكر موسى عيسى***

عندما عيّن بوش وزير الخارجية السابق جيمس بيكر مبعوثا رئاسيا له في 5 كانون الأول 2003، سمى وظيفة بيكر بـ "المهمة النبيلة". ولكن مع الاهتمام الكبير والقلق فيما إذا كانت تعاملات وعلاقات بيكر الواسعة في الشرق الأوسط تتعارض مع هذه المهمة أم لا! اذ انه سيقابل رؤساء الدول ويطلب منهم إعفاء ديون العراق. والمثير للقلق والاهتمام هذا، هو في واقع ارتباطاته بالبنوك التجارية ومقاولي وزارة الدفاع وأبرزهم مجموعة كارليل، حيث هو مستشار كبير فيها وشريك مساهم له حصة في حوالي 180 مليون دولار في هذه المجموعة.

وحتى الوقت الحاضر ليست هناك من أدلة مؤكدة في انقسام ولائه أو أن نفوذه كمبعوث رئاسي – وظيفة بدون أجر – قد استخدمت لمنفعة أي من شركاته والعاملين فيها. لكن وفقا لوثائق حصلت عليها الوطن يثبت ما قد حصل هذا بالتأكيد. ان مجموعة كارليل عملت لضمان الحصول على استثمارات غير اعتيادية بقيمة واحد مليار دولار من الحكومة الكويتية، باستخدام نفوذ بيكر مبعوثا عن الديون كوسيط أساسي.

إن الصفقة السرية تتضمن معاملات معقدة لتحويل ملكية ما مقداره 57 مليار دولار امريكي من ديون العراق غير المدفوعة.

هذه الديون ستعود ملكيتها للحكومة الكويتية، يتم وضعها في صندوق يتم خلقه ويخضع لإشراف "اتحاد" مؤسسات مالية (كونسورتيوم) يكون الدور الرئيسي فيه لمجموعة كارليل، ومجموعة أولبرايت ترأسها وزيرة الخارجية السابقة مادلين أولبرايت وشركات عديدة أخرى ذات صلة بهذه المجموعات.

وفقا لهذه الصفقة، فإن حكومة الكويت سوف تعطي "الاتحاد" 2 مليار دولار مقدما لاستثمارها في صندوق خاص يشرف عليه "الاتحاد"، ونصفه يكون من نصيب كارليل. ان "الوطن" حصلت على نسخة من خمس وستين 65 صفحة سرية بعنوان "مقترح لمساعدة الحكومة الكويتية لحماية وتحقيق مطالباتها من العراق".

أرسل هذا في كانون الثاني/ يناير من "الاتحاد" إلى وزارة الخارجية الكويتية، مع رسائل متبادلة بين الطرفين. في رسالة مؤرخة في 6 يناير 2004 أبلغ "الاتحاد" وزارة الخارجية من ان الديون غير المدفوعة للبلاد من العراق هي معرضة لخطر داهم وشيك. إذ أن الرأي العام العالمي يميل لصالح إعفاء الديون، ورسالة أخرى تحذر من دور بيكر كمبعوث للتفاوض لإعفاء الديون العراقية. هذا وقد اعطى "الاتحاد" تفصيلا للتهديد المحتمل: من أن الكويت من غير المحتمل أن ترى أي مبلغ من الـ 30 م د أ من العراق كديون سيادية، لكن الـ 27 مليار دولار امريكي كتعويضات عن الحرب والتي يدين بها العراق للكويت "يمكن ان تكون ضحية للجهود الأمريكية لإعفاء الديون".

وفي ظل هذا التهديد، فإن "الاتحاد" يعرض هنا خدماته. وان قائمة من كبار المسؤولين السياسيين الامريكان والاوروبيين لهم علاقات وئام شخصية مع حاملي الأسهم في المفاوضات المتوقعة القادمة، وقادرين "على الوصول الى اهم متخذي القرارات في الأمم المتحدة والعواصم الرئيسية الكبرى" هذا ما بيّنه المقترح. وإذا ما وافقت الكويت على تحويل الديون إلى صندوق "الاتحاد"، فإنه سيستخدم هذه الوساطات لدفع قادة دول العالم على إجبار العراق لتعظيم مدفوعات ديونه للكويت، والتي من الممكن أن يحصل على الأموال خلال 10 أو 15 سنة. وكلما حقق "الاتحاد" في الحصول على أموال أكثر يدفعها العراق خلال هذه الفترة كلما حصل الكويت على الكثير، مع أخذ "الاتحاد" عمولة بنسبة 5% أو أكثر.

ومع تضارب تعظيم مدفوعات الديون مع السياسة الامريكية لتخفيف عبء الديون، تقول كاثلين كلارك أستاذة القانون في جامعة واشنطن والخبيرة المعروفة في سلوكيات الحكومة والأنظمة، ان هذا يمثل "تضارب تقليدي للمصالح" بوجود بيكر في كلا الجانبين من هذه الصفقة، وأطلقت عليه حالة استثنائية غير مألوفة. وقالت ان "كارليل والشركات الأخرى استغلوا وظيفة بيكر الحالية لتحقيق صفقة مع الكويت تضر بمصالح الحكومة الامريكية". كذلك اطلعت "الوطن" جيروم ليفنسن، المحامي الدولي والخبير في انشطة الفساد السياسي والتجاري في الجامعة الامريكية، على هذه الوثيقة، التي عدّها "واحدة من أعظم عمليات الغش والخداع في كل زمان".

"الاتحاد" يقول للحكومة الكويتية، من خلالنا فقط تتاح لكم الفرصة للحصول على معظم ديونكم. لماذا؟ لأننا نحن هنا، ونحن من

يعرف مع من يتعامل. أن نفوذ "الاتحاد" قوي مثل النجاح في ركوب نوع من أمواج عالية.

في الوثيقة السرية كان "الاتحاد" على دراية تامة بحساسية دور بيكر كشريك لكارليل ومبعوث للديون. ومباشرة بعد نشر قائمة بأسماء اللاعبين الكبار مع كارليل – تشمل الرئيس السابق جورج بوش، جون ميجور رئيس الوزراء البريطاني السابق، مادلين اولبرايت بمن فيهم بيكر نفسه – بينت الوثيقة بالنص "إن المدى الذي يمكن أن يلعبه هؤلاء الأفراد بدور في صياغة استراتيجيات أصبح الآن أكثر تحديدا. بسبب التعيين الأخير لبيكر كمندوب رئاسي حول الديون وللحاجة لتجنب تضارب واضح للمصالح".

وتواصل الوثيقة تبيين أن هذا الوضع سوف يتغير قريبا جدا، "نعتقد أنه مع تقاعد بيكر من وظيفته المؤقتة، فإن كارليل وأولئك الأفراد الرئيسيين المرتبطين مع كارليل سيكونون حينئذ أحرارا للعب دور حاسم في القضية".

قال نائب الرئيس والمتحدث باسم كارليل كريس اولمان انه "ليس لكارليل أو بيكر علاقة بكتابة او تحرير او اجازة هذه الوثيقة الى الحكومة الكويتية"، لكنه اعترف بأن كارليل على علم بمقترح قدم للحكومة الكويتية للحصول على استثمار بمليار دولار. "كنا على علم بذلك لكننا لم نلعب أي دور في تحصيل ذلك الاستثمار". وعندما سئل إذا ما كانت كارليل "راغبة في أخذ مليار دولار لكنها لم تحاول الحصول عليه!!" أجاب ولمان "صحيح".

في حينها كان العراق من أكثر دول العالم مديونية (200 م د أ) ولو فرض عليه دفع ¼ ربع هذه المطالبات، يبقى الدين ضعف حجم الناتج المحلي الإجمالي، وبذلك تضعف قدرته لإعادة البناء. "هذا الدين يضع مستقبل العراق في خطر من أجل تحقيق تحسين الوضع السياسي والرخاء الاقتصادي". هكذا قال بوش عند تعيينه لبيكر. النقاد عبروا عن قلقهم حول مدى ملاءمة بيكر واختياره لهذه الوظيفة: على سبيل المثال، السعودية من أكبر الدائنين للعراق: مجموعة كارليل لها أنشطة تجارية مع العائلة المالكة. كما أن شركة بيكر القانونية – والتي تدافع عنهم في القضية المرفوعة من عوائل ضحايا 11 سبتمبر، وتطالب بتعويضات بقيمة 1 واحد تريليون دولار. وقد نشرت نيويورك تايمز مقالا افتتاحيا في 12 ديسمبر/ كانون الأول تدعو بيكر للاستقالة من موقعه في كارليل وبوتس للحفاظ على نزاهة موقعه كمبعوث رئاسي.

رفض البيت الأبيض الدعوة هذه، وإن لبيكر حق الاختيار. "لم اقرأ هذا المقال الافتتاحي" هكذا أجاب بوش الصحفيين: "نحن محظوظون لأنه وافق على القيام بهذه المهمة... لكي يخدم أمريكا". كريس ألمان قال أيضا نيابة عن كارليل "أن بيكر بمهمته هذه ليس لها تأثير مهما كان على أنشطة كارليل".

في الواقع قبل عدة أشهر في 16 تموز/ يوليو 2003 حضرت كارليل اجتماعا على مستوى عال مع رسميين كويتيين في لندن، حول هذه الصفقة وفقا للوثيقة أعلاه. حيث طلب الكويتيون منهم تقديم مقترح تفصيلي ماليا، لضمان إسباغ الصفة النقدية على مطلوبات ديونهم من العراق. لكن في وقتها جرى تعيين بيكر للمهمة. ولم تقدم كارليل المسودة المطلوبة للكويت. ومع ذلك فإنهم إن

كانوا فعلا جادين فيما يقولون لقررت كارليل الانسحاب من المجموعة لتضارب المصالح، لكنها بقيت. وهنا برز اسم لهذه الشركة التي خلقها "الاتحاد" لإدارة الصفقة باعتبارها شركة اعمال وليست شركة لجماعة ضغط، كذلك كحلقة وصل "الاتحاد" مع الشركة في واشنطن والتي وقعت معهم كرائدة للاستراتيجيات السياسية ولمناصرة ودعم "الاتحاد".

ولم تكن كارليل صادقة في موقفها هذا، إذ قدم جون هاريس المدير العام والمشرف المالي لكارليل بيانا مكتوبا للبيت الأبيض من أن كارليل "ليس عندها أي مصلحة أو استثمار في الديون العامة والخاصة للعراق"، ولكنه لم يشر الى المفاوضات التي أجرتها كارليل من أشهر عديدة مع الكويت لمساعدته في الحصول على ديونه من العراق.

وفقا لكاثلين كلارك فيما إذا كان بيكر يتقيد أو يراعي التزامه بالتعليمات الإدارية والاجرامية للحكومة الاتحادية والتي تمنع الموظفين الحكوميين من المشاركة في معاملات لهم فيها مصلحة خاصة، بما فيها إن كان له صلة بشركة وتستخدم الموظف الرسمي. أن كارليل تستخدم وظيفة بيكر الحكومية لمنفعتها، وبالتالي على "كارليل والبيت الأبيض أن يظهروا نظافة أيديهم" تقول كلارك "هناك حاجة هائلة للشفافية هنا". طبعا لم يرد كل من البيت الأبيض او مكتب بيكر او يعلقوا على الموضوع.

ومع كل هذا وبعد تعيين بيكر، ظهر اسم بيكر بوضوح في الوثيقة "أن دور السيد بيكر الجديد وما يتبعه من جولات مفاوضات عالمية حول ديون العراق سيلقي الضوء على هذه "الأمور" ويعطيها بعدا هاما وعاجلا.

جاء ذلك في رسالة وقعتها مادلين أولبرايت مع كل من ديفيد هيوبنر – عضو "الاتحاد" وشاهمين شيخ. وبعد تعيينه وما قد ينجم عنها من "تهديد" لخسارة الكويت يواصل المقترح القول "من ان لدى الاتحاد" افرادا ذوي نفوذ عال في الحكومة الأمريكية وفي مجلس الأمن للأمم المتحدة.

في 21 كانون الثاني/ يناير 2004 حطّ بيكر في الكويت، قابل رئيس الوزراء ووزير الخارجية وغيرهما "وطالبهم" بإعفاء ديون العراق لمصلحة الأمن والسلم الإقليمي، وبنفس اليوم اختار فريق "الاتحاد" تسليم مقترحه إلى وزير الخارجية محمد صباح السالم الصباح – الذي قابله بيكر - "وخطاب إحالة موقعة من أولبرايت وهيوبنر وشيخ" - الذين علموا بمفاوضات بيكر - أنه إذا وافقت الكويت على عرض "الاتحاد" فإنهم سوف يميزوا مطالبات الكويت – قانونيا ومعنويا من الديون السيادية التي تطالب الولايات المتحدة الآن بإعفائها.

ما هذه الصدفة بنفس اليوم يطالب بيكر بالإعفاء، و"الاتحاد" يقدم عرضه للكويت !!!، ومن سيختار الكويتيون جيمس بيكر المبعوث الرئاسي او رجل الاعمال! احمد الفاضل "نائب" لرئيس الوزراء الكويتي أخبر "الوطن": "أنا رأيت "المقترح" وانا واع كليا لهذه المسالة" ولكن لما سئل عن دور بيكر المزدوج أجاب "انه من الصعب التعليق على هذه المسألة، خاصة في الوقت الحاضر، وآمل أن تفهموا ذلك جيدا". شاهمين شيخ رئيسة "الاتحاد" قالت عن التوقيت انها مصادفة "ليس لها علاقة بزيارة بيكر، كنت في المنطقة ورأيت أن أتوقف وأسلم المقترح وانا في طريقي إلى أوروبا".

وبعد ثلاثة أيام من عودة بيكر ادلى بتصريح لأول مرة حول الموضوع "ان وظيفتي تتعلق بديون العراق السيادية وليس بتعويضات الحرب، وردد ما قالته الحكومة الكويتية من أن التعويضات هي خارج مهمته باعتبارها تحت وصاية الأمم المتحدة ومجلس الامن. ان هذه التصريحات مثيرة للدهشة. لماذا لا توضع كل المطالبات على العراق موضعا للنقاش؟ فالكل يعلم ان التعويضات تمثل أكثر من نصف الديون الخارجية. ونفسه بيكر يقول إن أي "تخفيض للديون يجب ان يكون كبيرا، او الجزء الأعظم من الدين". والمركز الذي استضاف بيكر لإلقاء كلمته هو مركز الدراسات الاستراتيجية الدولية الذي قال "ان من غير المعقول عمل أي إعفاء للدين لا يشمل التعويضات".

ان تصريحات بيكر وصفقته على خلاف مع عدد آخرين من إدارة بوش بمن فيهم بريمر الذي قال "انه يرى الحاجة الماسة للنظر في كل مسألة الديون والتعويضات"، حيث قارن الحالة في العراق بألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى عندما فرضت لجنة التعويضات في سنة 1921 مبلغ 33 م د أ على جمهورية فايمار، وهذا ما ساهم الى حد كبير في عدم الاستقرار والاضطرابات في ألمانيا، وجاءت الانتخابات بأدولف هتلر إلى السلطة.

وتواصل دفع العراق للتعويضات عن غزو الكويت في 1990. وخلال الثمانية عشر شهرا منذ الغزو الأمريكي، دفع العراق 1.8 مليار دولار امريكي كتعويضات وهو أكثر مما وضع لميزانية الصحة والتعليم. وأغلب هذه المدفوعات ذهبت للكويت، والتي تحقق ستة من ميزانيتها فائضا. وحيث تصل القوة الشرائية للفرد الواحد 19,000 دولار، في حين يعيش المواطن العراقي بما يزيد قليلا عن 2 دولار يوميا.

وهذه الترتيبات تعود الى نهاية حرب الخليج الأولى. كشرط لوقف إطلاق النار وافق عليه صدام لتعويض كل الخسائر التي نجمت عن غزوه واحتلاله للكويت لسبعة أشهر. وبدأت المدفوعات في 1994 وتسارعت في 1996، مع بدء برنامج النفط مقابل الغذاء وفقا لقرار مجلس الأمن رقم 986 الذي خلق هذا البرنامج، حيث باستطاعة العراق تصدير النفط على أن تصرف العائدات على واردات الغذاء والدواء، وعلى ان تحول 30% من عائدات النفط الى لجنة التعويضات التابعة للأمم المتحدة (UNCC). وبعض التعويضات التي منحت كانت كبيرة جدا، مثل تنظيف سواحل الكويت والسعودية من النفط والحرائق، أو ما منح لشركة نفط الكويت بمبلغ 15.9 م د أ عن خسائر من عائدات النفط. والى حد ذلك دفعت اللجنة 18.6 م د أ (مليار دولار امريكي – المحرر) ومنحت 30 م د أ إضافي لم تدفع لعدم توفر أموال عراقية. وهناك أيضا 98 م د أ مطالبات لم يجر حسمها بعد، ولذلك فالأرقام تتصاعد بشكل مضطرد. ولهذا لا توجد تقديرات دقيقة عن التعويضات التي قد تصل الى 130 م د أ.

في 22 مايس/ أيار 2003 بعد شهرين من غزو العراق قرر مجلس الأمن تخفيض نسبة القطع من عائدات العراق النفطية الى 5 %. وفي مايس/ مايو الماضي كان هناك وفد عراقي يطالب بتخفيض أكثر في هذه النسبة. وكان هناك تعاطف كثير مع هذا المطلب. جوستين ألكسندر من اليوبيل العراقي قال "إن معظم هذه المطالبات أمام اللجنة مبالغ فيها وغير واقعية، وأن هذه من مسؤولية

صدام، وليس الشعب العراقي الذي عانى أكثر من غيره".

وهنا حيث يأتي دور "الاتحاد" لمجموعة كارليل/ اولبرايت. اذ جاء في مقدمة العقد المقترح من ان الديون غير المدفوعة للكويت ليست مشكلة مالية فحسب بل سياسية ومشكلة علاقات عامة كذلك. ان الرأي العام العالمي ليس بجانب ما تم وعد الكويت به من تعويضات كاملة، بل يركز العالم الآن على إعادة إعمار العراق وإعفائه من ديونه. وإذا ما أرادت الكويت الحصول على تعويضاتها، يبين خطاب الإحالة المشار إليه، أن عليها إعادة صياغة تعويضاتها ليس على أنها عبء على العراق بقدر ما هي "عنصر أساسي في العمل من أجل الاستقرار الإقليمي والمصالحة".

إن عدة أطراف في "الاتحاد" قد أكدوا أن المقترح يهتم او يعطي الأولوية فقط لديون التعويضات. إذ قال المتحدث باسم مجموعة أولبرايت، جيمس سميث (Jamie Smith) "لقد طلب منا المشاركة بهذا المقترح على أنه يضمن العدالة لضحايا غزو صدام للكويت، وللتأكد من أن التعويضات لضحايا الكويت – والتي دعمتها الحكومة الامريكية والأمم المتحدة - تستخدم لدعم عملية المصالحة بين البلدين، وتحسين الظروف البيئية ولتشجيع الاستثمار في الكويت والعراق والاقليم".

وفي الواقع، فإن المقترح لم يقيد نفسه بديون التعويضات. "فالاتحاد" طلب من حكومة الكويت اعطاءه إشرافا على 30 م د أ في شكل ديون سيادية متعثرة (defaulted sovereign debts) لأجل استخدامها كأداة للتأثير او للرفع السياسي (political leverage) لتأمين الحصول على مطالب التعويضات. إضافة إلى ذلك فإن أغلب الخبراء في إعادة هيكلة الديون يتفقون على أن ديون العراق يجب أن ينظر إليها ككل: إذ لا معنى من اعفاء الديون السيادية إذا ما كان سيربط بأعباء تعويضات خيالية لا يمكن تصورها. ومثل هذا الفهم انعكس في الوثائق، والى تكرر بيان ان مدفوعات تعويضات الكويت تكون في خطر في أي تحرك لإعفاء ديون العراق.

ولتجاوز مثل هذا التهديد هناك ثلاث استراتيجيات متشعبة اقترحت من قبل "الاتحاد": عمل لجماعة الضغط من وراء الكواليس، حملة علاقات عامة ذكية واستحداث عملية استثمار وتمويل خلاقة. وان "أي حل لدفع تعويضات غير متحققة يجب ان يكون ترويجها مقبولا سياسيا مثل توطيد ودعم الاستقرار والنمو في الخليج والعراق. ان هذا المقترح يقدم الاستراتيجية، التصميم الهيكلي والموهبة الذكية لتحقيق هذا الهدف". هذا ما تبينه الوثيقة. بعدها يقدم المقترح تفصيلا لعمل وتنفيذ الاستراتيجيات الثلاث المشار إليها كالاتي:

جماعة الضغط:

بما ان لجنة التعويضات التابعة للأمم المتحدة (UNCC) تقع تحت تصرف مجلس الأمن الذي يمكنه التصويت لتخفيض، ايقاف او الغاء التعويضات في أي وقت، فإن الجزء الذي يتعامل به المقترح هو بوساطة قوية مباشرة: إذ يطرح ويشير الى عمل موسع وهجومي لجماعة الضغط موجهة مباشرة إلى أعضاء مجلس الأمن باستخدام اتصالات مادلين اولبرايت ولكن أيضا اشخاص بارزين لهم صلة "بالاتحاد" مثل السناتور السابق غاري

هارت (Gary Hart) ومندوبة الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة جين كيركباتريك (Jeanne Kirkpatrick). "سوف نعمل أولا على ابقاء نسبة الـ 5% من عائدات النفط العراقي تخصص لتمويل مدفوعات ما تمنحه لجنة التعويضات" يقول المقترح نصا.

ولتحقيق هذا، سيقوم "الاتحاد" باتصالات سرية رصينة على مستوى عال في عواصم الدول الأعضاء في مجلس الأمن ومع المندوبين ذوي النفوذ" و"التدخل مع كبار موظفي الأمم المتحدة المسؤولين عن صياغة ما يقدم من مسودات لمجلس الأمن". وبين المقترح كذلك أن "ألمانيا ورومانيا سيكون لهم دور جوهري"، وان مجموعة أولبرايت لها علاقات وطيدة مع كل من هاتين الدولتين العضوين في مجلس الأمن حينذاك.

العلاقات العامة:

لقد كان لدى "الاتحاد" خطة تفصيلية لمواجهة المعرفة في فهم أن التعويضات تمثل "تحويل الموارد من عملية إعادة البناء في العراق الى جار أكثر ثراء". أولا، على الكويت أن يخصص ديونه غير المدفوعة من العراق الى صندوق يؤسس خاص يشرف عليه "الاتحاد".

والصندوق المؤسس يدير أموالا استثمارية لجزء من مدفوعات التعويضات من العراق إلى الكويت وإعادتها الى العراق!!!. وكمثال على أنواع الاستثمارات التي سيقوم بها الصندوق، كما اقترحت أولبرايت وهيوبنر وشيخ في الخطاب المقدم للكويت، أن أموال التعويضات يمكن استخدامها لشراء شركات القطاع العام العراقي. في المستقبل القريب 40 من مؤسسات القطاع العام العراقي في مختلف القطاعات سوف تتاح للبيع أو الإيجار الطويل الأمد او بعقود الإدارة، هكذا كتبوا في رسالتهم. ومن خلال برهنة ان الكويت سوف تستثمر جزءا مما تحصله من تعويضات سيعود بالفائدة على الاقتصاد العراقي، "فالصندوق المالي الذي سيديره "لاتحاد" "سوف يقدم أساس مبدأ إنساني إلى الولايات المتحدة والدول الأخرى لمواصلة دعمهم" للتعويضات. ومن الظاهر أن "الاتحاد" يرى أن عملية الخصخصة – والتي تعد بالنسبة للعراق مقترحا مثيرا للخلاف – هي جزء من المهمة الإنسانية لجهودهم.

كذلك يقترح استراتيجية لعلاقات عامة مباشرة. فهو يدعو الكويت الى تخصيص مليار دولار من التعويضات التي منحت إياه لجنة التعويضات الأممية الى "صندوق إحياء الظروف البيئية الكويتي، والذي سوف يخلقه "الاتحاد". و"الغرض من خلق هذا الصندوق لتذكير العالم بمدى خطورة ما ورثه الكويت من كارثة بيئية" وأيضا تقديم الكويت "كأنها المدافع الأول عن حماية البيئة". وهذا الصندوق سوف يرأسه كارول براونر (Carol Brawner) الرئيس السابق لوكالة حماية البيئة الأمريكية وأيضا مسؤول رئيسي في مجموعة أولبرايت.

الاستثمار/التمويل:

يتنبأ المقترح بأنه لوحدهم وعلى الرغم من تفعيل جماعة الضغط والعلاقات العامة فإن ذلك لن يكون كافيا لضمان حصول الكويت على ما تأمله من تعويضات. ولقيام "الاتحاد" بـ"تعظيم قيمة التعويضات للكويت"، على الكويت ان تضع على جانب، المزيد من التعويضات التي استلمتها ـ فبالإضافة إلى الـ

1 مليار ـ في صندوق البيئة، المقترح يدعو الى وضع 2 مليار من الدولارات لتستثمر في "صندوق خاص لأسهم رأسمالية شرق أوسطية". من هذين المليارين، مليار يستثمر من خلال اتفاقية خاصة، في "صندوق مجموعة كارليل المساهمة" لمدة تتراوح على الأقل بين 12 و15 سنة. وفي نهاية الفترة ستحصل الكويت على العائدات من هذا الاستثمار إضافة الى ما سوف يقدر "الاتحاد" الحصول عليه في تفاوضه من أجل مدفوعات لتعويضات أكثر.

بالنسبة "للاتحاد" انها صفقة مثالية: أعضاؤه يحصلون على إدارة ملياري دولار، ويجمعون رسوم الإدارة إضافة الى نسبة من الفوائد. كذلك تدفع لهم أتعاب (retainer) وقد يقصد بها اكرامية مع نسبة 5% من أي مبلغ ديون يحصل عليها "الاتحاد" للكويت، كذلك نسبة يتفق عليها على قيمة كل ما سيتجاوز ما سبق، وإن وعدوا به الكويت. ومن الأعضاء الآخرين في "الاتحاد" والذين سيشتركون في الحصول على المزايا المشار إليها: فيديليتي للاستثمارات (Fidelity Investments) .

بي ان بي باريباس (BNP Paribas) بنك أوربي متورط في فضيحة برنامج النفط مقابل الغذاء . جافني كلاين وشركاه (Gaffney, Cline & Associates) شركة للطاقة متخصصة في عمليات خصخصة مشروعات الغاز والنفط.

نيكسيجين للحلول المالية (NexGen Financial Solutions) شركة هندسة مالية تمتلك الحكومة الفرنسية حصة فيها. اميرجين ماركت بارترنارشيب (Emerging Markets Partnership) شركة تابعة للـ (AIG) يرأسها النائب السابق لرئيس البنك الدولي موين قرشي (Moeen Qureshi) .

بالإضافة الى المكاسب والارباح الاستثنائية، فإن الترتيبات المعدة ستعطي هذه المجموعة من الشركات الخاصة قوة وسلطة هائلة. فأي من يتحكم بديون العراق يكون له القدرة المؤثرة على السياسة في العراق خاصة في ظل التوترات السياسية الحادة. لكن بالنسبة لحكومة الكويت فإن هذه الصفقة المقترحة تكاد تكون محفوفة بالمخاطر. اذ ان من الصحيح كون مصير تعويضاتها من العراق يبدو كئيبا (looks grim). إذ يقدر "الاتحاد" ان الكويت لو حاولت بيع هذه الديون في السوق، فإن الـ 27 م د أ لا تثمن إلا بـ 1.5 م د أ فقط. لكن "الاتحاد" يطالب الكويت بالمخاطرة بـ 3 م د أ من التعويضات التي استلمها على امل استخدامها كرافعة مالية (Leverage) للبعض الباقي من مطالباتها. ومع ذلك فإن جيروم ليفينسون (Jerome Levinson) أشار إلى "انه ليس هناك من ضمانات حتى مثل ذلك".

إن من الواضح أن "الاتحاد" حريص جدا على توقيع صفقة مع الكويت. وان المديرة التنفيذية "للاتحاد" شاهمين شيخ قد كتبت انها قامت بـ 5 رحلات إلى الكويت خلال أربعة أشهر، وإن أولبرايت اجتمعت مع وزير الخارجية الكويتي في 4 نيسان/ أبريل 2004، وان كارول براونر (Carol Brawner) من مجموعة أولبرايت قد اشارت الى انها سلمت شخصيا نسخة "من المقترح إليه في فندقه عندما كان في واشنطن. ومع هذا فقد ظهر أن الكويت كان مترددا: إذ أخذ من الوقت أربعة أشهر للرد على المقترح برسالة مؤرخة في

10 آب/ أغسطس بالقول "من انه سوف يؤخذ المقترح بنظر الاعتبار جديا، وجاري الان دراسته من قبل السلطات المختصة". وتبعا لما قاله أحمد الفهد "ان القضية الان بيد نائب وزير الخارجية" والذي لم يكن متاحا لنا للتعليق. لكن سالم عبد الله الجابر الصباح السفير الكويتي في أمريكا قال "بقدر ما يتاح لي من معلومات حتى الآن، فإن حكومتي لم تقرر بعد الرد على هذا المقترح".

وحتى اذا لم تقر هذه الصفقة، فالحقيقة ان مجموعة كارليل ومجموعة اولبرايت كانت قد ارتبطت بمفاوضات حولها، ويمكن ان تكون قد أساءت الى جهود اعفاء ديون العراق، ومضرة بمصالح الولايات المتحدة والعراق. وكان ليفينسون قد أشار إلى أن إدارة بوش قد قدمت التزاما من ان عائدات النفط العراقية سوف توجه نحو إعادة الإعمار. وبهذا فإن الفشل في التعامل مع مسألة التعويضات يعني "ان جزءا من هذه الموارد قد تحول للكويت. ومن دفع ذلك؟ بالطبع إنه الشعب العراقي الذي استمر في دفع هذه التعويضات، وأن على دافعي الضرائب الأمريكيين الذين سيطلب منهم تحمل فاتورة إعادة الاعمار، لا أموال العراق التي ستوجه لدفع الديون.

يقول ليفينسون ان هذا لهو الامر الأكثر غرابة أو غير مألوف بسبب ان من شارك فيه "إنك تجد اثنين من وزراء الخارجية يظهر أنهما يقترحان استخدام اتصالاتهما والمعلومات الداخلية لإضعاف وتقويض سياسة الحكومة الأمريكية". بينما تقول كاثلين كلارك من جامعة واشنطن أن المقترح "قد كشف حقيقة كيف أن كبار المسؤولين الحكوميين يستخدمون نفوذهم من اجل جني او كسب أموال طائلة". إذ يمكن التأكيد من القول أن جيمس بيكر ومادلين أولبرايت كان لهما تأثير مباشر على مدفوعات العراق من الديون والتعويضات أكثر من أي سياسي خارج العراق، باستثناء ممكن وهما الرئيسان الأمريكيان الحادي والأربعون والثالث والأربعون.

وزير الخارجية، بيكر لعب دورا في مسيرة تجميع الديون الخارجية في المقام الأول، إذ تدخل شخصيا في 1989 لضمان حصول صدام حسين على قرض بـ 1 مليار دولار بمثابة ائتمان تصدير. وكان أيضا له دور رئيسي في التوجيه والتخطيط لحرب الخليج الأولى، وكذلك في وقف إطلاق النار الذي فرض على صدام دفع تعويضات شاملة. في مذكراته سنة 1995 "سياسة الدبلوماسية" كتب أنه بعد ما شاهد حرق آبار النفط في الكويت اتصل بالرئيس جورج بوش وقال له "على العراق أن يدفع ثمن ذلك". والآن من خلال "الاتحاد"، كارليل يمكن أن يكون مشرفا على إدارة مليار دولار من هذه المدفوعات.

وكذلك يثير دور مجموعة أولبرايت نفس تلك التساؤلات. كوزيرة خارجية وممثلة دائمة في الأمم المتحدة، مادلين أولبرايت ساهمت شخصيا في إعداد مسودة القرار 986 الذي خلق برنامج النفط مقابل الغذاء، وتحويل 30% من عائدات النفط تعويضات الحرب. حيث قالت في مقابلة مع جيم ليهر في برنامج الساعة الإخبارية "انه ليوم عظيم للولايات المتحدة لاننا كنا من كتب القرار 986 لمجلس الأمن". والآن وهي مواطنة عادية، فهي العضو الرئيس في "الاتحاد" الذي يستغل اتصالاته لتحقيق المكاسب من ذات التعويضات التي ساعدت في ضمانها.

كذلك فهي كانت وراء تنفيذ الحصار الجائر ضد العراق، والذي كان وراء تدهور حالة مؤسسات القطاع العام. والآن هي جزء من خطة لاستخدام مدفوعات التعويضات لشراء تلك المنشآت التي أدى حصارها الى إنهاك قدرتها واضعافها.

لكن وظيفة بيكر كمبعوث رئاسي هي التي تثير العديد من الأسئلة للبيت الأبيض، لان المبعوث الرئاسي الخاص هو بمثابة ممثل شخصي للرئيس، يقابل رؤساء الدول مكان الرئيس ويقدم له التقارير مباشرة. فإن كان لدى مبعوث الرئيس تضارب مصالح، فان هذا ينعكس مباشرة على المكتب الأعلى. تقول كلارك ''هناك وبشكل مطلق تضارب مصالح''. ان بيكر يرتبط بكيانين، الحكومة الأمريكية ومجموعة كارليل – ولا ارتباط بينهما البعض.

كمبعوث، وظيفة بيكر لأن يعمل ما بوسعه لشطب ديون العراق، وبذلك يخفف الأعباء عن دافعي الضرائب الأمريكان. لكن كرجل اعمال، فهو شريك مالي في شركة هي طرف في صفقة تحقق عكس النتيجة. فان نجح بيكر المبعوث، بيكر رجل الاعمال سيكون خاسرا وبالعكس.

هل أثر تضارب المصالح هذا في أدائه كمبعوث؟ وهل دفع بقوة أكبر مما يستطيع لإعفاء ديون العراق؟ اننا نعلم ان التعويضات الثقيلة التي فرضت على العراق كانت قد نجت بشكل كبير من المساءلة والتدقيق العام – لو أن بيكر قد وجه إدارة بوش بعيدا عن مسألة التعويضات، لمن كان يعمل حينذاك؟ للبيت الأبيض؟ أو لكارليل؟ تقول كلارك إن مثل هذه الأسئلة هي التي بالتأكيد من كان وراء وجود التعليمات والضوابط عن تضارب المصالح. ''لدينا السبب للشك في أن بيكر كان قد عمل كل ما بوسعه للعمل نيابة عن الولايات المتحدة لأنه كان له مصالح في الجانب الآخر من الصفقة.

إن هذه المسألة هي الأكثر إلحاحا، في الملف الذي سلمه الرئيس بوش لبيكر، حيث يسودها الفوضى والتشويش. فبعد عشرة أشهر، نجد أن هناك حماسة واندفاعا أقل إزاء إعفاء ديون العراق من قبل وصول بيكر. عندما عينه بوش، صعد من قيمته ''بأنه من ذوي الخبرة الواسعة في الاقتصاد والسياسة والدبلوماسية''. وفي الأول، ظهر بيكر وكأنه يحقق تقدما كبيرا وسريعا: بعد اجتماعات عالية المستوى، فرنسا، روسيا وألمانيا كانت الأجواء مفتوحة على إلغاء جزء كبير من ديونها وأن السعودية والكويت أبدت جاهزيتها لتقوم بالمثل.

لكن المفاوضات لم تنهَر فحسب بل تراجعت للوراء. الكويت من جانبها قد تصلب موقفها ''الديون تبقى ديونا'' كما قال مؤخرا محمد صباح السالم الصباح وزير الخارجية. كما أنها ضاعفت من طلباتها عن تعويضات حرب الخليج، الى جانب السعودية، ايران، الأردن وسوريا للمطالبة بزيادة قدرها 82 م د أ كتعويض عن الأضرار البيئية.

وماذا عن الأوروبيين؟ في جلسة استماع بمجلس النواب الأمريكي يوم 15 أيلول/ سبتمبر، السيناتور جوزيف بايدن سأل رونالد سشيلجر نائب وزير الخارجية المساعد لشؤون العراق، حول ما وصلت إليه المفاوضات العالمية: ''هل هناك من دولة واحدة في جي 8 (الثمانية الكبار – المحرر)، قالت رسميا أو طلبت من برلماناتها إعفاء ديون العراق''؟ فأجاب سشيلجر ''لا سيدي

ليس لحد الان".

أليس ان بيكر فشل في إيصال التزام مؤكد لإعفاء الديون! في الاجتماع السنوي لصندوق النقد الدولي في 2 تشرين الأول/ أكتوبر، اتضح أن فرنسا قامت بتجاوز واشنطن وكانت تدفع باتجاه صفقة خاصة بها للتخفيف من الديون. نيكولاس ساركوزي وزير المالية أعلن أنه يقف الى جانب روسيا، المانيا وإيطاليا بخطة لإلغاء 50% من ديون العراق - بعيدا عن 90% – 95% مما طلبته واشنطن. لكن المثير في الأمر أن بيكر لم يكن موجودا في أي مكان للعثور عليه.

هذا وفي انشغاله وقت التفاوض حول قواعد المناظرات الرئاسية فقد كان بيكر "كالمفقود في العمليات الحربية" عند التطرق لقضية الديون. فمنذ عودته من رحلته الى الشرق الأوسط في كانون الثاني/ يناير، المبعوث الرئاسي أصدر بيانين عامين فقط حول ديون العراق، وقد كان في صمت تام حول الموضوع طيلة الأشهر الستة الماضية - على الرغم من إعلانه علانية الالتزام برتق قضية الديون عند نهاية العام.

وبينما يكون ذلك أمرا غير جيد بالنسبة للعراقيين ودافعي الضرائب الأمريكان، فربما يكون ذلك أمرا جيدا لكارليل. اذ ان حلا سريعا لازمة الديون العراقية يأتي بالعكس على مصالحها المالية: فكلما طالت المفاوضات، كلما احتاج "الاتحاد" مزيدا من الوقت لإقناع حكومة الكويت المترددة للتوقيع على الخط المنقط!!! لكن ان تم بنجاح إزالة الديون العراقية، فإن أي صفقة مقترحة تكون خارج الطاولة. إن وظيفة بيكر كمبعوث كانت بالتأكيد مفيدة لزملائه في "الاتحاد". وفيما إذا كان بيكر قد ساعد في حل أزمة الديون العراقية فان ذلك يكاد يكون غير واضح الى اقصى الحدود.

*** نشر المقال في (The Nation) بتاريخ 12 تشرين الثاني/ أكتوبر 2024:**
James Baker's Double Life | The Nation
/www.thenation.com/article/archive/James-bakers-double-life

**** نعومي كلاين: هي صحفية سياسية وكاتبة ومؤلفة أفلام تسجيلية كندية. تتميز بكتابتها المناهضة للسياسات النيوليبرالية، والتحليلية لسياسات الشركات متعددة الجنسيات والعولمة الاقتصادية. عملت كمراسلة صحفية لفترة في العراق.**

*****الدكتور شاكر موسى عيسى رئيس الجمعية العراقية/ الكندية لشطب الديون الخارجية العراقية – اوتاوا – كندا منذ 1999، والمستشار الاقتصادي سابقا في الأمم المتحدة، ومؤلف كتاب " الديون العراقية البغيضة" الصادر عن دار الرواد المزدهرة في بغداد، 2025.**

حوارات

ما الذي يحدث في شرقنا الأوسط؟

في هذا العدد من "الثقافة الجديدة" يجيبنا قائدان شيوعيان هما الرفيق فهمي شاهين عضو المكتب السياسي لحزب الشعب الفلسطيني، والرفيق حنا غريب الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني... في حوارين شاملين.

هيئة تحرير (الثقافة الجديدة)

(الثقافة الجديدة) تحاور فهمي شاهين
عضو المكتب السياسي لحزب الشعب الفلسطيني

أجرى الحوار: سوران قحطان

فهمي حمدي شاهين، تولد الخليل/ فلسطين عام 1961. عضو المكتب السياسي لحزب الشعب الفلسطيني. عضو لجنة الحوار الوطني وناشط في لجان نداء فلسطين. وعضو مجالس أمناء بعض المؤسسات الأهلية/ الحقوقية والاجتماعية. مع خبرة طويلة تقارب 30 عاما في العمل في مجال الصحافة.

الثقافة الجديدة: الأستاذ فهمي شاهين المحترم، نرحب بكم كثيرا، ونشكركم على موافقتكم على إجراء الحوار معنا على صفحات (الثقافة الجديدة)، وذلك بالرغم من انشغالاتكم الكثيرة في ظل الظروف الراهنة.

بعيدا عن السرديات التي يجري ترسيخها هنا وهناك منذ عملية طوفان الأقصى؛ ما هو توصيفكم لملابسات ما جرى في 7 أكتوبر/ تشرين الأول 2023؟ وما هي أبرز التطورات والتحولات الكبرى، والتي قادت الى الطوفان؟

شاهين: أولاً أشكر مجلتكم العريقة على هذا الاهتمام، غير المفاجئ بالنسبة لنا، بقضية ونضالات وحقوق شعبنا الفلسطيني، وفي قضايا وتطلعات الشعوب من أجل حريتها وتحررها الوطني والاجتماعي، والقيم الإنسانية عموماً.

بداية، اسمحوا لي رداً على سؤالكم، أن أؤكد أن مسيرة نضال ومقاومة الشعب الفلسطيني بمختلف الأشكال للاحتلال، مستمرة منذ عقود طويلة، ومرت هذه المسيرة بمراحل ووتائر مختلفة، ولم تتوقف يوماً أو تنته قبل السابع من أكتوبر 2023 ولم تبدأ معه، وبلا شك سوف يستمر هذا النضال كأمر طبيعي لشعب يعاني الاحتلال وممارساته الاستعمارية وجرائمه وإرهابه المنظم. وسيبقى يتمسك بحقوقه وأهدافه الوطنية والإنسانية المشروعة.

إن إقدام فصائل المقاومة الفلسطينية على توجيه ضربة واسعة لمنظومة الاحتلال العسكرية والأمنية والاستيطانية من خلال فتح معركة يوم السابع من أكتوبر 2023، بغض النظر عن بعض الملاحظات والحسابات الهامة التي لم تؤخذ بالاعتبار في هذا الشأن، فإن هذه المعركة تندرج في إطار حق شعبنا المشروع في مواصلة كفاحه الوطني حتى دحر الاحتلال عن أراضيه ونيل حقوقه المشروعة في الحرية والعودة والاستقلال.

وفي حقيقة الأمر، ان "اسرائيل" ومنظومتها الصهيونية، وخلفها الولايات المتحدة الأمريكية، هما من تتحملان المسؤولية الكاملة والمباشرة عن هذا التصعيد، وعن العدوان العسكري الواسع على شعبنا في قطاع غزة، وحرب الإبادة الجماعية وعمليات التجويع والتعطيش التي يتعرض لها وما زالت مستمرة على نحو أكثر وحشية، وهي الحرب غير المسبوقة في التاريخ المعاصر حتى وفق تقييمات وأدلة وشهادات دولية ثابتة. وكذلك تتحملان المسؤولية عن كل ما ترتب على ذلك من نتائج وتداعيات على المستويات كافة، بسبب استمرار "اسرائيل" في احتلالها للأراضي الفلسطينية، وتنكرها لحقوق شعبنا وارتكابها أفظع الجرائم اليومية بحقه، وإمعانها في تنفيذ مخططاتها وممارستها الاستعمارية، بما في ذلك استمرار محاصرة أكثر من مليوني وثلاثمئة ألف مواطن فلسطيني في قطاع غزة.

طبعاً، قامت وعلى الفور حكومة الاحتلال ومنظومتها، باستغلال ما جرى يوم السابع من أكتوبر، وهو أمر غير مفاجئ، وعملت على توظيفه لصالح تعزيز وتسويق روايتها بكل ما حملته هذه الرواية من أكاذيب وتشويه لشعبنا وشيطنته وشيطنة مقاومته ووسمها بالإرهاب، من أجل تبرير دائرة حربها العدوانية والمفتوحة على الشعب الفلسطيني بأسره، وتبنت صراحة وعلنية التوجه لحسم الصراع معه بالقوة الغاشمة، لصالح مخططاتها ومشاريعها الاستعمارية وأطماعها التوسعية، عبر ارتكاب مزيد من المجازر بحقه.

كما سعت الولايات المتحدة من جانبها، لاستغلال ذلك في تعزيز نفوذها وهيمنتها المنفردة بالمنطقة، في ضوء التحولات الجارية والمستمرة على صعيد النظام العالمي.

أما أبرز التطورات والتحولات التي قادت إلى معركة السابع من أكتوبر والمسمى بـ

"طوفان الأقصى"، فبالتأكيد هناك العديد من العوامل التي لعبت دورا في ذلك، يمكن تلخيصها في:

اولاً، انغلاق أي أفق سياسي جاد لوضع حد للاحتلال وممارساته، واستبعاد الحل العادل للقضية الفلسطينية حتى وفق قرارات الشرعية الدولية.

ثانياً، صعود أكثر الحكومات الصهيونية تطرفاً وفاشية للحكم في تاريخ دولة الاحتلال الإسرائيلي، وسعيها المحموم لفرض سلسلة مشاريع متلاحقة ومتصلة للتطهير العرقي وعمليات التهويد وخاصة في مدينة القدس المحتلة، وضم الأراضي الفلسطينية وتفتيت وحدتها، إلى جانب استمرار حصار قطاع غزة ومساعي فصله عن بقية أراضي الوطن، وتعزيز سياسة الفصل العنصري "الابارتيد".

ثالثاً، وبالتزامن مع ما سبق، تصاعدت واتسعت عمليات القتل والتنكيل والتعذيب بحق المدنيين الفلسطينيين، وحملات الاعتقال في صفوفهم، واحتجاز الآلاف منهم في سجون ومعسكرات الاحتلال، وتعريض المئات إن لم يكن الآلاف منهم للتعذيب وسوء التغذية والحرمان من العلاج. هذا إلى جانب استخدام سياسة العقوبات الجماعية بحق المواطنين الفلسطينيين وهدم منازلهم وممتلكاتهم، وارتفاع حدة هذه الجرائم التي ترتكبها سلطات الاحتلال يومياً بحق شعبنا. يضاف إلى كل ذلك، استمرار التوسع في مصادرة الأراضي وبناء المستوطنات، وزيادة واتساع إرهاب وجرائم عصابات المستوطنين الصهاينة في الضفة الغربية المحتلة، وذلك بدعم من أعلى المستويات السياسية والعسكرية داخل "اسرائيل"، بما في ذلك تشكيل ميليشيات منظمة ومسلحة لهم، تعمل بحماية قوات وشرطة الاحتلال، حيث ترتكب هذه الميليشيات اعتداءات يومية على المدنيين الفلسطينيين وأراضيهم وممتلكاتهم، تشمل أيضاً القتل والحرق، إضافة إلى اقتحاماتهم واعتداءاتهم المتكررة للمقدسات الإسلامية والمسيحية وخاصة المسجد الأقصى.

رابعاً، استمرار الدعم والانحياز الأمريكي اللامحدود لدولة الاحتلال الاسرائيلي ولسياساتها وممارساتها التي ترتقي إلى مستوى جرائم الحرب، وتوفير الحماية الاقليمية والدولية لها من أي مساءلة وملاحقة ومحاسبة كانت، بما في ذلك استخدام "الفيتو" والحيلولة دون ملاحقتها جنائياً.

هذا إلى جانب استمرار حالة العجز وحتى الصمت الدولي على كل ذلك، وعدم الجدية في تطبيق القوانين والمواثيق الدولية، وفي مقدمتها اتفاقيات جنيف الرابعة التي من المفترض تطبيقها مبكراً على كل الأراضي الفلسطينية المحتلة، وكذلك عدم تنفيذ أي من قرارات الأمم المتحدة المتعلقة في القضية الفلسطينية، والتي تحول أمريكا وحلفائها دون تحقيقها.

خامساً، حالة العجز المستمرة وهرولة بعض الدول العربية والاقليمية، نحو تطبيع العلاقات السياسية والأمنية والاقتصادية مع "اسرائيل"، بل والسعي لتوسيع علاقات التطبيع هذه بالمجان، ودون ثمن يتعلق بوضع حد لاحتلالها وممارساتها ضد الشعب الفلسطيني.

هذا طبعاً إضافة لعوامل أخرى، مثل: حالة الانقسام الداخلية التي كانت سائدة

في ''اسرائيل'' وعبرت عنها الاحتجاجات التي بدأت عام 2023 ضد ما يسمى بـ''الإصلاحات القضائية'' التي كان يروج لها بنيامين نتنياهو وائتلافه الحكومي، وكذلك اشتداد الصراعات الجيوسياسية والاقتصادية بين الدول العظمى، وأخرى بين دول اقليمية وازنة في المنطقة، وحدوث بعض التحولات في النظام العالمي.

الثقافة الجديدة: أستاذ فهمي، برأيكم ما هي الخلفيات الأيديولوجية والسياسية والاجتماعية، في داخل الكيان الصهيوني، التي تسببت في بلوغ آلة القتل الصهيونية هذا المستوى غير المسبوق من الدموية والإجرام؟

شاهين: وفق جوهر الايديولوجية العنصرية والفاشية للحركة الصهيونية، وقواها المتنفذة والمعبرة عنها داخل ''اسرائيل'' وخارجها، فإنها ليست مجرد دولة كبقية دول العالم، بل هي ''مشروع مستمر ومستدام''. وبالفعل ظهرت وأكدت سياساتها على مدار العقود الطويلة الماضية أنها على هذه الصورة، كمشروع استعماري استيطاني احلالي متمدد، وهو ما تقوم عليه منظومة السيطرة متعددة الأبعاد التي تحكم ''اسرائيل'' اليوم، وفي محطات تاريخية سابقة. وقد سخرت وما زالت تسخر الدين والايديولوجيا الصهيونية وامكانياتها وتحالفاتها، لتوظف ما يحلو لها من ادعاءات وذرائع، تخدم وتبرر بالأساس مخططاتها الاستعمارية وتحقق غاياتها السياسية الأخرى، في التوسع والهيمنة بالمنطقة لصالح الأهداف المشتركة مع الولايات المتحدة الأمريكية وبالشراكة معها.

وكجزء من مخططاتها الاستراتيجية التي تتحين فرص تحقيقها بين حين وآخر، فإن القوى الصهيونية الحاكمة أو المتنفذة في كيان الاحتلال الاسرائيلي، تقوم بالاستناد للحماية والتغطية الأمريكية، باستغلال حالات العجز على المستويات الرسمية، وكل حالة فوضى أو صراعات وتناقضات داخلية في المنطقة، وتعمل على تغذيتها وهندستها وهندسة ما يمكن أن يتمخض عنها من تداعيات وتغييرات بصورة أو أخرى، طبعاً هذا بما يخدم المصالح الأمريكية – الاسرائيلية. إضافة للتدخلات في شؤون دولها وشعوبها، تارة بذريعة ''الدفاع عن الأقليات وحمايتها''، وتارة لمحاربة ''الإرهاب'' وحماية ''الاستقرار والأمن''... الخ، كما هو حاصل الآن وسبق أن حصل مع بعض دول المنطقة العربية. وطبعاً هذا بعلم ومساعدة الأمريكان ووكلائهم.

وبالمناسبة، لا تتردد منظومة الاحتلال وقواها وأذرعها، عن اتهام أي جهة كانت في العالم، دولاً أو حكومات أو مؤسسات أو أفرادا يعارضون سياساتها ولو بالتعبير، بتهمة ''معاداة السامية''، حتى اتهام أوساط يفترض أنهم من ضمن أصدقائها. هذه التهمة التي لا أساس لها، هي واحدة من أسخف الاتهامات والمصطلحات التي تكثر ''إسرائيل'' استخدامها بشكل ممنهج، وتلصقها بكل معارض أو حتى منتقد لسياساتها وممارساتها.

وبرغم أنها من أكثر الاتهامات والادعاءات كذباً وسفالة على الإطلاق، إلا أن الإدارات الأمريكية وحلفاءها وقواهم اليمينية، يتعمدون تبنيها والترويج لها بكل وقاحة.

الثقافة الجديدة: يبدو أن من خطط ونفّذ معركة "طوفان الأقصى" لم يكن على معرفة وافية بموازين القوى المختلفة، ولا ظروف وملابسات ما قبل أكتوبر/ تشرين الأول 2023، سواء في داخل فلسطين، أو في المنطقة، أو في العالم. وبالتالي، نستطيع القول ان استشرافاته، سياسيا وعسكريا واستراتيجيا، كانت دون المستوى المطلوب إلى حد كبير. بالطبع، من الصعوبة بمكان لأي كان الحديث عن أثر الطوفان الأقصى على المدى الاستراتيجي بعيد المدى، لكن ما نقصده هنا المديات القريبة والمتوسطة. بصياغة أخرى، لا يمكن فهم مآلات الطوفان اللاحقة، وتمادي الصهاينة بعدوانهم البشع وحجم المأساة المرعبة التي تعرضت لها غزة، والمواقف الباردة للدول والشعوب العربية والإسلامية.. الخ، الا من خلال فهم عميق وإدراك على مستوى عال من الشمولية لما كان بعضه، او قسم كبير منه، محجوبا او غائبا عن رؤية من خطط ونفذ الطوفان. بالطبع، نحن لا ننكر أبدا ان الفهم والإدراك يأتي، كعادته، متأخرا وبطيئا.

الثقافة الجديدة: ما هو رأيكم أستاذ فهمي بهذا الطرح؟ وكيف لكم ان تميطوا اللثام عن مكنونات الحدث؟

شاهين: من حيث المبدأ، ان قرار المواجهة العسكرية يوم السابع من أكتوبر، هو عمل مقاوم جريء وصمود شعبنا الأسطوري والذي دفع وما زال يدفع أثمانا باهظة نتيجة عدوان الاحتلال وحربه الإبادية التي يشنها عليه منذ أكثر من 22 شهراً متواصلة، مثل قمة البطولة والمقاومة. ولكن يجب أن نؤكد بوضوح استناداً لتجارب غنية ومختلفة في العالم، ومنها تجربة شعبنا الفلسطيني خلال المسيرة الطويلة لنضاله التحرري، أن الشجاعة والجرأة والتضحية رغم قيمتهم السامية وأهميتهم البالغة، غير كافية، وحدها، لتحقيق متطلبات إدارة الصراع مع العدو المجرم، واتخاذ قرارات المواجهة المسلحة وفتح المعارك النوعية معه، أياً كان شكلها وأسلوبها.

ففي الحقيقة ان ذلك يحتاج أيضاً بما لا يقل أهمية عن كل ما ذكر، إلى حكمة القيادة السياسية التي من واجبها الاستناد في صراعها التحرري مع الاحتلال، وكل القرارات المصيرية المتعلقة بشعبها، على رؤية سياسية وطنية موحدة، وبالضرورة وفي كل الأحوال أن تأخذ بالاعتبار حساب العوامل والإمكانيات والاحتياجات الموضوعية والذاتية في معاركها، وكذلك إدراك موازين القوى والسعي لتغييرها التدريجي، وليس الاستسلام أو الخضوع لها، وأيضاً فهم طبيعة الصراعات الجيوسياسية القائمة، والمصالح والتحالفات الحقيقية في المحيط، والأكثر أهمية من ذلك في الحالة الفلسطينية، الحفاظ على أساس وجوهر المشروع الوطني لشعبنا ومقاومته والمتمثل في دعم وحماية صموده على أرضه، والحيلولة دون نجاح الاحتلال في مخططات التهجير القسري أو حتى ما يسمى بالهجرة "الطوعية" إلى خارج الوطن، أو النزوح من مناطق السكن إلى أخرى، كما هو حاصل الآن في قطاع غزة، وهذا الأمر كان وما زال مطلباً دائماً من كل الأطراف الفلسطينية.

وفي هذا الشأن، نعم، يمكن القول ان هناك العديد من الحسابات السياسية والعسكرية وغيرها، ثبت أنها لم تكن ضمن حسابات

وإدراك من خطط وفتح هذه المعركة، على النحو المطلوب إن جاز التعبير، وهي في رأينا رزمة عوامل وحسابات، يمكن اختصارها بالآتي:

أولا، اختلال موازين القوى السياسية والعسكرية والاقتصادية على أكثر من صعيد، وطبيعة المصالح المشتركة والتحالفات السائدة في المنطقة والإقليم بشكل خاص، وفي المقدمة التحالف الاستراتيجي العميق بين كيان الاحتلال الاسرائيلي وزعيمة الإمبريالية والإرهاب العالمي الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها الغربيين.

ثانيا، القدرات العسكرية للاحتلال الإسرائيلي وتفوق آلته الحربية في عديد المجالات، مقابل محدودية قدرات المقاومة الفلسطينية، رغم بسالة مقاتليها وقيادتها وتضحياتهم.

ثالثا، فتح معركة على النحو الذي جرى في بقعة جغرافية صغيرة ومكشوفة، مساحتها الإجمالية لا تتعدى الـ(365 كيلومتراً مربعاً)، وهي الأكثر كثافة سكانية في العالم، وهذا دون ضمان توفر اسناد وعمق استراتيجي لهذه المعركة وساحتها وأهدافها.

رابعا، غياب أي خطط استباقية للحد من سهولة القتل الجماعي لآلة الحرب الاسرائيلية، أو الحد من حجم الخسائر التي سعت وتسعى لها في صفوف المدنيين من أبناء وبنات شعبنا، والحيلولة دون الاستفراد بهم، وكذلك غياب خطط لدعم وتعزيز صمودهم في الوطن.

بالتالي، اتفق أن الفهم، والإدراك عموماً، كثير ما يأتي متأخراً أو بطيئاً للأسف، وهذا ما كان يجب تجنبه في القضايا الكبرى أو المصيرية، استناداً للواقع الموضوعي القائم وللتجارب الحية للشعوب ومنها شعبنا، وانطلاقاً من الفهم العلمي للصراعات الوطنية والاجتماعية ومعاركها المختلفة.

مع ذلك، تاريخيا سياسات وممارسات "اسرائيل" العدوانية، من خلال منظومتها الأمنية والعسكرية وعصاباتها تجاه شعبنا وحتى تجاه شعوب أخرى ودول معينة، كانت وما زالت تقوم على إرهاب الدولة المنظم، وتتسم بالوحشية والدموية. فهي لم تلتزم يوماً في صراعاتها واعتداءاتها ومخططاتها بأي من القوانين والمواثيق والقرارات الدولية، وهي لا تراعي حتى أبسط الاعتبارات الإنسانية في كل ذلك. وعلى سبيل المثال وليس الحصر، معروفة وثابتة تلك المجازر التي اقترفتها بحق المدنيين الفلسطينيين العزل عام 1948، وما تلاها ورافقها من هدم وحرق لقراهم، وكذلك ما حصل على مدار العقود الماضية من مجازر أخرى بحق المدنيين والأسرى الفلسطينيين والمصريين واللبنانيين وغيرهم، وهي المجازر المخططة التي كانت تهدف دائما إلى ردع وإرهاب الشعب ومقاومته وكل من يناهضها، وإشاعة الرعب بينهم والنيل من إرادتهم، وهذا كله من أجل تحقيق أهدافها السياسية في الاحتلال والاستيلاء على الأراضي وثرواتها، وفرض سيطرتها العسكرية والتهجير القسري والتطهير العرقي للسكان، وإيصال رسائل لشعوب ودول وجيوش المنطقة، تتعلق بإبراز تفوقها العسكري وقوة ردعها الوحشية.

وبالتالي صحيح، كان يجب إدراك وتقدير تلك الحقائق وعديد العوامل الأخرى، بما في ذلك الخلل في موازين القوى المختلفة،

وعدم المبالغة في الرهان على الخارج ببعده العربي والإقليمي والدولي بالشكل الذي اتضح وثبت لاحقاً.

من جهة ثانية، استغلت حكومة الاحتلال وكل منظومتها الفاشية، وكالعادة تجاه أي حدث كبير أو صغير يتعلق بها، ما جرى يوم السابع من أكتوبر، وعملت على تنظيم حملة واسعة لتسويق روايتها الصهيونية حوله وحول صراعها مع الشعب الفلسطيني، مستخدمة لغات وأساليب مختلفة. وكانت روايتها وحملتها مليئة بالأكاذيب والتشويه لنضال وقيم شعبنا الإنسانية والوطنية. حيث تعمدت شيطنته وشيطنة مقاومته ووسمها بالإرهاب. كما كان الحال تاريخياً تجاه كل الحركة الوطنية وفصائل منظمة التحرير الفلسطينية في كل مراحل النضال الفلسطيني، وذلك من أجل تبرير حروبها ومجازرها وممارساتها الإرهابية المنظمة، بما في ذلك توسيع دائرة حربها الحالية والمفتوحة على كل الشعب الفلسطيني، ومحاولة حسم الصراع معه لصالح مشاريعها الاستعمارية ومخططاتها لتهجير شعبنا، وأيضاً لصالح أطماعها بالتوسع والهيمنة في المنطقة، عبر ارتكاب مزيد من المجازر بحق شعبنا، من جهة، والاعتداءات العسكرية والتهديدات المتكررة على شعوب ودول بالإقليم، والتدخل في شؤونها الداخلية والمس بسيادتها واستقرارها، من جهة ثانية.

وفي سياق آخر، أعتقد أن تضخيم وتعظيم بعض الأطراف الفلسطينية لقدرات المقاومة العسكرية وأذرعها الجماهيرية والسياسية، مثلاً، وتسويق ذلك مراراً وتكراراً، لم يكن مبرراً والحق أضراراً غير قليلة فيها وبشعبنا. وكذلك الأمر في ما يتعلق بالمبالغة في الرهان على بعض العلاقات العربية والإقليمية، حيث جرى استغلال ذلك أسوأ استغلال من قبل حكومة الاحتلال ومن خلفها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها الغربيين، لتبرير دعمهم اللامحدود لـ"اسرائيل" وتزويدها بأحدث الأسلحة الفتاكة، وإعطاء قيادتها الفاشية وآلتها الحربية ضوء أخضر ومفتوح لترتكب أفظع الجرائم بحق شعبنا وخاصة في قطاع غزة، لتحقيق غاياتها السياسية في الردع والاحتلال والتوسع والهيمنة.

وأود الإشارة أيضاً، لطبيعة وسرعة الرد الأمريكي بشكل خاص، إضافة لأغلبية دول الاتحاد الأوروبي، حيث أعلنوا ومارسوا صراحة انحيازهم لدولة الاحتلال الاسرائيلي، وتبني وترويج البروباغاندا الصهيونية، بما في ذلك تبني روايتها الكاذبة والمسمومة حول يوم السابع من أكتوبر، وإبراز "إسرائيل كدولة مظلومة وضحية للإرهاب"، من أجل تبرير دعمهم لها ولحربها الدموية على شعبنا، بل جرى التحريض عليه تحت شعارات مختلفة، مثل ما يسمى "محاربة الإرهاب" و"حق إسرائيل بالدفاع عن نفسها وعن مواطنيها".

وفي السياق ذاته، ظهرت وبأبشع صورها طبيعة العلاقة الاستراتيجية بين الإمبريالية العالمية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية و"اسرائيل"، كون الأخيرة تشكل قاعدتها الاستعمارية وذراعها الإرهابية الضاربة في الشرق الأوسط، وتتعامل معها وكأنها الولاية الـ51 من ولاياتها الأهم.

وبالأساس ما كانت القضية الفلسطينية وحالة شعبنا مع العدوان وتداعياته، أن تصل إلى هذه المرحلة، لولا عجز وأحياناً تقاعس

المؤسسات الدولية عن فرض عقوبات على كيان الاحتلال الإسرائيلي، جراء التدخلات والضغوطات والابتزازات المتعددة للولايات المتحدة وحلفائها الغربيين لبعض الدول والمؤسسات، ودورهم السافر في حماية مرتكبي جرائم الحرب الإسرائيليين، واستخدام حق النقض الفيتو منعاً لأي قرار مناوئ لـ"اسرائيل".

كما أصبحت سياسة ازدواجية المعايير أكثر وضوحاً ووقاحة من أي وقت مضى، وهي السياسة التي تمارسها الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيون منذ زمن طويل تجاه قضية شعبنا وما تعرض له من حروب ومجازر دموية خلال العقود الماضية، بما في ذلك تجاه الحرب الحالية المتواصلة عليه، وما زيارات الرئيس الأمريكي وأركان إدارته المتكررة لـ"اسرائيل" خلال فترة زمنية قصيرة، وتعزيز التنسيق السياسي والعسكري والاقتصادي معها، وتوفير كل أنواع الدعم لها، إلا تعبير بسيط عن هذه العلاقة.

إنّ كل ذلك، بالإضافة لتدني مستوى رد الفعل العربي الرسمي ووحدته، وعجزه عن الارتقاء به لمستوى التحديات القائمة، وفي مقدمتها الحرب الاسرائيلية على شعبنا وتهديداتها السافرة والمباشرة لدول المنطقة، شكل لـ"اسرائيل" وما زال يشكل، عامل تشجيع للاستمرار والامعان في جرائمها الإبادية وتوسيع دائرة حربها الوحشية على شعبنا، والاستهتار بكل القوانين والمواثيق الدولية المتعلق بقوانين الحرب والاحتلال، هذا إلى جانب الاستمرار في تهديداتها واعتداءاتها المتكررة على بعض دول المنطقة العربية.

الثقافة الجديدة: لقد ساهم "طوفان الأقصى" أو معركة السابع من أكتوبر والتطورات اللاحقة لها، في تعميق فهمنا وإدراكنا، أو على الأقل إثارة انتباهنا لبعض القضايا الفلسطينية الداخلية، في مقدمتها: طبيعة العلاقة بين فصائل المقاومة، وبينها وبين منظمة التحرير، وبين الكل والسلطة الفلسطينية، وبالتالي استمرار حالة الانقسام الداخلي.

كيف تفسرون انه على الرغم من كل ما جرى ما زالت العلاقة بين الفصائل الفلسطينية المختلفة معقدة؟ ربما الأصح الحديث عن العلاقة بين قيادات الفصائل. وكذلك علاقتهم مع وداخل منظمة التحرير الفلسطينية؟ وكذلك موقف السلطة الفلسطينية "الباهت" من كل ما يحدث!

أستاذ فهمي، قراؤنا ينتظرون منكم تسليط ضوء كاشف على خفايا الشأن الفلسطيني الداخلي، ومواقفه المتباينة من الأحداث. وما هي، برأيكم، سبل تصويب هذه العلاقات بما يخدم مصالح الشعب الفلسطيني وقضيته؟

شاهين: نحن في حزب الشعب وانطلاقاً من إدراكنا لطبيعة المرحلة التي يمر بها شعبنا الفلسطيني، بوصفها مرحلة تحرر وطني بكل معنى الكلمة، والمهمة المركزية فيها تتلخص في إنهاء الاحتلال بكل مظاهره عن الأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1967، وعودة اللاجئين الفلسطينيين وفق القرار الأممي 194، أكدنا مراراً وتكراراً أن توحيد كل مكونات وقوى شعبنا كافة، متطلب أساسي وشرط ضروري لمواصلة النضال الوطني ضد الاحتلال ودحره، وقطع الطريق على مخططاته الاستعمارية، ومن أجل تعزيز صمود شعبنا على أرضه،

بل نحن نرى في الوحدة الوطنية قانوناً للانتصار على الاحتلال وممارساته. هذا هو موقفنا الثابت تاريخياً، وقبل حدوث الانقسام وبعده، وقبل وبعد السابع من أكتوبر وما زلنا متمسكين به.

وفي هذا السياق، انخرط حزبنا وعمل بمثابرة مع كل القوى الفلسطينية التي تتقاطع مع هذا التوجه والهدف، في كل المساعي والجهود لإنهاء هذا الانقسام البغيض، بما في ذلك في جميع اللقاءات والحوارات الوطنية من أجل تحقيق الوحدة الوطنية وترتيب وتصليب الجبهة الداخلية الفلسطينية، وقدمنا خلال ذلك العديد من المبادرات السياسية من أجل الوصول لهذا الهدف.

نحن نرى شعبنا اليوم يعيش مرحلة في غاية الخطورة، جراء ما يتعرض له من حرب إبادة جماعية وتطهير عرقي ومساع محمومة لتنفيذ الترانسفير والتهجير القسري له بأشكال مختلفة، وتصفية القضية الفلسطينية بالتنسيق والتعاون مع الإدارات الأميركية، شريكة الاحتلال في هذه الحرب وما يترتب عليها من نتائج وتداعيات.

ورغم ذلك، استمرت للأسف حالة الانقسام الفلسطيني، ومعها استمرت وتراكمت أضراره البالغة بغض النظر عن النوايا، وأقلها غياب وحدة الخطاب السياسي الفلسطيني وتشتت الطاقات والجهود في مواجهة المخاطر والتحديات القائمة أمام شعبنا. وساهم ذلك في إعاقة الوصول لأفق سياسي جديد يضمن إنهاء حرب الإبادة المستمرة عليه، وفتح مسار سياسي نحو تلبية حقوقه الوطنية وفق قرارات الشرعية الدولية، بما فيها ذلك حقه في إقامة دولته المستقلة.

فمن جهة، ما تزال حركة "حماس" وبعض حلفائها، يرهنون المشروع والقرار الوطني الفلسطيني بما في ذلك مصير قطاع غزة وسكانه لمواقفها ولخطابها السياسي الانفرادي، وتضرب عرض الحائط بالدعوة إلى تشكيل وفد فلسطيني موحد لإدارة ملف المفاوضات غير المباشرة مع "إسرائيل".

ومن جهة ثانية، ما زالت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الوطنية، تتردد في الدعوة الفورية لحوار وطني شامل، واتخاذ زمام المبادرة السياسية في مواجهة الواقع الراهن لشعبنا وما يتعرض له، وتقوم باتخاذ العديد من الخطوات بعيداً عن التوافق الوطني، ولا تعمل بجدية على تطبيق العديد من قرارات المؤسسات الوطنية.

نحن نرى ان شعبنا خلال مسيرة نضاله الطويلة، قدم وما زال تضحيات جساماً لا تقدر بأي ثمن، ومثّل قدوة للنضال في الدفاع عن حقوقه ومقاومته في كل المراحل، وكذلك الأمر في ثباته وصموده على أرضه، ونموذج التجربة الحالية والساطعة لصموده الأسطوري في قطاع غزة، خير شاهد على ذلك، فأقل ما يمكن فعله له اليوم من الكل الوطني الفلسطيني، وبشكل خاص من قبل حركتي فتح وحماس، الارتقاء لمستوى تضحياته والتحديات القائمة أمامه ومتطلبات حماية حقوقه ومكتسباته الوطنية والديمقراطية، والتدخل بقوة للحيلولة دون المساس بها أو إهدارها، والعمل مع الجميع على تحصين جبهته الداخلية وتوحيد كل قواه ومكوناته، وتقديم درس جديد في الوحدة الوطنية.

إنّ لحظة الحقيقة اليوم، تفرض على الجميع تجاوز الحسابات الفئوية والضيقة، والتقدم

بخطاب سياسي واحد ووفد فلسطيني واحد، يحمل صوت شعبنا من أجل وقف إبادته الجماعية ورفع الحصار عنه كأولوية إنسانية ووطنية عاجلة. كما يعبّر عن همومه وحقوقه ومطالبه في تحقيق الحرية والاستقلال وحق العودة.

نحن من وجهة نظرنا، نعتبر الاتفاق على وحدة الخطاب الفلسطيني والوفد الموحد، ليس شعاراً رمزياً أو تكتيكياً، بل ضرورة وجودية في لحظة يتعرض فيها شعبنا وقضيته لأخطر مؤامرة منذ النكبة، ولا سبيل لمواجهتها إلا بوحدة وطنية حقيقية تعبّر عن إرادة الشعب وتحمي مستقبله.

إن ذلك كله وغيره، يتطلب وأكثر من أي وقت مضى، الإنهاء الفوري لحالة الانقسام واستعادة وتعزيز الوحدة الوطنية الفلسطينية، والتوصل على الأقل لتوافق وطني يقوم على التمسك بالبرنامج السياسي الموحد وقرارات الشرعية الدولية، وفي المقدمة منها، انهاء الاحتلال وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ذات السيادة الكاملة على الأراضي المحتلة عام 1967 وعاصمتها القدس، وهي أراضي الدولة المنشودة التي تشمل - الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة - كوحدة جغرافية وسياسية وولاية قانونية وإدارية فلسطينية واحدة، وضمان حق العودة وفق القرار الأممي 194، والعمل معاً لتعزيز صمود شعبنا على أرضه، فهذا الصمود الذي يمثل العقبة الحاسمة في وجه المشروع الصهيوني الذي يستهدف تأبيد احتلاله وتهجير شعبنا الفلسطيني واستكمال حلقات التوسع والهيمنة الاستعمارية.

نعم، ان الانقسام هو فلسطيني فلسطيني، وحتى نكون صريحين، فإن جذره الأساسي منذ بداياته كان صراعا فئويا على السلطة وعلى من يتصدر المشهد السياسي الفلسطيني. ولكن أيضاً هذا الانقسام أثرت وتؤثر في مساره ومفاصله عوامل ومصالح خارجية مختلفة، سواء كانت عربية أو إقليمية. طبعاً "اسرائيل" عملت وما زالت تعمل بكثافة وطرق مختلفة، مباشرة وغير مباشرة، على إبقاء وتعزيز هذا الانقسام، كونها صاحبة المصلحة الأولى فيه، وتسعى لاستمراره إلى أقصى مدى، ودفعه إلى أسوء حال ممكن.

نحن نرى مسار الوحدة الوطنية المنشودة، والحفاظ على وحدة التمثيل السياسي الفلسطيني من خلال منظمة التحرير الفلسطينية كجبهة وطنية عريضة، مسارا إجباريا بغض النظر عن أي خلافات أو تباينات كانت. وهذا التمثيل السياسي الموحد، لم يأت ويتعزز عربياً ودولياً من فراغ، وقد دفع شعبنا أثمانا باهظة من التضحيات للوصول إليه والحفاظ عليه، وسعت اسرائيل والولايات المتحدة وما زالتا تسعيان للنيل منه بل وضربه، باعتبار ذلك يشكل مدخلا لهما، لتفتيت كل وحدة الشعب الفلسطيني وتصفية قضيته الوطنية.

إنّ التسريع في إنهاء الانقسام واستعادة الوحدة عبر الحوار الوطني الشامل، يتطلب أيضاً خطوات مباشرة لإزالة أي عراقيل، وتجاوز نقاط الخلاف في هذا الشأن، والتي لا تشكل أفضلية أو أهمية أمام حجم المخاطر والتحديات القائمة، بل هي أدنى منها بكثير شكلاً ومضموناً.

وضمن الخطوات العملية المطلوبة على سبيل المثال لا الحصر: مغادرة منظمة

التحرير وسلطتها الوطنية حالة الانتظار السياسي أمام ما يتعرض له شعبنا من إبادة وعدوان متعدد الأشكال، وأمام الواقع الصعب الذي يعيشه في عديد المجالات، وإنهاء الملفات التي تشكل مساسا بحقوق المواطنين وحرياتهم الديمقراطية، ومنها ملف الاعتقال السياسي طبعاً، وتصويب أدائها وسياساتها الحكومية.

كما على حركتي حماس والجهاد الاسلامي من طرفهما، الكف عن حالة التفرد في الخطاب السياسي والقرارات في القضايا الوطنية، وعن عديد الاعتبارات التي تحكم علاقاتهما الخارجية بما تحمله من مؤثرات في الحالة الفلسطينية، والعمل بجدية على تعزيز اندماجهما في المشهد الوطني الفلسطيني.

إنّ الوحدة التي نتحدث عنها اليوم، هي ضرورة ملحة من أجل الوقف الفوري للإرهاب والعدوان الإسرائيلي وحرب الإبادة والتجويع التي يمارسها بحق شعبنا، ومن أجل تعزيز صموده وتصليب جبهته الداخلية في مواجهة المخاطر والتحديات الراهنة القائمة أمامه.

على أي حال لا بدّ في رأينا بعد وقف العدوان ومعالجة تداعياته الأساسية، من مراجعة سياسية فلسطينية شاملة لتجربة العقد الأخير على الأقل، واستخلاص العبر منها بمسؤولية وطنية عالية.

الثقافة الجديدة: أستاذ فهمي، في ضوء كل ما ذكرت أعلاه، برأيكم ما هي الأولويات الفلسطينية الراهنة؟

شاهين: من طرفنا في حزب الشعب، نعتبر الوقف الفوري لعدوان الاحتلال الإسرائيلي وحرب الإبادة والتجويع التي يمارسها بحق شعبنا وكل أشكال العدوان عليه وخاصة في قطاع غزة، هي المهمة الأكثر أولوية في الوقت الراهن، والجهد الفلسطيني والعربي والأممي على مختلف المستويات، يجب ان ينصب من أجل تحقيق ذلك، والعمل معاً لتفويت الفرص على مخططات الاحتلال الاسرائيلي الهادفة إلى الاستفراد بشعبنا وتهجيره من وطنه، وكذلك قطع الطريق على مساعيه للتطهير العرقي والضم وتفتيت وحدة الأرض التي يمارسها في الضفة الغربية، هذا إلى جانب فك الحصار عن قطاع غزة وتأمين المساعدات الإنسانية واحتياجاته الأساسية والحيوية، والبدء بإعادة إعماره، وهذا في رأينا يستدعي أربع قضايا ملحة، تتمثل في:

الأولى، سرعة تشكيل وفد فلسطيني موحد تحت مظلة منظمة التحرير الفلسطينية، يضم القوى كافة بما في ذلك حركتا حماس والجهاد.. الخ، لمتابعة مفاوضات وقف إطلاق النار وحرب الإبادة والتجويع، وبما يحبط خطة التهجير والتطهير العرقي لشعبنا أو أجزاء منه، ويعزز صموده في أرضه، ويحقق وحدة الموقف الفلسطيني وفعاليته في ميادين النضال والمحافل الإقليمية والدولية كافة.

والثانية، الشروع فوراً في الحوار الوطني الشامل، وتوحيد الخطاب السياسي والإعلامي الفلسطيني، والاتفاق على آلية تحقيق ذلك عبر تعزيز وحدة الشعب وأهدافه الوطنية، وهذا بالتأكيد يتطلب بالضرورة تفعيل وتكامل كل الطاقات على الصعيدين الرسمي والشعبي، ومراعاة أولوياتنا السياسية والاجتماعية والكفاحية

لإنقاذ شعبنا، وتعزيز صموده وتصليب جبهته الداخلية.

اما القضية الثالثة، فهي العمل مع كل الأطراف الداعمة والمناصرة لقضيتنا، على حسن استثمار المواقف الدولية المتقدمة التي باتت تدين "اسرائيل" وتدعو لفرض العقوبات عليها لارتكابها الإبادة الجماعية وجرائم الحرب، وهذا يتطلب أيضاً توسيع مساحات التواصل والضغط على الحكومات والمؤسسات الدولية من خلال الأحزاب والحركات والبرلمانات العربية والأجنبية، لتحويل التعاطف الإنساني والتضامن مع شعبنا إلى خطوات سياسية ملموسة لوقف العدوان عليه، وحماية حقوقه المنصوص عليها في القرارات والقوانين والمواثيق الدولية، ودعم تنفيذ قرارات المحاكم في هذا المجال، وخاصة الجنائية والعدل الدوليتين، وكذلك إجراءات ملاحقة مجرمي الحرب الإسرائيليين أينما كانوا.

وأخيرا، رابعا، الحرص على بذل أقصى الجهود الممكنة، للحيلولة دون صرف أنظار واهتمام العالم بالعدوان وحرب الإبادة الجماعية التي يتعرض لها شعبنا على يد الاحتلال الإسرائيلي، وعن تنفيذ مخططاته الاستعمارية والتطهير العرقي، ومساعيه لخلق وقائع ديموغرافية وجغرافية جديدة في الأراضي الفلسطينية، وكذلك الحفاظ على مكانة القضية الفلسطينية على جداول الأعمال الدولية والإقليمية والعربية، السياسية منها والحقوقية.. الخ، وسحب أية غطاءات عن جرائمها وسياساتها "إسرائيل" وإجراءاتها أحادية الجانب، سواء في الضفة الغربية أو غزة.

الثقافة الجديدة: السؤال السابق يقودنا إلى سؤال كنا قد وجهناه للدكتور (ماهر الشريف) في حوارنا معه على صفحات (الثقافة الجديدة) قبل سنة تقريبا من عملية طوفان الأقصى. هذا السؤال ما زال يحتفظ براهنيته، وإن في ظل معنى وسياق تأريخي اخر. وها نحن نعيده على حضرتك أستاذ فهمي بصياغة مختلفة قليلا، صياغة تتناسب مع مجريات الاحداث:

برأيكم، بعيدا عن الشعارات العتيقة والخطط والممارسات الرومانسية، ما هي أساليب النضال الملموسة المطلوبة، في ظل الظروف الحالية، من قبل التنظيمات والفصائل الفلسطينية اليسارية والتقدمية؟ وما هي آليات التنسيق مع الأحزاب والتنظيمات اليسارية الشقيقية والصديقة للعمل معاً على بث الروح من جديد في جسد الاصطفاف الشعبي العربي والإسلامي من جهة، وعلى تقوية الدعم العالمي من جهة أخرى، للوقوف مع الشعب الفلسطيني، أولاً لإيقاف آلة القتل الصهيونية المستمرة، ولاحقا دعمه لانتزاع حقوقه ومطالبه العادلة؟

شاهين: أولاَ الشعب الفلسطيني كما الشعوب التي استعمرت أو تعرضت للعدوان، له الحق الكامل في ممارسة كافة أشكال النضال في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي، وهو حق مشروع وثابت وسبق وأن أكدت عليه المواثيق الدولية وقرارات الأمم المتحدة، كحق للشعوب في النضال ضد الهيمنة الاستعمارية، ومن أجل تقرير مصيرها بكل الوسائل المتاحة، ونخص بالذكر على سبيل المثال، قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (3070).

وفي رأينا، أشكال ووسائل النضال كافة، ما هي إلا وسيلة لتحقيق غايات سياسية من أجل التحرر الوطني والاجتماعي، وبالتأكيد هي ليست مقدسة ولا الهدف من النضال.

واختيار هذا الشكل أو ذاك وأولويته عن غيره من وسائل النضال ضد الاحتلال وعدوانه، بما في ذلك على سبيل المثال، المقاومة الشعبية أو المسلحة أو العصيان المدني أو غيرها، يتوقف على مدى الجدوى العملية لهذا الاختيار والشكل، وأفضليته انطلاقاً من أثره وقدرته على تحقيق الغايات السياسية والأهداف المرجوة من ورائه، وارتباطاً بطبيعة اللحظة السياسية والعوامل الموضوعية والذاتية.

إنّ تجارب نضالات الشعوب ضد الاستعمار والهيمنة الاجنبية، لم تعرف شكلاً أو نموذجاً واحداً ناجحاً يمكن اعتماده طيلة الوقت وفي كل الأحوال مهما كانت الظروف. وتلك التجارب ومنها تجربة النضال الفلسطيني ذاته على مدار عقود طويلة، غنية بالدروس التي يمكن الاستفادة واستخلاص العبرة منها.

نحن نعتبر هذا الموضوع بالغ الأهمية في النضال التحرري الفلسطيني، وفي تحديد شكل النضال المناسب لظروف وقضية شعبنا، يجب أن يكون شأنا داخليا وقرارا فلسطينيا، بالاتفاق أو التوافق السياسي الوطني وخاصة عبر الحوار الشامل، من أجل تحقيق التكامل بين أشكال النضال بدلاً من وضعها كبدائل لبعضها أو في تعارض ومجابهة مع بعضها البعض، وذلك وفقاً للظروف الموضوعية والذاتية لشعبنا، ومن موقع التوظيف الوطني لمصالحه وأهدافه الوطنية وحماية صموده في أرضه، وليس من موقع التوظيف الفصائلي، أو جراء إملاءات وتأثيرات خارجية.

ففي القضايا المصيرية لشعبنا وأشكال نضاله المشروعة ضد الاحتلال ومن أجل إحباط مخططاته وإنهائه، لا يجوز لأحد أن يفرض رؤيته على الكل الفلسطيني، أو التفرد في القرار السياسي الوطني وخيارات وأشكال النضال، واعتبارها هي الخيار الوحيد الذي ينبغي اعتماده كاستراتيجية للعمل الوطني الفلسطيني برمته، خاصة في ضوء اختلاف الظروف الجيوسياسية بين المناطق الفلسطينية المحتلة وجوارها، وحالة التعددية السياسية لشعبنا، وعديد العوامل الأخرى التي يجب مراعاتها وأخذها في الاعتبار.

فإذا كانت المقاومة المسلحة على سبيل المثال، مهما بلغت قوتها وتأثيرها، ستنتهي إلى المفاوضة، فالمفاوضات لا يمكن أن تحقق أي إنجاز سياسي وطني لصالح قضية شعبنا، إلا عندما تكون تتويجاً لنضالات متنامية ومتعددة الأشكال والأساليب.

وفي هذا الإطار، أي قراءة موضوعية للظروف التي يعيشها شعبنا، وللعوامل التي تميز عملية الصراع مع الاحتلال وتؤثر فيها، ومنها الخلل الحاصل في موازين القوى المختلفة والعوامل الجيوسياسية في فلسطين ومحيطها، تستدعي اعتماد وتوسيع وتعزيز المقاومة الشعبية بتعبيراتها المختلفة وأدواتها الممكنة، كشكل من وسائل النضال الفاعلة والمجربة، وهو ما سبق وجرى التوافق الوطني عليه في أعوام ماضية، وما يتبع هذا الشكل من خطط ونضالات سياسية ودبلوماسية وقانونية على الصعد كافة، دون أن يعني ذلك التخلي عن أي شكل

من وسائل النضال الأخرى التي شرعتها ومنحتنا إياها مواثيق الأمم المتحدة، والتي يمكن إذا ما تطلب الأمر أن تعود لتتصدر أشكال النضال المختلفة في مراحل أخرى وظروف مختلفة، قد تتوفر فيها فرص حقيقية ملائمة للاستفادة منها وتوظيفها لصالح قضية التحرر الوطني.

أما بخصوص استفساركم عن آليات التنسيق مع القوى والأحزاب وعلى وجه الخصوص التنظيمات اليسارية، فقد جرى، خلال الحرب العدوانية الراهنة، التواصل وعقد العديد من الاجتماعات والمشاورات المعمقة مع الأحزاب الشقيقة والصديقة في العالم، وخاصة العربية منها، وجرى تفعيل التنسيق المشترك في العديد من المناسبات والمحافل الإقليمية والدولية مع تلك الأحزاب، من أجل تحقيق الأهداف المرجوة، وكان هناك حرص على التنسيق والتعاون لدعم ومناصرة قضية شعبنا، وصدرت بيانات مشتركة في هذا الشأن.

ونحن نؤكد على أهمية العلاقات والتنسيق المشترك من أجل توسيع وتعزيز التحركات المناصرة لحقوق ومطالب شعبنا والتضامن معه، إضافة إلى السعي لبناء جبهة واسعة ضد التطبيع مع "إسرائيل" ومقاطعتها الشاملة وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها، وتكثيف التحركات الرسمية والشعبية على الصعيدين الإقليمي والدولي من أجل توسيع وتعزيز الاعترافات بدولة فلسطين من جهة، والدفع باتجاه موقف وتحرك عربي ودولي موحد، رسمي وشعبي، يرتقي إلى مستوى التعامل المفترض مع حجم الحرب والكارثة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني، والإسراع في وقفها فوراً، حيث فاق عدد ضحايا هذه الحرب الوحشية من أبناء وبنات شعبنا الشهداء والمفقودين والجرحى والمعاقين والمعتقلين، أي تصور كان. ويعاني قطاع غزة اليوم من دمار واسع يشمل كامل جغرافيته، إضافة إلى انقطاع تام لمقومات وشرايين الحياة الأساسية، وأصبح غير صالح للحياة الآدمية، بسبب الكارثة المستمرة التي تتسع وتتعمق نتيجة هذه الحرب الهمجية لجيش الاحتلال، في انتهاك صارخ لكل مبادئ وأحكام القانون الدولي الإنساني وخاصة اتفاقيات جنيف لعام 1948، ولمواثيق وقوانين حقوق الإنسان كافة.

هذا إضافة لضرورة الوقوف أمام المخاطر الإسرائيلية على مصالح وسيادة واستقرار شعوب ودول المنطقة، وتهديداتها للآمن والسلم الدوليين، من جهة ثانية.

مع الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني:
الدولة أو المقاومة؟
حنا غريب: مع حصر السلاح شرط مقاومة الدولة!

حاوره: زهير الجزائري

الثقافة الجديدة: الرفيق حنا غريب* كنتُ في لبنان قبل أيام ورأيت أن المجتمع اللبناني منقسم. لا يشبه الانقسام الذي حصل في الحرب الاهلية. الانقسام موزع على أطراف عديدة. ما هو موقف الحزب الشيوعي اللبناني من هذا الانقسام؟ الدولة أم المقاومة؟

حنّا غريب: الانقسام يتعلق بقرار الحكومة بحصر السلاح بيد الدولة، ويتعلق بالظروف التي جاء بها القرار. أولاً جاء القرار تحت ضغط متتالٍ قام به المندوب الأميركي. زيارات متتالية بين لبنان والكيان الصهيوني وبنفس الوقت الى سوريا. خلال زياراته أراد أن يبين موقفا يتعلق بموضوع حصر السلاح. هناك موقف من الحكومة اللبنانية وموقف من الكيان الصهيوني إلى أن وصلت الأمور الى ما قبل اتخاذ القرار. جاء

المبعوث الأميركي الى لبنان ووضع ورقته وطلب ان توضع هذه الورقة الأميركية على جدول عمل الحكومة اللبنانية، وطلب ان تترك جميع الأوراق الأخرى وان يتم الرد على هذه الورقة، إما بالموافقة أو بالرفض. لا ننسى ان هناك اتفاقية الهدنة بين لبنان وفلسطين المحتلة.. هذه الاتفاقية شطبت، وبالتالي ستصبح الحدود مفتوحة ومكشوفة وليس لها أي تغطية دولية ولا قوانين تحكمها. ما يحكمها فقط سياسة إسرائيل العدوانية التوسعية، وقد سبق وأعلن نتنياهو عن خريطة إسرائيل الكبرى التي تضم لبنان وسوريا والعراق وصولاً الى مصر. وهم يعملون على ذلك بشكل علني.

نحن نرى الموضوع من خلال البعدين، الداخلي والخارجي. ما يحصل في لبنان ليس بمعزل عما يحصل في سوريا وفلسطين، لذلك نحن نأخذ هذا البعد بعين الاعتبار. البعد الاخر يتعلق بالنظام الطائفي والمذهبي الذي يحوّل جميع القضايا إلى إنقسام طائفي ومذهبي. هذا يدل على فشل. نحن مع قرار حصر السلاح بيد الدولة، على أن يكون الأمر جزءا من خطة أمنية متكاملة جرت الإشارة لها في خطاب القسم لرئيس الجمهورية. موضوع حصر السلاح يجب ان يكون ضمن خطة متكاملة تضمن وقف العدوان الصهيوني. لأنهم لا يزالون يعبرون الشريط الحدودي ويغتالون بالإضافة الى المسيرات والقصف، بالتالي من المفترض ربط هذا الموضوع بوقف العدوان وانسحاب الاحتلال حتى خط الهدنة. ونحن هنا نحذر من أي تنازل يخص حقوق لبنان السيادية والوطنية. نقول ذلك لأنه سبق وتم تقديم تنازل، أشار إليه الحزب، بموضوع ترسيم الحدود البحرية فقد جرى تنازل كبير جدا ليس مع الكيان الصهيوني. بدل أن يكونوا على الدرجة تسعة وعشرين تنازلوا على الدرجة ثلاثة وعشرين خلافا لما يقوله الجيش اللبناني. كذلك جرى التنازل مع قبرص، بالإضافة الى الكثير من التنازلات في الحدود البحرية. وانتقلت هذه التنازلات للحدود البرية، وبالتالي تم ضرب خط الهدنة وانكشف لبنان وحدوده بدون اي مقابل وبدون اي شيء وهذا ما كنا نحاول ان نشير له.

الخارجي والداخلي

الثقافة الجديدة: اريد ان أسال عن فهم الدولة نفسها، الدولة التي تسلمت الورقة كيف تفهم المخاطر، الضغط الخارجي الأمريكي والإسرائيلي المعلن او الخوف من الجو الشعبي؟

حنا غريب: هذا يتعلق بموضوع السلطة السياسية، التي لم تقاوم، بتاريخها، الاحتلال. لذلك كنا نركز بالموقف على ان حصر السلاح بيد الدولة يجب ان يتلازم مع مقاومة الدولة لهذا الاحتلال. وهو ما لم تقم به الدولة اللبنانية طوال تاريخها بحكم طائفيتها، بحكم تبعيتها، بحكم رأسماليتها وسلطاتها والوصايات. وهي دائما تحكم الطوائف فيما بينها. كل طائفة تريد ان تحمي نفسها عن وصي لها بالخارج. وبالتالي هو نظام التبعية ونظام الوصايات. لذلك نركز على هذا الموضوع. والدولة بتاريخها لم تسلّح جيشها إلا بإرادة الامريكان. كنا نطالب على الاقل بعملية التسليح ومصادر التسليح من اجل يكون الجيش قادراً على مقاومة العدو في ظل التكنولوجيا المتطورة جدا. وهذا شيء جديد

اظهرته المواجهة والمعركة الاخيرة التي حصلت في لبنان مع حزب الله. لم يكن هناك تقدير لحجم التحضير وحجم هذه التكنولوجيا المتطورة وحجم الاختراق التكنولوجي الكبير والذي حسم الكثير من المسائل، وادى لهذه الضربة الموجعة. نحن بحاجة إلى ان يحصل حصر السلاح بتفاهمات داخلية، لبنانية لبنانية، وليس بالخضوع، وهذا أمر له أولوية وبنفس الوقت يجب ان يكون ضمن خطة اصلاح سياسي، إصلاح اقتصادي، واصلاح اجتماعي.. كل هذه الاصلاحات التي تحدثوا عنها في خطاب القصر أو بالبيان الوزاري الذي رحب به كل اللبنانيين.

من المؤسف إن كل ما طرح تم شطبه ولم يبق الا موضوع حصر السلاح، في حين انه ما يحصل هو نوع من استكمال عملية النهب والسرقة والفساد المستمرة والتي لا تزال بدون اي اصلاح فعلي حقيقي. على سبيل المثال التعيينات أصبحت محاصصة طائفية مذهبية، والحكومة تشكلت بالمحاصصات الطائفية والمذهبية، والتحالف ايضا، بما فيها موضوع البلديات لم يتغير شيء. القوات اللبنانية وحزب الله تجدهم بنفس اللائحة في انتخابات البلدية ببيروت تحديدا، حتى بالانتخابات النقابية وانتخابات الأطباء وانتخابات أساتذة التعليم الثانوي. لم يتغير شيء، الأولوية التي تحصل بالداخل هي موضوع المصالح السلطوية والمحاصصة الطائفية. الاختلاف على حجم حصة كل واحد منهم، ورغم كل ذلك لا يزالون في الحكومة.

مقاومة وطنية لا طائفية!

الدفاع عن الشعب اللبناني ومقاومة الاحتلال هو حق مشروع. مكرس بالقوانين والمواثيق الدولية. طالما هناك احتلال ستواجهه مقاومة وطنية. عندما نقول وطنيّة نعني أن تكون معزولة عن اية هوية طائفية، شيعية او مسيحية او سنية او درزية الى آخره. وبالتالي فكرتنا التي نتمسك بها هي ان تكون المقاومة وطنية لبنانية. وهذا موجود في ثوابتنا التاريخية.

الثقافة الجديدة: إذا حذفنا حزب الله من المقاومة او استثنيناه، فما هي تشكيلة المقاومة؟

حنا غريب: إذا تحدثنا عن تشكيلات المقاومة الآن، فلا يوجد غير حزب الله. من وقت الطائف لغاية الان ضغطوا علينا وعلى غيرنا من القوى لتسليم السلاح. وبقينا نحن نقاوم لفترة لكن بضغط النظام السوري والنظام الإيراني والأميركي، بشكل او باخر بعد الطائف، مع ذلك بقينا نقاوم بما لدينا من إمكانيات. في التسعينات انهار الاتحاد السوفيتي وتغيرت الاولويات عند النظام السوري، فأصبح عليك ان تشارك بمقاومة وطنية بقرار وطني داخلي مستقل خارج اي الأجندات. وهذا كان مرفوضا. لذلك عندما يذهب الرفاق في عمليات، في هذه المرحلة تحديداً، يتعرضون للقتل سواء ذهاباً او إياباً. هذا الوضع الذي كنا نعيشه، بالاضافة إلى وقف الدعم. تظافرت الكثير من الأمور حينها.

المقاومة الوطنية ليست مجرد حمل سلاح لتحرير الأرض. هذا جانب من جوانب التحرر الوطني والاجتماعي. مهمتها كذلك بمفهومنا هو تحرير اللبنانيين من الطائفية، ومن الاستغلال الطبقي ومن الفساد ومن

التبعية والارتهان للخارج والاملاءات الخارجية. ينبغي أن تكون نابعة من قرار وطني داخلي، وأن لا تقتصر على طائفة او منطقة معينة. مقاومتنا كانت من كل الطوائف ومن كل المذاهب، وكل مناطق لبنان. شاركت فيها احزاب وقوى اخرى ناصرية وقوميين الى اخره، وكانت ذات طابع شعبي. لذلك نجحت في تحرير ثلاثة ارباع الارض اللبنانية. هناك شهداء للحزب الشيوعي اللبناني وشهداء المقاومة الوطنية اللبنانية. على هذا الاساس تجمع وتوزع الاعباء والفوائد تعود على جميع اللبنانيين، وهذا ما حصل بالنسبة لنا، وهو توحيد الجهود والطوائف ولها مفعول بإطار مشروعك السياسي الداخلي وهو بناء دولة. عندما نقاوم ليس فقط بحمل السلاح وانما هو مشروع سياسي، هو تحرير القرار السياسي للدولة اللبنانية من الهيمنة والسيطرة ومن التبعية للاميركي وللخارج ولكل المشاريع الإقليمية والدولية. على الدولة ان تقاوم وهذا هو دورها، واذا لم تكن لديك القدرة على التسليح والمقاومة فليس من شأنك ان تمنع الناس من مقاومة العدوان. يجب ان تقوم الدولة بمسؤولياتها وان تكون الدولة هي المقاومة، نحن دعاة دولة مقاومة بكل الميادين، سياسية واقتصادية واجتماعية والعسكرية ايضا. اذا كان عديد الجيش قليلا لا ضير بان تكون هناك خدمة العلم او احتياط للجيش، فثلثا الجيش الصهيوني احتياط فماذا يمنعنا نحن، يجب ان تنتهي عملية الاحتكار، يجب ان يتم تجنيد الشباب عند وصولهم لعمر 18 ويدافعوا عن شعبهم وارضهم كما في باقي البلدان الأخرى، ومن يعمل على ذلك؟ يجب ان تعمل الدولة ولكن ليس الدولة الطائفية، بل دولة المواطنة، الدولة المدنية والديمقراطية ودولة العدالة الاجتماعية.

عقدة الطائفية

الثقافة الجديدة: كيف تتعاملون مع السلطة الحالية، مع الاحتمالات الموجودة مثل الضرب الإسرائيلي والاصطدام مع حزب الله، فكيف تتعاملون مع هذه السلطة؟

حنا غريب: نحن نتعامل معها بناء على الوجهة والبرنامج السياسي الذي وضعناه، فعلى سبيل المثال عندما تم تكليف الرئيس جوزيف عون نحن تعاطينا بانفتاح مع البيان الوزاري ومع خطاب القسم، لكن بإطار الممارسة والتطبيق ما يحصل يشبه ما سبقه. لم يتغير شيء في هذا الموضوع. وبالحديث عن موضوع المحاصصات الطائفية والتعيين فحاكم مصرف لبنان تكلّف من قبل رئيس الحكومة، والجميع كلفه بمن فيهم حزب الله، فهم شركاء في الحكومة. الملفات الداخلية لم يحصل بها أي تغيير. زد على ذلك هناك استحقاقات مثل التحضير للانتخابات النيابية والتي ستكون في ايار المقبل، وهو موجود في البيان الوزاري وبخطاب الرئيس بأنهم يريدون تطبيق ما لم يطبق في اتفاق الطائف، وفي هذا الاتفاق هناك مجموعة بنود أساسية وجيدة وصالحة للوقت الحاضر مثل المادة (95)، تشكيل الهيئة الوطنية لالغاء الطائفية السياسية. منذ اتفاقية الطائف لغاية الآن لم تتقرب الحكومة من هذه المادة. أيضا المادة (22) والتي تقول بأن يكون في المجلس الثاني قانون انتخاب خارج القيد الطائفي، لكنهم لغاية الان وبعد خمسين سنة يقدمون قوانين انتخابية غير دستورية وطائفية، حتى

النسبية شوهوها بالطائفية. هم يرسمون كل شيء وفق قياساتهم، يقومون بتوزيع المقاعد النيابية بينهم، وان بقي عدد بسيط من المقاعد فيقومون باجراء الانتخابات. في المادة (24) والتي تتحدث عن مجلس الشيوخ الذي يهتم بالقضايا التي تخص الطوائف. خلاصة الحديث نحن فعليا ليس لدينا مجلس نواب، المجلس الذي لدينا هو مجلس شيوخ مبني على أساس طائفي، ولذلك كل الأمور تحل على هذه الأساس ويتم حل الأمور فيما بينهم، وان اختلفوا فعلى الحصص، اما جماهير الطوائف فهاجروا من البلد. نصف اللبنانيين والطبقة الوسطى والفئات المهنية والكوادر والعوائل الشابة هاجروا. عندما حاولوا الانتفاض (17 أكتوبر) تم قمعهم. قمعوا الانتفاضة من الداخل ومن الخارج، فبدل ان يتم استرجاع الأموال المنهوبة وحماية حقوق المهنيين ومعاشات التقاعد وصغار المودعين التي تم نهبها لغاية الآن، جرى الانقضاض على هذه الانتفاضة، وبالتالي الأولويات الإصلاحية السياسية لن يقتربوا منها، فهي ليست ضمن أولوياتهم. على أساس هناك قانون انتخابي، ولكن هذا القانون لن ينتج شيئا، بل سيكون أسوأ، فالامريكي اليوم والاسرائيلي والأنظمة الرجعية العربية وغيرها تخطط، بعدما سيطرت على القرار في موضوع الرئاسة وفي موضوع الحكومة لم يعد هناك شيء اسمه السلطة التشريعية، فاذا الحكومة حصلت على الثلثين في المجلس النيابي وفق هذا القانون تكون قادرة على اصدار قرار بالتطبيع واتفاقيات التطبيع، وهذا هو الهدف بالنسبة لهم، وهذا هو المخطط الأمريكي والإسرائيلي، وهم يضغطون بكل الاتجاهات السياسية والعسكرية.

لبنان في خارطة الشرق الأوسط

الثقافة الجديدة: بالملموس تتوضح خارطة الشرق الأوسط (الجديد) جعل إسرائيل جزءا من النسيج الشرق الاوسطي وهي المتحكمة من حيث القوة، ما هو موقع لبنان في هذه الخارطة، وكيف سيكون؟

حنا غريب: وضع لبنان مرتبط بالمنطقة بشكل عام. مشروع (الشرق الاوسط الجديد) هو شكل جديد لتأبيد السيطرة الامبريالية الكاملة على المنطقة بعد ما استنفدت اتفاقية "سايكس بيكو" قدرتها على التحكم بارادة الشعوب ونضالها وكفاحها ومقاومتها طيلة القرن الماضي. الشعوب قاومت هذا المشروع من اجل الاستقلال، ومن اجل التحرر الوطني. القوى الاستعمارية، في وقتها بريطانيا وفرنسا، وضعت خرائط للمنطقة انطلاقا من هدفين، الاول هو تفتيت المنطقة لكيانات تابعة لها غير قادرة على النهوض والتطور من اجل ان لا تهدد مصالحها. والهدف الثاني هو ربط هذا التقسيم بمصالحها النفطية من اجل نهب هذا النفط. بريطانيا وفرنسا رسمتا الحدود وهي من متطلبات هذه السيطرة والنفوذ، ومن ثم دخلت اميركا على الخط واستلموا القيادة من اجل نهب الثروات وموضوع السيطرة على انتاج النفط والغاز. في هذا السياق تم زرع هذا الكيان الصهيوني بفلسطين لخدمة هذا المشروع الذي اسمه مشروع السيطرة والتبعية. أيضا وضعت جيوش قمعية، قمعية للحركات الشعبية وقمعية لليسار، وقمعية للاحزاب الشيوعية، من اجل ان تمنع الجماهير من التحرك من اجل حقوقها. كانت من جهة تقمع في الداخل تحت عنوان (لاصوت يعلو فوق صوت

المعركة)، ولكن لم نر لا معركة ولا أي شيء ولم نر لا حرية ولا اشتراكية. تتغير خرائط الشرق الاوسط، الجديد او القديم، ولا تتغير الأهداف السياسية والاقتصادية للسيطرة والهيمنة ونهب الثروات والتحكم بالممرات. هذا هو مشروع الشرق الاوسط الجديد. لذلك رأينا منه عدة صيغ وعدة نسخ مرهونة بشكل او باخر بموازين القوى. منذ مئة عام ونحن نقاوم "سايكس بيكو" في مواجهة العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، وتأميم قناة السويس، وحرب أكتوبر عام 1973 للرد على النكسة وانطلاقة المقاومة الفلسطينية بعد النكسة، وكان هناك الحرس الشعبي وقوات الأنصار، وبدأ تحرير لبنان وانتفاضات الشعب الفلسطيني ونضالات كل الشعوب العربية التي واجهت كل هذه الانظمة. وفي 2011 قامت الشعوب باسقاط الحكام لكنها لم تقدر على اسقاط الأنظمة. وكانت هناك مواجهات بوجه الاتفاقيات المذلة وصولا لـ "7 أكتوبر"، ومعركة الاسناد الاخيرة التي حصلت في لبنان... السؤال الذي يُطرح في هذا الموضوع عن موقع لبنان كجزء من هذه العملية التي تحصل. فنحن تحدثنا عما نراه لدينا وعند الشعب الفلسطيني هذه المجازر التي تحصل وهذا الصمت وهذه الخيانة لدى الأنظمة.

التفوّق التكنولوجي

هناك أشياء لا يمكن تجاوزها مثل التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي. هناك تطور رهيب في هذا المجال يجب التوقف عنده ومراجعته. الإمبريالية لم تعد سياسية او اقتصادية وحسب، وانما اجتماعية أيضاً، مع امتلاكها للتكنولوجيا الرقمية اصبحنا عبارة عن ارقام عندهم، بالهاتف وبالانترنت وبالحواسيب محتكرين المعرفة كلها لهم، بها اصطادوا مقاومين من حزب الله. هناك اختراق رهيب عبر هذه التكنولوجيا الخطرة. الدول التي تصنّع السلاح جرى استهدافها لمنعها، والأماكن التي يكون فيها تأكيد على التعليم بما يخص موضوع التعليم التكنولوجي والرقمي والاتصالات وغيرها جرى استهدافها، لأنهم يريدونها ان تبقى جاهلة ومحكومة.. هذا هو وضعنا هنا، هذا هو وضع لبنان فنحن في مرحلة سياسية هي الأصعب واكثر المراحل خطورة. من الداخل هناك ازمة عميقة تعصف بالنظام السياسي والاقتصادي. الأطراف السياسية في لبنان تحاول من جديد بناء سلطتها في ظل هذا الواقع وفي ظل هذا المشروع السياسي، هي تواجه مشكلة كبيرة في الداخل.

وهذا الأمر يؤثر علينا، فالشيعي سيتغلب على السني، والسني يتغلب على المسيحي والذي يدفع الثمن هو القوى اليسارية العلمانية التقدمية والديمقراطية. لذلك نحن نطرح موضوع السلم الأهلي لمنع انتقال هذا الخلاف السياسي الى صدام طائفي مذهبي. في الداخل يجري تفكيك ما هو موجود حتى الان وهو الجيش اللبناني، فابسط صدام طائفي سيؤثر وسيتفكك الجيش، واي شيء يحدث في الداخل هو خدمة لإسرائيل، لانها بشكل مباشر ستدخل على الخط وتوسع الاحتلال لتفرض شروطها بموضوع الشرق الأوسط الجديد وموضوع التطبيع. ونحن في هذا المجال ليس لدينا الا التمسك بما طرحناه، فهذا الحزب له تاريخه النضالي وفيه مدرسة وشهداء قدموا دماءهم، منهم فرج الله الحلو

وجورج حاوي ومئات الشهداء والمثقفين والمقاومين والمفكرين، الحزب قاتل من الاستقلال للجلاء للاحتلال الصهيوني ولتحرير الأرض ومواجهة كل المشاريع المذهبية والطائفية. على هذا الأساس لا نقبل ان كل هذه التضحيات التي قدمها شعبنا وحزبنا والمناضلون التقدميون والوطنيون واليساريون، لا نرضى بان تذهب دماؤهم سدى.

الآن يجب ان ننتقل إلى مرحلة انتقالية، ويكون هناك برنامج يحتوي على عدة بنود ومدخله يكون مسألة الانسحاب الإسرائيلي حتى خط الهدنة، ومن جهة أخرى اصلاح سياسي واقتصادي واجتماعي في الداخل.

التأثير السوري

الثقافة الجديدة: لدينا في العراق قلق من الوضع السوري ولا نعلم الى اين يتجه، كيف تنظرون في لبنان للوضع السوري؟ مع خطوات التطبيع مع إسرائيل والتفكك السوري؟ هل تعتقدون ان من الممكن عزل الوضع السوري عن الوضع اللبناني؟

حنا غريب: ما حصل في سوريا ليس إسقاطا للنظام فقط، بل تم إسقاط كل مؤسسات الدولة، الجيش والإدارات وكل المؤسسات. أصبحت سوريا منزوعة السلاح ومجردة من كل إمكانيات التغطية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبالتالي وضع اليد عليها. اتفاقيات التطبيع تتحرك بتسارع مع الإدارة السورية واللقاءات بين الإدارة السورية وممثلين عن الكيان الصهيوني متسارعة جدا. أعتقد أن الهدف من هذا الموضوع هو دفع سوريا للتقسيم، تحت هذا الضغط، والمشروع الإسرائيلي مع سوريا ليس فقط التطبيع وانما يريدون لسوريا التقسيم. رأينا التعامل مع الساحل السوري وموضوع السويداء والطروحات الانفصالية، ورأينا موضوع السيطرة على جبل الشيخ فهو عملياً على بعد 10 كيلو متر من طريق بيروت – الشام، وبالتالي يشرفون من جبل الشيخ على لبنان وعلى سوريا وعلى فلسطين وعلى العراق، ويكون لبنان هنا بين فكي كماشة، خصوصا اذا دخل في عملية التطبيع واعتقد ان مجرى الأمور يمشي في هذا الاتجاه. كان هناك وفد من الإدارة السورية من المفترض ان يصل الى لبنان للتحاور في ابرز العناوين المطروحة منها ترسيم الحدود البرية وترسيم الحدود البحرية، أيضا هناك الموضوع المتعلق بالنازحين السوريين الموجودين في لبنان وموضوع السجناء بالإضافة الى الكثير من الأمور العالقة بين البلدين.

اعتقد ان مصلحة لبنان ان تكون سوريا موحدة، وان يكون هناك حل سياسي ومؤتمر وطني تشارك فيه كل القوى السياسية، وأن يكون هناك نوع من السلم الأهلي ورفض لدعوات الانفصال، وان يكون هناك احترام للحريات العامة ووقف التهجير، بالتالي موضوع مواجهة الإرهاب مطلوب لإيقاف النزف في سوريا وقطع الطريق على التدخلات الخارجية. هذا هو ما نطرحه في اطار العلاقة بيننا وبين سوريا، لان ما قلته ان لم يتحقق ستكون انعكاساته سلبية على لبنان فنحن من دعاة بناء أسس للعلاقات الثنائية على أساس المادية بين البلدين والثقة المتبادلة واحترام سيادة البلدين واحترام حقوقهم ومصالحهم وتكاملهم، هذا ما نطرحه ونؤكد عليه.

الثقافة الجديدة: كلبنانيين كيف تنظرون لظاهرة انحسار الاحزاب الشيوعية، انحسار جماهيريتها وانحسار دورها ؟ كيف تنظرون لها كمراجعة نقدية للوضع؟

حنا غريب: الجميع يعترف بهذا الانحسار ولا يوجد حزب ينكره. نحن نعتقد ان الشكل الذي يتجلى فيه الصراع الطبقي في بلداننا العربية كان يتمحور حول الذي طرحه "لينين" في مقولته الشهيرة على شعوب الشرق والعالم بشكل عام وهي "يا عمال العالم اتحدوا"! نحن كحزب ترجمنا ذلك بنظرية ثورية وأطلقنا عليها اسم (نظرية التحرر الوطني) لشعوبنا العربية، وان القضية الفلسطينية هي القضية المركزية وكذلك القضايا الأخرى في عملية مواجهة هذه الأنظمة في الداخل. فكرتنا قائمة على تحرير علاقات الإنتاج التبعية في بلداننا في عملية صراع طويلة نراها على مراحل. بمعنى ليس علينا ان نجد المشكلة فقط وانما يجب ان نضع الحلول، ونقسّمها على ثلاث مراحل، أولا مرحلة النضال الديمقراطي لتحويل الأحزاب الشيوعية الى أحزاب جماهيرية، وهي ليست جماهيرية الآن وانما في حالة انحسار. المرحلة الثانية على ضوء نجاح هذا الموضوع وموازين القوى وتحالفاتها تكون قادرة على انتاج حكم وطني ديمقراطي بما يؤهلها للانتقال الى المرحلة الثالثة بما يتعلق بالمرحلة الاشتراكية. الأحزاب الشيوعية مطالبة وتتحمل مسؤولية هذا الانحسار، وعليها ان تجد الحل لأزمتها، فالبرجوازية فشلت وفشلها تجلى بزرع هذا الكيان وموضوع تقسيم فلسطين. في المرحلة الثانية التي خاضت فيها البرجوازية الصغيرة معاركها على اساس الانقلابات ومن ثم الوحدة والحرية والاشتراكية وغيرها، وأوصلتنا الى نفس النتيجة، التي وصلنا اليها. وذكرت في هذه الانهيارات وفي نتائج انتفاضات شعوبنا العربية. وفي النهاية وصلنا الى ان الإسلام السياسي تم تصديره تحت عنوان الممانعة، وهو تصدر للواجهة وبدعم من ايران وبتحالف مع سوريا. ضمن هذا المحور تصدروا هذه المعركة، وقدموا ما لديهم ونحن قدمنا أيضا كاحزاب شيوعية ويسارية، لكن ما كان يحصل في قيادة هذه الحركة كانت تنتهي الى مساومات واتفاقيات، ومن ثم الى التراجعات التي تحصل بموضوع القضية الفلسطينية التي تجري تصفيتها بخطوات متسارعة ضمن المشروع الامريكي الصهيوني في تنفيذ مشروع الشرق الاوسط الجديد. وفي هذا الظرف السياسي التاريخي على الأحزاب الشيوعية ان تطرح حلا لأزمتها وأزمة حركة التحرر العربي وحل ازمة قيادتها بانها تتولى هي كيسار فعلي حقيقي في تحالف تقوده الطبقة العاملة واحزابها اليسارية، وتجدد هذه الحركة. المطلوب ليس تحرير الرأسمالية وانما التحرر من الرأسمالية. هذه الرأسمالية والتبعية وصلت بالمواجهة ومسار بلداننا الى طريق مسدود. وهم يعلمون ماذا فعلوا بحكم السيطرة وبحكم نظام السوق ومنع التصنيع ومنع الزراعة ومنع التكنولوجيا والتطور العلمي والأبحاث والجامعات. قاموا بضرب كل هذه الأمور، بالتالي اصبحنا مثل العبيد. لن يتم تحقيق التطور الوطني في بلداننا اذا لم يتسلم القيادة تحالف تقوده الطبقة العاملة وأحزابها اليسارية. على هذه الأحزاب ان تطرح نفسها وتعيد النظر في برامجها

واضعة اولويتين: الأولى هي المقاومة بكل الوسائل المتاحة والملائمة وحسب ظروف كل بلد بما فيها البلدان التي تتعرض للاحتلال وبشكل أساسي موضوع المقاومة المسلحة ضد العدوان الصهيوني وضد الاحتلال الأجنبي. وفي نفس الوقت أولوية مواجهة التبعية والقمع والاستبداد السياسي والاجتماعي. وعلى هذا الأساس بالإمكان المعالجة ووضع النقاط على الحروف، والفكرة التي نطرحها في معالجة هذا الموضوع هي ان تتوحد الأحزاب الشيوعية على هذه النظرية، وهي نظرية التحرر الوطني والاجتماعي. لا توجد نظرية ثورية ولا أحزاب ثورية فعلية على ارض الواقع من دون نظرية التحرر الوطني. هذه النقطة لغاية الان غير محسومة بشكل جماعي وبشكل موحد، وبالتالي النقاش فيها أكثر من ضروري.

*** من مواليد طرابلس في أيلول (سبتمبر) 1953. دخل الحزب من خلال العمل في (اتحاد الشباب الديمقراطي اللبناني)، مروراً بالعمل النقابي وقيادة الإضرابات.**

أدب وفن

لماذا يخافون الأيديولوجيا؟

حسب الله يحيى

يحذر عدد من المثقفين وشغيلة الفكر والابداع من وقوع كتاباتهم ونصوصهم في (الأيديولوجيا). ومصدر هذا الحذر، كونهم يعتقدون ان (الأيديولوجيا) فكر جامد ومحنط ومتخلف..

ومثل هذا الفهم يعد قاصرا، لأن هذا السكون في الفكر وسواه من أنماط الحياة، لا يمكن الركون إليه ولا الاستسلام له، بوصفه يحمل بذرته المتخلفة التي ليس بوسعها ان تنمو، لأنها في الاصل تعاني من هذه السكونية والجمود والثبات الزائف.

ان هذا الاعتقاد، ليس فكرا ينتمي الى منظومة معرفية متطورة. ان (الأيديولوجيا) ليست موضوعة في قالب حديدي.. ان ذاك (معتقد) غير قابل للتطور، غير قابل للمعايشة مع متغيرات العالم.

ان إدانة هذا المعتقد او التفكير على وفقه، امر صحيح وسليم.

فـ (الأيديولوجيا) عقل يفكر، وموقف ذهني يحدد مسؤولياته، على وفق الراهن العلمي والمعرفي المتجدد، وهذا لا يعني أبدا ان المتغيرات النفعية الانتهازية التي تغير ذهنيتها كما لو انها تغادر موقعها وملابسها وتتقمص الدور الملائم لبقائها.. بل على العكس تعد (الأيديولوجيا) ذاكرة الوعي وأفقه ودلالته ورؤاه ومعطياته.. وبالتالي لا يمكن ان تكون هناك إرادة من دون (الأيديولوجيا).

من هنا نرى، ان الدعوة السلبية الى ان يتخلى الأدب والفن والمعرفة عموما عن (الأيديولوجيا)، إن هي إلا منطق بالغ السذاجة والجهل، وبالتالي من شأن هذا التخلي الوقوع في الفراغ واللاجدوى واللامعنى لأي شيء. ونقصد هنا الفكر التنويري وليس الأيديولوجيا الفاشية المعادية لحرية الشعوب. فالأخيرة يكون التحريض ضدها امرا واجبا.

إن (الأيديولوجيا) صنو العقل، ومنطق العمل الإيجابي السليم في حقول الحياة كافة، وإذا عزف البعض عن (السياسة) لأنها مرتهنة بـ(الأيديولوجيا) فإن هذا العزوف ليس خللا في تلك السياسة وإنما بالجمود العقائدي الذي يحدد مسارها من دون تطورات واضحة تتعلق بمتغيرات الأوضاع الاقتصادية على وجه التحديد، وبالتالي تقود الى الفشل الذريع والشمولية المحدودة الأفق.

(الأيديولوجيا) مسار وعي، وموقف دائم الإضاءة إزاء ما كان وما هو كائن وما سوف يكون.. انه الماضي المصفى من الشوائب، والحاضر المدرك لطبيعة ما يجري والمستقبل المنظور عن طريق رؤية فكرية نيرة.

رحيل

صنع اللّه إبراهيم .. من السجن الى افق الرواية

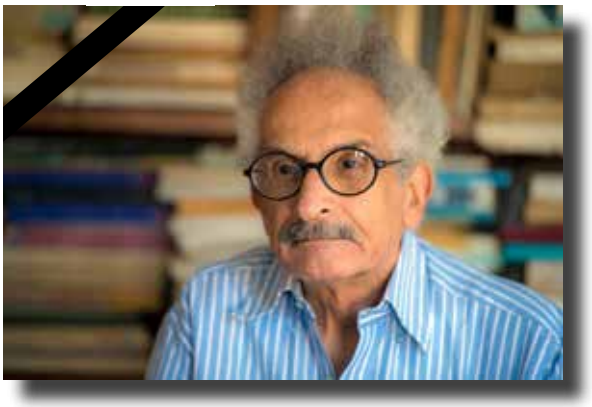

صنع الله براهيم (1937- 2025) روائي مصري، رحل وفي حصاد منجزه الإبداعي نقرأ سلسلة من الأعمال الروائية الفذة التي كونت هويته بوصفه الروائي التسجيلي العربي بامتياز.

صنع الله.. صنع روايات استثنائية وظف فيها تجربته في السجون المصرية بوصفه شيوعيا، وقدمت له حياة السجن منطقة مهمة للكتابة الحية مثلما صقلت تجربة الاغتراب الى موسكو وبرلين وبلدان اخر.. روايات جادة.

انه من طراز الروائيين الملتزمين بترسيخ الفن الرفيع المعبر عن قضايا ومعاناة الشعب.. هذا الميدان الذي عرفه وسبر غوره بإخلاص ورؤى مبدئية تقدمية راسخة.

كانت اعماله تقدم صورة بانورامية عن حياة إنسانية شاقة، بدءا من روايته البكر (تلك الرائحة) التي أصدرها عام 1966 والتي انطلقت من السجن حتى روايته الأخيرة (1970) الصادرة عام 2019 والتي تناول فيها بوثائقية عهد عبد الناصر.. مرورا بأعماله: اللجنة، ذات، شرف ـ وكلاهما تحولا الى مسلسلين تلفزيونيين هامين ـ، برلين 69، وردة، العمامة والقبعة، البيضاء، امريكاني، الجليد، النجوم زرق.

لروحه النقية السلام والطمأنينة والذكر المضيء

هيئة تحرير
مجلة الثقافة الجديدة
آب 2025

المثقف وقدرته على إحداث الوعي/ كامل شياع مثالاً*

أ.د باقر محمد جعفر الكرباسي

مفتتح

على الرغم من سعة تداول مصطلح (النخبة) في العلوم الاجتماعية والسياسية الحديثة، إلا أن هذا المصطلح يظل يمثل واحداً من المصطلحات والمفاهيم الخلافية الإشكالية الكثيرة، إذ يرتبط هذا المفهوم بآلية تحديد تراتب الطبقات والشرائح والفئات الاجتماعية المختلفة في السلم الاجتماعي، ويذهب علماء الاجتماع الى النظر للنخبة بوصفها تمثل صفوة أو طليعة أو شريحة منتقاة محدودة بالتأكيد، تمتلك مؤهلات فكرية وإدارية.

إن دراسة إشكالية علاقة المثقف بالجماهير لا يستقيم أمرها من دون المرور بإشكالية الأول بالسلطة، فمنذ بدايات عصر النهضة العربية كانت مسألة الهوية ذات طابع متميز ووضع اهتمام خاص وطبيعي لدى مفكري ذلك العصر من جمال الدين الأفغاني (ت1897م) ومحمد عبده (ت1905م) وعبد الرحمن الكواكبي (ت1902م) ومحمد رشيد رضا (ت 1935م) إلى عوامل مسيحية ذات أجيال متتابعة مثل البستاني (ت1883م) والشدياق (ت 1887م) واليازجي (ت1871م) والكرملي (ت 1947م) الى مفكري ما بعد النهضة أمثال شكيب أرسلان (ت1946م) ومحمد كرد علي (ت1953) وشبلي شميل (1917م) وفرح أنطوان (ت1922م). وكانت العروبة موضوع إجماع واهتمام هؤلاء وإن تخللها حرص على الإسلام السياسي – لدى المسلمين منهم – وفاءً للرابطة العثمانية من ناحية، وجزعاً من المطامع الإنكلو – فرنسية من ناحية أخرى، فكان سقوط الدولة العثمانية وقيام أتاتورك، أسقط حاجزاً مهماً أمام المزيد من النضج للهوية القومية العربية التي كان الحرص (المشروع) على دولة الإسلام يعيق نموها – أحيانا - للوصول إلى نتائجها المنطقية والضرورية. ويشهد الجزء الثاني من العشرينات حتى أوائل الخمسينات من القرن الماضي حواراً فكرياً خصباً بين دعاء العروبة و(المذاهب) الأخرى من (مصرية) سواء كانت فرعونية أو متوسطة أو إقليمية و(سورية) سواء كانت هلال خصيبية بي أو (فينيقية) والأممية سواء كانت إسلامية أو ماركسية. وهذا الجدل الفكري الخصب والحيوي توّج المد الخمسيني الذي شهد

استقلال بعض الدول العربية من استبداد الهيمنة الاستعمارية.

والثقافة هي انعكاس لحركة المجتمع في وعي تراكمات الماضي وتفاعلات الحاضر وتوقعات المستقبل، وهي نتاج حقيقي لكل أنشطة الحياة المختلفة، والنظام السياسي عجز عن استيعاب مفهوم الثقافة ودورها في بناء الإنسان؛ إذ أن العجز هذا يؤدي إلى انقطاع طرق التواصل بين السلطة والمجتمع، ففي الدول العربية ما زال النظام السياسي يبتلع المجتمعات من دون أن يستفيد من تجارب التاريخ وتراكمات التجربة الإنسانية، وهو ما أدى إلى انحسار الثقافة وحتى تقاطعها وتباعدها عن حركة المجتمع وفعاليته في تطور معايير العمل السياسي، فالثقافة ليست سلطة سياسية تسن القوانين، وتطالب الناس بالإذعان لشروطها، أنها إنتماء أخلاقي للإنسان والمجتمع على حد سواء، تتم تنميته داخل الإنسان من خلال فهم السلطة لمتطلبات الثقافة وضرورة إشاعتها لخلق رأي حر يساعد على استمرار السلطة السياسية نفسها وترسيخ أمنها، وليس من حق السلطة السياسية اقامة حواجز أمام الثقافة عن طريق تحجيهما أو احتوائها أو تعطيلها أو مناصرة فكر على آخر.

إن اختياري للشهيد كامل شياع لم يأت اعتباطا وإنما لدوره الهام في إرساء ثقافة وطنية تحمل هوية جامعة لعراق ما بعد 2003، ومن خلال الفكر التنويري الذي كان يحمله استطاع ان يؤسس لثقافة وعلاقة مع الجماهير مع غرس روح المواطنة وإعلاء شأن الهوية الوطنية على حساب كل الانتماءات الفرعية والتشجيع على التمسك بالوحدة الوطنية.

كلمات مفتاحية

1 - الثقافة:

لغةً: ثَقُفَ يثْقُفُ: صار حذقاً فطناً

أ - الشخص: صار حاذقاً

ب – العلم: حذِقة

ج – الشيء: ظفر به

ثقافة مصدر ثقفَ، الجمع ثقافات[1]

اصطلاحا: الثقافة حسب ما جاء في المصطلحات العلمية والتقنية أنها:

(كل ما فيه استشارة للذهن، وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو المجتمع)[2]

2 - الهوية:

إن لفظ (الهوية) بضم الهاء في اللغة العربية مصدر صناعي مشتق من الضمير (هُوَ)، فالهوية مأخوذة من الهُوَ هُوَ وهي في مقابلة الغيرية[3]، ويدل مفهوم الهوية عند الشريف الجرجاني على معنى ذات الشيء وجوهره المعبر عن وجوده مجرداً من الزمان. قال الجرجاني في تعريفاته: (الهوية الحقيقية المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق) فالهوية بهذا المعنى مطابقة للماهية والذات.

3 - التنوير:

لغةً: نَوَّرَ يُنَوِّرُ تنويراً: الصبح: أسفر وظهر نورُه. الشَجرُ: خرج نوره، المكان: أضاءَهُ، الرأي: أوضحه، على فلان: أرشده وبين له أمراً.

استنار يستنير استنارة: الشيء أضاء به: استمد نوره منه، استنار الشعب: صار مثقفاً واعياً[4]اصطلاحاً: حركة فلسفية بدأت في القرن الثامن عشر الميلادي تتميز بفكرة التقدم وعدم الثقة بالتقاليد وبالتفاؤل والإيمان بالعقل[5].

4 - المثقف:
شاع استخدام مفردة المثقف في اللغة العربية في الأدبيات الاجتماعية والسياسية، ولفظة مثقف مشتقة من فعل (ثقف) بمعنى حذف وفهم وأدرك، أما في اللغات الأدبية الحديثة، فقد استخدمت مفردات عديدة للإشارة إلى مفردة المثقف منها المتعلم والدارس والمتمرس والمثقف المطلع والمفكر النشط، فقد عرف (ماكس فيبر) المثقفين أنهم: ''مجموعة من الأشخاص الذين تمكنهم صفاتهم الخاصة من النفاذ إلى منجزات لها قيمة ثقافية كبرى''[6]، أما مفهوم المثقفين في الإطار الماركسي: ''هم نتائج الطبقات السائدة في المجتمع، فيعملون على خلق أيديولوجية طبقاتهم التي تعكس نمط تفكير وأسلوب حياة هذه الطبقات''[7]، ويرى الماركسي الإيطالي انطونيو غرامشي (1891–1937م) في المثقف، وهو ما تداوله المثقفون العرب كثيراً: ''أن المثقفين ينقسمون من الناحية الوظيفية إلى جماعتين: جماعة المثقفين التقليديين كالأدباء والعلماء وأساتذة الجامعة والصحافين والإداريين، وهم الذين يتبنون موقفا حيادياً من الطبقات ولا ينتمون إلى طبقة بعينها، وهناك جماعة من المثقفين العضويين وهم العنصر المفكر والمنظم في طبقة اجتماعية معينة، ويرون أنهم مكلفون بالدفاع عن أفكار هذه الطبقة ومصالحهم وتطلعاتهم''.

5 - المواطنة:
لغةً: وطَنَ يطن وطناً فهو واطِنْ: الشخص بالمكان: أقام به.
وطن يوطّن توطيناً: أ – الشخص بالبلد: اتخذه وطناً وسكناً يقيم به.
ب – الشخص: أنزله سكناً يقيم به.
وطن يواطن مواطنة: القوم: عاش معهم في وطن واحد.
مواطنة: مصدر واطن: نزعة ترمي الى اعتبار الإنسانية أسرة واحدة وطنها العالم وأعضاؤها أفراد البشر جميعاً.
وطن: الجمع أوطان، بلد الآباء والأجداد ومكان إقامة الإنسان ومقره.
وطنية: مصدر صناعي، حب الوطن والإخلاص والتضحية من أجله[8].

مدخل معرفي:
- ولد الشهيد كامل شياع في بغداد في الخامس من شباط سنة 1954م.
- من عائلة بغدادية كبيرة وهو الثاني في تسلسل الأبناء.
- في مدينة بغداد درس وتعلم وتخرج مدرساً للغة الإنجليزية.
- رفض الانتماء إلى حزب البعث الحاكم إثر سياسة تبعيث التعليم فاختار الرحيل ومغادرة العراق سنة 1979م.
- إقام في الجزائر أول الأمر وعمل مدرساً للغة الإنجليزية وكذلك إيطاليا التي نشر فيها قاموساً للمسافرين ورجال الأعمال (إنجليزي - إيطالي - عربي).
- استقر في مدينة لوفان البلجيكية سنة 1983م.
- حصل على شهادة الماجستير في الفلسفة من جامعة لوفان الكاثوليكية عن رسالته (اليوتوبيا معياراً نقدياً) والتي حاز بها درجة الامتياز.
- دار المدى للنشر والطباعة طبعت رسالة كامل شياع ككتاب وأصدرته سنة 2012 م.
- في المنفى وسع الشهيد كامل شياع اهتماماته بالثقافة والفلسفة الأوربية لتشمل الرسم والسينما والمسرح وفن الفوتوغراف.
- ولأنه موسوعي الثقافة فقد حاضر في

مواضيع كثيرة وأكسبه ذلك مكانة مرموقة بين أبناء الجالية العراقية في المنفى.
- أقام علاقات صداقة واسعة مع مواطنين من جنسيات مختلفة.
- المنفى ظل شاغله وعمله الأكبر، فقد عمل صحافياً خلال إقامته في مدينة لوفان وكتب في مواضيع متنوعة في صحيفة (الحياة) اللندنية وكذلك مجلة (الوسط) ومجلة (مواقف) الفصلية ومجلة (الثقافة الجديدة) الشهرية الصادرة في بغداد، وراديو (في. آر. تي) الدولي القسم العربي/ بروكسل، وقسم التلفاز الدولي في بروكسل.
- عاد إلى بغداد سنة 2003م ليسهم في بناء عراق جديد وعين مستشاراً لوزارة الثقافة.
- كان الراحل نشيطاً في محاولة استعادة الثقافة العراقية لدورها الريادي والإيجابي في المجتمع.
- نظم مؤتمراً للمثقفين العراقيين سنة 2005م، وكان مؤتمراً ناجحاً على الصعد كافة.
- اغتيل في بغداد على يد مسلحين مجهولين وكان حادثا مفجعاً في 23 / 8 / 2008.
- رحل الشهيد كامل شياع وهو يحمل مشروعاً وطنياً للثقافة العراقية.

المبحث الأول

راهنية المناخ الفكري والثقافي والسياسي والاجتماعي

خرجت الدولة الوطنية في العالم العربي من قبضة الاحتلال الأجنبي إنجليزياً كان أو فرنسياً بعد كفاح طويل ضد الاستعمار، شاركت فيه كل الطبقات باستثناء تلك التي اختارت الارتباط بالاستعمار، وفيه مصالحها الضيقة، وعزلت نفسها عن التيار الوطني الشعبي العارم المعادي للاستعمار، ولكن التحالفات الواسعة المنظمة أو العفوية التي تشكلت في مواجهة الاستعمار الأجنبي سرعان ما تآكلت تحت ضغط الصراع الطبقي في ظل الدولة الوطنية. ولم تفلح الطبقات البرجوازية في إدارة السلطة المنفردة نتيجة لضعفها التكويني من جهة وغلبة الطابع الزراعي الإقطاعي على التشكيل الاجتماعي، فضلا عن قوة ونفوذ القبائل والعشائر استمراراً لتراث وتقاليد ما قبل الحداثة من جهة أخرى، وأن هذا الواقع سبب في تقدم الجيوش بوصفها القوى المنظمة والعصرية للاستيلاء على السلطة في عدد من البلدان، ومن ثم نشوء الدولة العسكرية في عدد من بلدان الوطن العربي[9].

بدأت المرحلة الأولى من النهضة العربية والتي أسماها برهان غليون (التحديثات الإسلامية)، والتي عملت على جمع الفكر العربي آنذاك بطابع نقد الذات، إذ وجد الكواكبي في كتابه (طبائع الاستبداد) نقداً لاذعاً للتقاليد السلطانية الاستبدادية والتي سارت باسم الإسلام. كما نقد علي عبد الرزاق مفهوم الخلافة في الإسلام وارتباطها بمبدأ القوة والاستبداد في كتابه (الاسلام وأصول الحكم)، هذه الحقبة التي استغرقت النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين لم تكن حقبة إبداع بقدر ما كانت محاولة نقد الذات؛ فقد نادى متنورو هذه الحقبة بضرورة التجديد، ولكن من داخل الثقافة والفكر العربيين "كتجديد الفكر الإسلامي وفقهه وتجديد مفاهيمنا عن الدولة والسلطة في الإسلام". طمح هذا الفكر أن يغرس البذرة الأولى لإعادة تشكيل الوعي العربي بحتمية التقدم بمواجهة التخلف، غير

أن التدخل الاستعماري أجهض هذه النية الغضة وتركها معلقة في الهواء، من دون أن يكتب لها التطور المنشود. ويعد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من أكبر فرسان هذا الفكر.

أما المرحلة الثانية (مرحلة الأيديولوجيات) التي تكونت معالمها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية والتي تناغمت مع سلسلة الإستقلالات الوطنية العربية، وأفضت إلى اشتداد عود حركات التحرر العربي واشتداد المد القومي، إضافة إلى نمو الفكر الماركسي والطروحات الليبرالية. وقد ألّف المد القومي الكبير (مرحلة التفكير في إعادة هيكلة النظام العربي يمكن أن يتم عن طريق الأيديولوجية القومية)، وبرغم ما رافق هذه المرحلة من قيام (دولة إسرائيل) والهزائم المنكرة التي حلت بالعرب، وأشرت اغتيال العقل العربي، وأبرزت فجاجة الفكر التقليدي، وما جاء بعد ذلك من تصدع الأنظمة القومية والوطنية إلا أن ما انجزته هذه الحقبة هو الهوية العربية - كمعطى ثقافي-إذ تم ترسيخ هذه الهوية لدى الشعوب العربية كافة. ويعد ذلك من المكاسب الكبرى في التاريخ العربي الحديث.

وحصل الانفصال بين سوريا ومصر سنة 1961م، والذي مهد لهزيمة الخامس من حزيران سنة 1967م لتعلن خيبة الفكر القومي العروبي، وكرد فعل على هزائم وخيبات الفكر العربي بتنوعات دشنت المرحلة الثالثة (وهي سبعينات القرن الماضي) في مسيرة النهضة العربية البائسة، إذ اتصلت هذه الحقبة بقوة التطرف وتمايز الانشطار؛ فمن جهة ظهرت إشارات لإعادة إنتاج الاصولية الدينية تحت يافطة (الصحوة الإسلامية)، وقد شجعت الأنظمة العربية والغرب ولاسيما أمريكا على إعادة إنتاج الأصولية السلفية (كمضاد نوعي) لمواجهة الأصول الدينية الشيعية المتصاعدة في إيران، فكان الخطأ التاريخي/ الكارثة الذي لم يلحق الأذى بالشعوب العربية والإسلامية وحسب، بل جر الويلات على الشرق والغرب على السواء. ومن جهة ثانية ظهرت دعوات تعلن بكل صراحة ومنتهى التطرف وتدعو إلى الارتماء بأحضان الغرب والخضوع التام له[10]. إن إشكالية تمثل الغرب في الثقافة العربية تنهض أساساً من الانبهار العربي المستمر بالتفوق الأوروبي منذ القرن التاسع عشر وبالتفوق الأمريكي اللاحق والحالي، نتيجة قناعة صارت تترسخ في كثير من ميادين الثقافة العربية، وقد أشار إلى هذه القناعة الدكتور صادق جلال العظم في كتابه (ذهنية التحريم) عندما أسماها (متيافيزيقيا الاستشراق) بسبب إرجاعها (التفوق بين ثقافة وأخرى وبين شعب وآخر ...الخ إلى طبائع كابتة وليس إلى صيرورات تاريخية متبدلة)، ولدت هذه الرؤية الجامدة الى الغرب، تيارين فكريين هما:

1 - التيار السفلي: الذي يدعو إلى تقليد الماضي بما يمثله من إيمان بالمسبقات ويعتقد بقدرة الدين على النهضة.

-2 التيار التغريبي: الذي يدعو إلى تقليد الآخر - الغرب الحداثي - لانبهاره بامتلاك الغرب القوة والسيطرة، وعد ما يصدر فيه مناسباً لنا بالضرورة، وبالتالي عد الغرب القدوة التي ينبغي على النهضة أن تتأسس عليها[11].

أما المرحلة الرابعة في مسيرة النهضة المتعثرة، فهي هذه الإرهاصات والرؤى والأفكار التي من المؤمل ترى النور وتتحول إلى تيار فاعل، والتي يمكن استقراؤها مما

يحصل من تطور في مفهوم الديمقراطية، وحقوق الإنسان لدى العرب، إذ بدأ يدخل الوعي السياسي العربي ليشكل منارة هادية موجهة لجزء لا يستهان به من السلوك العربي - وهي جزء من فكرة المواطنة - كما شهد العالم العربي عملية تجاوز لمفهوم القومية كدعوة وكأيديولوجية متخطياً إشكالية التعارض بين القومية والوطنية المحلية، بعد ما أتضح للوعي العربي وجود تكتل بشري عملاق يضمه الوطن العربي مع الاحتفاظ بالخصوصيات المحلية والتكوينية الفرعية، هذه الخصوصيات لا تتعارض مع تكاتف مكونات هذا التكتل وتلاحمها بشتى السبل والوسائل المتاحة بوصفها شرطاً موضوعياً لقيام تنمية اجتماعية واقتصادية وسياسية شاملة للاندفاع نحو التقدم والحداثة[12].

إنّ المفكرين الرواد والجيل الذي جاء بعدهم يبحثون عن مشروع حضاري عربي يقفون عنده، وحتى لا يظل مصطلح المشروع الحضاري العربي مصطلحاً ضبابياً ويصب في خانة عشرات المصطلحات الملتبسة التي تملأ الساحة العربية ولكي لا يأخذ هذا المصطلح أيضا شحنة يوتوبية خالصة، فإن من الضروري القيام بفحص ابستمولوجي للمصطلح لتحديد دلالاته ووحداته الدلالية وأسباب وغايات استعماله وسياقه التداولي[13].

لقد بدأ هذا المصطلح بالتداول في السوق الثقافية والسياسية العربية في العقود الأخيرة، للدلالة على مشروع النهضة العربية في مختلف أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكما تدل على ذلك التسمية نفسها فإن مجرد مشروع استشراق المستقبل يعكس طموحات العرب النهضوية، كما عبرت عنها نخبهم السياسية والثقافية، ويتسم هذا المشروع بأنه تعبير عن طموح أكثر مما هو تقرير عن الحاضر، إضافة إلى ذلك فهو يتسم ببعده الشمولي من خلال إطلاق كلمة حضاري عليه[14].

سارعت النخب العربية إلى المطالبة بالديمقراطيات والحريات العامة والفردية، ورفعت شعارات الحرية، والمساواة والعدالة الاجتماعية والتمثيل الشعبي والنظم الدستورية وحرية الصحافة والتعليم والليبرالية والاقتصادية وغيرها، وتعددت تسميات الدولة الحديثة في فضاء المشرق العربي بعد الحرب العالمية الأولى، واتخذت أوصافاً عامة لم تحدد بدقة مكوناتها وركائزها ومصادر شرعيتها. وكان الموروث الديني حاجزاً بقوة في تلك التسميات من دون أن يعرف العالم العربي الدولة المدنية، فتحولت دولة الخلافة الى (ملك) بحسب توصيف ابن خلدون في زمن الدولة الأموية وما تبعها من دول عباسية ومملوكية وبويهية وعثمانية ودولة العصبية القبلية وأطوارها بالمفهوم الخلدوني[15].

على جانب آخر توصف غالبية الدول العربية الحديثة بأنها دولة تسلطية لا تمت بصلة إلى مواصفات الدول المدنية في الدول المتطورة، فقد اعتمدت الديمقراطية الشكلية في الفكر والممارسة، لكنها حافظت على كثير من تقاليد القمع الموروثة من مراحل الحكم العثماني والسيطرة الأوروبية بأشكالها المتعددة كالاحتلال المباشر والوصاية والحماية والانتداب، فكانت تلك الدول الوريثة الشرعية لتلك التقاليد من حيث احتكار أسر معينة أو قيادات عسكرية أو حزب واحد مقاليد السلطة في الدول العربية الحديثة وهمينتها على مؤسسات الدولة ورعاياها[16].

المبحث الثاني

كامل شياع وراهنية الوعي في الثقافة العراقية

إن المثقفين الوطنيين والديمقراطيين العرب ليسوا خارج الصراع الحاصل في الأمة العربية بل هم في القلب منهم، هم العصب المستنير لقواه السياسية، وهم المضمون المعرفي والمخزون المعرفي للحركة النضالية من أجل التغيير وبناء الديمقراطية والعدالة، فالدور الطبيعي الطليعي والضروري للمثقفين الديمقراطيين هو: نشر الوعي بتخلف الأنظمة العربية الراهنة وبضرورات التغيير وبالأخص ضرورات النضال العملي من أجل التغيير وإعادة تكوين القوى والأحزاب والتنظيمات السياسية والاجتماعية المعبرة عن هذه الطموحات عبر مختلف وسائل النشر والإعلام والاجتماع والتظاهر من حيث كون هذه القوى تؤلف عناصر الضغط الشعبي من أجل التغيير.

والشهيد كامل شياع تشبث بالثقافة وازداد تشبثه بها مع التجاهل والإهمال والاستهانة في ظل غياب إدراك النخب السياسية الممسكة بمقدرات البلاد لأهمية الثقافة وأهمية دورها وحضورها في حياتنا، وفي إعادة بناء الإنسان والمجتمع والبلاد والنهوض به وبهما، خاصة أن الوطن يخوض معاركه القاسية المتزامنة ضد العنف والإرهاب والتطرف والتعصب والاحتلال والفساد، ومن أجل رص قوى المجتمع الحية في مواجهة قوى الظلام والخراب والانهيار، لقد أدرك كامل شياع مبكراً لا إعمار للوطن من دون إعمار للثقافة - مؤسسات وبنى تحتية ومنابر ومرافق وموروثاً عمرانياً وثقافياً، ومن دون صيانتها وتطوير فاعليتها وتأثيرها في الجميع، ونشر المزيد منها في عموم البلاد، وتحويلها إلى جزء أساس لا يتجزأ من حياة المواطنين اليومية، ووضع حد للإهمال المحيط بمنتجي الثقافة، ومطوري ومكثري إنجازها ونشطائها، من المثقفين الذين يضعون إبداعهم ومواهبهم وجهدهم ووأنفسهم في خدمة شعبهم ووطنهم.

لقد ألفت أزمة المواطنة والهوية والانتماء والولاء هماً كبيراً للشعب والطبقة المثقفة فيه، كونها تؤلف جزءاً مهماً من أرصدة القوة والمنعة للعراق، والتي جرى تشظيها وتسييلها وتفكيكها، وبدلاً أن يكون الجامع المانع هو الهوية الوطنية، جرى التوزع على هويات فرعية تتمحور حول القومية والمذهب والقبيلة والمنطقة، وهو ما أسهم للاحتلال الأمريكي في ايصال المجتمع له، عندما بدأ بتشكيل صورة الدولة العراقية الجديدة على وفق معطيات (مذهبية-وقومية) في مجلس الحكم سيئ الصيت، وهو ما قبلته الطبقة السياسية التي حلت بسرعة على أرض الوطن، للمشاركة مع المحتل في الإدارة والحصول على المغانم، من دون أي موقف حقيقي تجاه ما تخفيه أجندة هذا الاحتلال، ولذلك كانت هذه الطبقة وأحزابها سلبية تماماً، بإزاء ما كان يجري، بل أنها غضت الطرف وأشاحت بوجهها عما يحدث، وبذلك سمحت بأن يتم استنبات عوامل جديدة للتشرذم في المجتمع وإعادة دورة الثأرية والضعف[17]. إن الهوية والانتماء والمواطنة مواضيع إشكالية، والبحث فيها هو الآخر إشكالي أيضاً، وتكمن الإشكالية ليس كونها نتاجا ابستمولوجيا/ معرفيا بامتياز، بل كون لغة الحوار لا تستقيم بين مواريث وايديولوجيات لا تؤمن بهذه المفاهيم، إلاّ في حدود الاستخدام المنفعي الضيق، وبين حركة

تغير وثقافة وارتقاء إنساني جديد، يتطلع إلى قبول التنوع والتعدد والحوار الإنساني مع الآخر، فالإنسان على الأرض مهما اختلف شكله ودينه ومشاربه (إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق).

كامل شياع المثقف

مع ان المفهوم الدلالي لكلمة (المثقف) يشير إلى الحاذق والماهر فكرياً وبما ينعكس أيضاً على حرفة أو صنعة ما، إلا أن المفهوم أخذ أبعاداً أخرى واتسع مداه في التعريف وأصبح محط خلاف واضح، تبعاً لمواقف موضوعية وذاتية وأيديولوجية وسياسية لمفكرين وفلاسفة، جاك لوكوف: يعد المثقفين ''أولئك الذين يشتغلون بالثقافة إبداعاً وتوزيعاً وتنشيطاً، كونها عالما من الرموز يشمل العلم والفن والدين''[18]. أما عبد الله العروي فيرى: ''أن كلمة المثقف تطلق على المفكر والمتأدب أو الباحث الجامعي وفي بعض الأحيان حتى على المتعلم البسيط، بيد أن المفهوم لا يكون أداة للتحليل في العلوم الاجتماعية، الا اذا أطلق على شخصية تظهر في ظروف خاصة''[19]. ويصف جون بول سارتر المثقف بأنه: ''إنسان يتدخل ويدس أنفه فيما لا يعنيه''. أما غرامشي فهو يميز بين نوعين من المثقفين هما المثقف العضوي والمثقف التقليدي فلديه أن المثقف العضوي ''هو الذي يعمل على إنجاح المشروع السياسي والمجتمعي الخاص بالكتلة التاريخية في الوقت عينه يأخذ المثقف التقليدي بتوظيف أدواته الثقافية للعمل على استمرار هيمنة الكتلة التاريخية السائدة''.

في حين يرى ماكس فيبر أن المثقف هو ''المفكر المتميز والمسلح بالبصيرة'' وفي

كامل شياع

مفهوم بارسوتر هو ''المفكر المتخصص في أمور الثقافة والفكر المجدد البعيد عن أمور الحياة'' وبمفهوم الأفغاني هو ''المتعلم، المتعلم فقط''[20]. في حين أن المثقف مرتبط بصيرورة كونية من الرموز الأعم والأشمل ومع واقع حياته العملية والفكرية، وان النفاذ إلى أسرار هذه الرموز والتعبير عن معانيها هو الذي يميز المثقفين والمفكرين في كل مجتمع. آمن كامل شياع بالسياسة الثقافية الوطنية الديمقراطية التي تخدم السلام والاستقرار والتنمية المستدامة في بلادنا، وتضمن حرية التعبير وتأكيد الذات على المستويين الجمعي والفردي والمساواة واحترام الخصوصيات الثقافية وفتح مسالك التفاعل فيما بينها. وبحسب تعبير (غرامشي) كان كامل شياع مثقفاً عضوياً بامتياز، فلم يكتف بتفسير العالم، بل عمل بكل ما في وسعه من أجل تغييره، فهجر المنفى المريح وعاد الى الوطن الجريح، ليساعد في إحيائه وفي إعادة بنائه ديمقراطياً، وكانت القضية بالنسبة له تعني الحياة وليس الموت، رغم أنه كان يعي تماماً بأنه سيكون هدفاً لقتلة لا يعرفهم ولا يظنهم يبغون ثأراً شخصياً منه، كما عبر عن ذلك في إحدى كتاباته.

كامل شياع والمشروع الثقافي الوطني

كان كامل شياع من رواد المشروع الوطني الديمقراطي والثقافة الوطنية الديمقراطية لأنهما لا ينكران وجود الهويات الفرعية (العرقية أو الطائفية) لكنهما بالمقابل لا يكرسان هذه الهويات بديلاً تتماهى في كنفه الهوية الوطنية والتضامن الجمعي والرغبة في العيش المشترك. ثقافة كامل شياع الوطنية الديمقراطية قامت في مقامها الأول على قاعدة هدم النظام (التفاضلي) الموروث ليحل محله نظام يحترم حق المواطنة والانتماء للوطن وحق الفرد في اختيار وجوده، وإشاعة وتكريس ثقافة الحوار والتسامح ونبذ ثقافة الإقصاء والتعصب والعنف، وتحفيز المواطنين على المشاركة الفاعلة في الفعاليات والأنشطة المختلفة للمجتمع، سبيلاً لتوسيع مساحة المشاركة السياسية كرافد حيوي للمشروع الوطني الديمقراطي، وتعريف المواطنين بحقوقهم وحرياتهم وواجباتهم وحثهم على التمسك بها والدفاع عنها وتكريسها في سلوكهم اليومي أي توفير الوقود المجتمعي للمشروع الوطني الديمقراطي، وترسيخ مبدأ المساواة بين المواطنين بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والطائفية أو الطبقية والسعي الى نبذ ثقافة التعصب والاستعلاء، وغرس روح المواطنة وإعلاء شأن الهوية الوطنية على حساب كل الانتماءات الفرعية والتشجيع على التمسك بالوحدة الوطنية[21].

إنّ ثقافة كامل شياع الوطنية الديمقراطية حفزت الصحوة (المدنية) وعودة الوعي (المدني) واستيقاظ الضمير (المدني) وتراجع الأفكار والمواقف الدينية المتشددة في عراق المحبة والخير والسلام.

كان كامل شياع يؤسس لما هو استراتيجي وبعيد المدى، وليس لمكاسب اللحظة الآنية والعابرة، ولإنجاز مشروعه النبيل هذا، عمل بدأب الفيلسوف وبتواضع العالم واستطاع خلال السنوات الخمس قبل استشهاده أن ينسج علاقات وصداقات ثقافية واسعة جدا، كان شفيعه في نجاحها بالرغم من الخراب الذي يحيطه خصاله وسجاياه الشخصية وثقافته الموسوعية التي وفرت له مكانة رفيعة في الوسط الثقافي والإعلامي خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً. إن التنوع الثقافي والديني والقومي في العراق هو حقيقة لا جدال فيها، ولا بد من الحوار والتفاعل والتنافذ بين مكونات أي مجتمع حاضن لهذا التنوع، يقول جاك لاكان: "إما الحوار تحت مظلة نظام الكلام الرمزي والاعتراف المتبادل بين ذاتين، والا فهو العنف"[22]، وبحسب كولن ماك كابي: "فإن قانون الكلام هو المؤسس للكلام، وهو ملزم للطرفين والناظم للعلاقات بينهما"[23]، فالتعددية المجتمعية ظاهرة ملازمة للمجتمعات البشرية، منذ أن عرفت هذه المجتمعات ظواهر التبادل السلعي والتنافذ المعرفي والحضاري، وفي مكنونات الخلق أريد أن تكون هذه التمايزات ملازمة لطبيعة البشر، وعنواناً للإثراء الفكري والثقافي والإنساني لا للتشاحن والصراع.

والتعددية تعني: "تعدد أشكال الروح الاجتماعية في نطاق كل جماعة، وتعدد الجماعات داخل المجتمع وتعدد الجماعات نفسها"[24]، أما معجم المصطلحات السياسية فيعرف التعددية على أنها: "توزيع القوة بصورة واسعة في مجتمع ما على جماعات متعددة، ومرتبة تبعاً لحالة التعايش بينها، (الصراع-المنافسة- التعاون)"[25].

إن المشروع الثقافي الذي أراد أن يرسخه كامل شياع في المنظومة القيمية للمثقفين والسياسيين العراقيين هو تعزيز الهوية الوطنية، إذ أن شعور الفرد بالانتماء وبمواطنته يرتبط بتحقيق العدالة والمساواة والحقوق التي يحصل عليها، والتي لا بد أن يتضمنها الدستور والقوانين المفسرة له، وهو ما يشعره بالمواطنة الكاملة بعيداً عن انتماء هذا الفرد لطائفة أو قومية معينة. وبهذا فإن الهوية الحقيقية وبلا عكازات ذرائعية لأزمة كبرى للإحالة إلى التطور والصيرورة التاريخية تستدعينا أن لا نقف حيال مثل هذا الأمر موقف المتفرج فحسب إنما نستدرك الدخول لفضاء العصر وبجدارة وعي فاعلة لا منفعلة مع الهويات الثقافية الأخرى التي تحمل خصوصيتها وكينونتها واحساسها بقدرة العطاء الإنساني. ويعرف أحد الباحثين الهوية قائلاً: "إن الهوية في معناها المجرد هي جملة علامات وخصائص من أجناس مختلفة تستقل بها الذات عن الآخر، فبغياب هذه العلامات والخصائص تغيب الذات وتذوب في الآخر وبحضورها تحضر"[26].

آمن كامل شياع بمخاطر الترهب في صوامع الثقافة ومحراب الفكر، وبأهمية توثيق العلاقات بين اتحاد الأدباء ووزارة الثقافة للإسهام المشترك في تفعيل الحياة الثقافية وبناء العراق الديمقراطي الجيد، اتحاد الأدباء كمنظمة غير حكومية وأحد أهم لبنات الحركة الاجتماعية في العراق وممثل مهني للأدباء والكتاب العراقيين، ووزارة الثقافة كمؤسسة ثقافية رسمية يقع عليها العبء الأكبر في رسم استراتيجية ثقافية وطنية شاملة للنهوض بمستوى النشاط الثاني في البلاد، إذ كان الحضور البهي لمشروعه الثقافي الذي كان يمارسه بطريقة رسمية كمستشار ثقافي في وزارة الثقافة وبطريقة مدنية أنيقة وباذخة توحى بأنه الأكثر قرباً لقبائل المثقفين المنسيين، والمحاصرين بكل (نسيانات) الحكومات والأيديولوجيات والباحثين عن أحلامهم القديمة، وكان كامل شياع مواطناً استثنائيا وحالماً غرائبياً بقدرة الثقافة على إزاحة جبل البارود، كان يقف مدهوشاً عند خفة موته، ورغم كل الغربات الاضطرارية وكل فجائع اليوميات العراقية وحروب محاربي الطوائف العالقين بأوهامهم، كان يصنع وطناً على مقاس أحلامه، يستعيد له شوارع أكثر إنافة ومكتبات لا تروج ثقافات الموت، كان وطنه المقترح هو الوطن الأبيض المؤثث بكل تفاصيل الحريات وكل الجرعات العالية من الحق والأمل والوعي والمسؤولية. إن مأثرة كامل شياع ومشروعه التنويري الديمقراطي الإنساني الذي أضاء سماء الثقافة الديمقراطية في العراق، ونجح في إيقاد مصابيح ثقافية واعدة ستظل أمثولة لكل المثقفين الحقيقيين ولكل من جعل الوطن وثقافته الديمقراطية بمنزلة حدقات العيون.

خاتمة البحث

لا شك في أن الكتابة عن الرموز أو الشخصيات ذات التفكير الخلاق والمؤثر التي ألفت قيمة عليا في مجال اختصاصها الإبداعي الفكري أو الديني أو السياسي، الكتابة عنهم من القضايا الشائكة التي قد لا تتوافر إلا للقلة من الباحثين والمختصين في هذا الشأن، وها أنا ولجت هذه الكتابة وعن كاتب ومثقف وطني عراقي لم يتلوث بمآدب ومغانم ومكارم النظام البعثي الفاشي المنهار، ولم يهادن أو يساوم أو يتلاءم مع توجهات السلطة القمعية المنحلة، لأنه حسم

انحيازه إلى القيم التقدمية والثوابت الوطنية - الديمقراطية في سلوكه وتوجهاته الثقافية ومنهجه العلمي ودأب في كتاباته على كشف الحقائق وايصالها للقراء - البسطاء بالذات - عبر لغة مطواعة عميقة ثرة.

كان كامل شياع يحلم بالمستقبل ويخطط لخارطته المضيئة لأنه يؤمن بالعلم وسط تداعيات وانهيارات للقيم بين بشر لا يؤمنون الا بالثواب والإفلات من الجحيم، جاء إلى وطنه وهو يحمل سفراً من الرؤى وألف فكرة وحلما، حقق بعضها وتأجل الآخر لأن القتلة المأجورين أنهوا الأفكار والأحلام عنده.

سيبقى كامل شياع مع غيابه الأبدي دفقاً وعقلاً نيراً في سفر ثقافة الوطن العراقي القادم الناهض من رماد الحروب والجوع والاغتيالات والمليشيات وفرق الموت.

***النص الكامل لبحث ألقي ملخص عنه في مؤتمر (بناء الثقة وتعزيز الهوية الوطنية) الذي عقده (بيت الحكمة) في شهر كانون الأول – ديسمبر 2024 .**

الهوامش

(1) المعجم العربي الأساسي، تأليف جماعة من كبار اللغويين العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، لاروس، 1988، ص214
(2) مجلة المستقبل العربي، ع 300، شباط/ 2014، ص49
(3) عبد النبي عبد الرسول الأحمد، دستور العلماء ترجمة: حسن هاني فحص، ج 3، 2000، ص330.
(4) المعجم العربي الأساسي ص1240
(5) المصدر السابق ص1240
(6) نقلاً عن: أدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة: الدكتور محمد عناني، ط 1، 2006م، ص23
(7) كارل ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1970 ص87.
(8) المعجم العربي الأساسي ص1318
(9) مجلة الطريق، ع 4، س72، 2013، ص88
(10) سعد محمد رحيم، رافد النهضة والتنوير، مرويات فكرية، بغداد، ص54
(11) صادق جلال العظم، ذهنية التحريم، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ٢٠٠٧ م، ص 56.
(12) مجلة مقابسات، ع6، 2008، ص21
(13) محمد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة، دار توبقال للنشر، 2007، ص150
(14) المصدر السابق ص 151
(15) مجلة الطريق، ع 14 –15، س74، ص65
(16) المصدر السابق ص66
(17) مجلة حمورابي للدراسات، ع 8، س2، 2013، ص138 – 139.
(18) محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 3، بيروت، 2008، ص24.
(19) العروي، عبد الله، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء –بيروت، ط6، 2002، ص172
(20) أحمد مجدي حجازي، المثقف العربي والالتزام الأيديولوجي- دراسة في أزمة المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،1989، ص 146
(21) الطريق الثقافي: ملحق صحيفة "طريق الشعب"، ع33، 2010
(22) أحمد زكي بدوي، معجم المصطلحات الاجتماعية، بيروت، ط 2/ 1986، ص 317
(23) المصدر السابق ص64
(24) المصدر السابق ص321
(25) علي الدين هلال ونيفين عبدالمنعم، معجم المصطلحات السياسية، مركز البحوث والدراسات السياسية جامعة القاهرة، 1994، ص109
(26) عبد علي الود غيري، اللغة والدين والهوية، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الحديثة، 2000م، ص68

الإسقاطية في نقد حركة الشعر الحر
عبد الجبار داود البصري مثالا

د. نادية هناوي

لأن حركة الشعر الحر ثورة ضد كل ما هو محافظ ورتيب، ولأنها لم تكن حركة اعتيادية في الشعر العربي، كثر نقادها. وكان القسم الأعظم منهم منهجيا باتجاه نمطي، يرفض الشعر الحر من خلال إسقاط قواعد شعر الشطرين عليه، وأحيانا يُسقط بعض من هؤلاء النقاد- وبخاصة الشعراء منهم - ما لديهم من قصور في كتابة الشعر على الشعراء الرواد. وسندعو هذا النفر من النقاد العراقيين بالإسقاطيين.

وعلى الرغم من كثرتهم، فإن حركة الشعر الحر استطاعت الصمود في وجههم. وغالبية النقد الاسقاطي كان يأتي من ناحية التركيز على خصوصيات حيوات الشعراء الرواد بكل ما فيها من هنات وتبدلات، هي طبيعية في كل إنسان هو أديب يشغله إبداعه ويقضُّ عليه مضجعه، فلا يهنأ في حياته. ومن المعيب حقا أن يجد الناقد الإسقاطي في هذه الهنات والتبدلات صيدا شهيا، يُسيء من خلاله إلى حركة الشعر الحر نفسها.

وسنقف عند الناقد عبد الجبار داود البصري الذي تصدى لحركة الشعر الحر بمنهجية نمطية نموذجها شعر الشطرين، فكان نقده إسقاطيا، أجحف في حق الحركة، وتحامل على روادها، منتقصا انجازاتهم. ولقد مارس هذا الناقد كتابة الشعر ونشر قصائد كتبها على نمط الشعر الحر مثل (أغنية الكرمة) 1958 و (وبداية الصيف) و (أنشودة عبد العزيز) و(الموسم) 1965 غير أنه لم يحقق شيئا ذا بال. ولعل هذا هو السبب الذي جعله يحيد عن كتابة الشعر، ويتجه بدل ذلك صوب ممارسة النقد الأدبي الذي وجد فيه خير وسيلة لإسقاط ما في نفسه على حركة الشعر الحر. وكان كثير الرصد لحيوات الرواد انطلاقا من منهجية نمطية استحكمت على ذوقه وغلبت على أحكامه، فبان حجم ما لديه من حنق على من خرق قواعد شعر الشطرين. ولقد كانت نازك الملائكة في مرمى هذا الناقد أكثر من الشعراء الثلاثة الآخرين. علما أن إسقاطات هذا الناقد تزول دفعة واحدة حين يورد رأيا لناقد مصري أو لبناني كأن يرى مثلا في د. محمد مندور ناقدا فطنا، لأنه اكتشف

"ازدحام الميمات في قصيدة أخي لميخائيل نعيمة"[1]!

ومن يقرأ كتاب (مقال في الشعر العراقي الحديث) فسيجد أن عبد الجبار البصري مرحب بكل الحركات التجديدية على طول تاريخ الشعر العربي باستثناء حركة الشعر الحر. فلقد بدأ من العصر العباسي، ووجد أن بشارا وأبا نواس يمثلان تجديدا عميق الجذور في تغيير اتجاهات الشعر وأن أبا العتاهية قضى على أرستقراطية الشعر وأن أبا تمام أثار معركة أدبية.

ومن المعروف أن أبا تمام هو صاحب التجديد الأول في تاريخ الشعر العربي كله، لأنه لم يقتصر في التحديث على التغيير الشكلي في القصيدة العربية، بل ايضا محتواها الموضوعي بما كان يوظفه من استعارات مبتكرة ورموز فكرية. أما الموشح فوجده عبد الجبار البصري ثورةً أندلسيةً في الشعر، وأعظم حركة أضافت إلى موسيقى الشعر خصبًا وثروةً، ووسعت استعمالات العروض ثم حدثت حركة- يصفها البصري- بالعنيفة في إحياء الموسيقى المحافظة على يد البارودي ثم تطورت بسرعة ووصلت غاية العذوبة عند شوقي، وتبعتها حركة إحياء الموسيقى الأندلسية في الشعر المهجري. وحين يصل إلى الشعر المعاصر يقول: "أخيرا انبثق من العراق الشعر الحر وفي مدة وجيزة. ورغم جدته وغربته وكثرة خصومه وافتقاره الى الرصيد الذوقي عند الجماهير، انتشر بصورة واسعة وبلغ النجاح الباهر على يدي نزار قباني الذي نجح في كل موسيقى"[2]. وهنا نتساءل: ما الذي يجعل البصري يتخطى الرواد ويقفز إلى الشاعر قباني؟

إن مسعى عبد الجبار البصري من وراء ذلك واضح، وهو نسبة التحديث إلى شعراء العربية كلهم عدا شعراء العراق بدءا من الرصافي وليس انتهاء بحسين مردان. والسبب هو اتجاهه النمطي المنحاز الى شعر الشطرين. وكثيرة هي الأقوال الدالة على ذلك من قبيل قوله إن الشعر الحر سبب في وجود مذاهب ودعوات فنية تتقبل مختلف الأصباغ بينما عاش الشعر المحافظ بصبغة واحدة. وقوله إن حركة الشعر الحر سبب جوهري في تدهور موسيقى البحور وفقدان هيبتها وجلالها، وأنها في ذلك متأثرة بالزهاوي الذي رآه البصري يطوع البحور لاستيعاب النظريات العلمية والأفكار المنطقية. وفات البصري أنَّ الموضوعات الجديدة والأفكار الجريئة التي كان الزهاوي يطرحها هي السبب في بحثه عن التحرر من قواعد الشعر وليس العكس. والزهاوي هو القائل: "شاعر الاجيال لا يموت شعره، لأنه ينبه على الحقائق الخالدة. ومثل هذا قليل وهو في الغالب يسبق جيله".

ولا يسمي الناقد البصري الحركة باسمها بل باسم آخر لا دلالة فنية له هو الانطلاق، عادا شعراءها منطلقين، واصفا ثورتهم بالكلاسيكية "السمة الغالبة على شعراء اليوم الانطلاق والانطلاق الذي أقصده تحرر من قيود الوزن والقافية. أما الثورة الكلاسيكية والتحرر من قيود الوزن والقافية، فتبدو في سيادة الشعر الحر".

وكلما ذكر عبد الجبار البصري نازك الملائكة، بدت إسقاطاته واضحة، سواء بذكر اسمها علنًا أو بالتلميح إليها بالقول "لا يسعنا إلا أن نشير لتقهقر بعض الرواد من

الميدان وتنكرهم الجزئي لدعوتهم الحرة في الإبداع الشعري". وحين وقف عند قصيدتها (لنكن أصدقاء) قرأها قراءة مباشرة حيث كل كلمة تؤخذ بمعناها الأولي "انطلاقا من الذاتية المنطوية على نفسها وشوقا إلى مشاركة الآخرين في حياتهم وانطلاقا من حدود الوطن والجنس إلى مساحة اكبر هي الإنسانية العالمية فلا تصادق العرب وحدهم ولكنها تطلب صداقة الاسكيمو في بحار الثلوج وصداقة الزنوج في الغابات الاستوائية وصداقة كل إنسان في كل مكان". وهذا تحليل قاصر لا يناسب ناقدا معروفا في ميدانه. والقصيدة تقول: "لنكن أصدقاء/ نحن والظالمون/ نحن والعزل المتعبون/ والذين يقال لهم: مجرمون/ نحن والأسرى/ نحن والأمم الأخرى/ في بحار الثلوج/ في بلاد الزنوج/ في الصحاري في كل ارض تضم البشر/ كل ارض تلقت توابيت أحلامنا/ ووعت صرخات الضجر/ من ضحايا القدر" فالانزياح في الجمع بين الظالمين والعزل المتعبين والمجرمين والأسرى المقيدين أسلوب فني ورؤيا رمزية للعالم الذي تحكمه المتناقضات والأضداد، وليس أمام الإنسان أي خيار.

وتتحكم الأهواء في تحليلات هذا الناقد كما أن نزعة الالتزام الإيديولوجي تبدو واضحة في قوله: "والشاعر الذي يحترم واجبه لا يمكنه أن ينطلق من الحياة الاجتماعية فلا يعالج موضوعاتها بل هو يعتبر هذه المعالجة من صلب أعماله" ولذلك عد قصيدة (نجوى) لبلند الحيدري تهريجا وغرامية مبتذلة وتقليدا لشعر الرصافي والزهاوي وأن شعر موسى النقدي ليس فيه سوى التعابير السياسية والشتائم!!

ولم يكتف الناقد بما تقدم، بل راح يستعرض ملاحظاته إزاء ما سماها (المدرسة المنطلقة) ويقصد حركة الشعر الحر وكالآتي: 1) الواقعية 2) الاهتمام بتوافه الحياة 3) تجميع الأشياء البسيطة 4) تدوين الحركات الساذجة التي تعطي القصيدة جوا مؤثرا 5) الإكثار من الإيحاء والرمز والتحليلات النفسية 6) أن السياب صدى لاليوت ونازك صدى الشعراء الانكليز وعبد الوهاب البياتي صدى ناظم حكمت 7) استعمال البحور من دون محاولة جادة لتصفيتها من الشوائب 8) بعض المظاهر التهريجية تفصح عن نفسها هنا وهناك.9) أن الموشح أدى رسالته على أيدي هذه المدرسة وأضاف إليها شيئا جديدا هو التحليلات النفسية. 10) الموشح أفضل من "أساطير السياب وأزهاره الذابلة ونازك وعاشقة الليل وأباريق البياتي المهشمة ووتر أكرم الجاحد وقيثاره المحروق".

وإذ يعترف عبد الجبار البصري بأن حركة الشعر الحر ظاهرة، فانه يراها في موضع "ليست سيئة ولكنها مباركة لأنها إذا لم تفد فهي لا تضر الاتجاهات القديمة واذا وجدت ازورارا عن موسيقى البحور والموشح فليس الأسلوب الحر هو المسؤول ولكن الشعراء هم المسؤولون"[3]. ويراها في موضع آخر بضاعة مستوردة لها عيوبها وحسناتها وفيها "الاحتطاب من خارج الشعر" ويضيف قائلا "الشعر الحر يسد علينا المسالك في المجلات والصحف والكتب وقريبا يستحوذ على منابر الخطابة وألسنة المغنين.. المفاهيم التي يعتنقها الشعراء المتحررون ليست عربية خالصة وانما هم رواة أفكار النقاد الأجانب"[4].

وكثيرة هي المقولات الإسقاطية في الشعر الحر وشعرائه وبخاصة نازك الملائكة التي جردها عبد الجبار داود البصري من كل خصائصها الفنية والنقدية، واتهمها بالنكوص والتراجع، قارئا كتابها (قضايا الشعر المعاصر) قراءة سلبية متحامِلة على غرار قراءته لقصيدتها (لنكن أصدقاء).

وما من شك في أنّ نازك الملائكة قدمت في هذا الكتاب أطروحة بنيوية في الشعر العربي، سبقت بها كل البنيويين العرب. وفيها قعَّدت أشكال القصيدة العربية، وقننت أساليبها وميَّزت "بين الصورة الوزنية الموسيقية التي تقوم على الأبيات والأشطر والتفعيلات والصورة البنائية التي تسند إلى موضوع القصيدة من دون هذا التمييز المبدئي الذي نريده في بداية بحثنا هذا لن نستطيع أن نشخص الأسس النظرية التي يطبعها الشاعر غير واع وهو يكتب قصيدته"[5].

وليس البصري وحده الذي قارن هذا الكتاب بما كانت الملائكة قد كتبته قبل عقد وأكثر في مقدمة ديوانها (شظايا ورماد) بل معه نقاد كثر، وجدوا تغايرا في نواح محددة ما بين البيان التأسيسي وهذا الكتاب. والحقيقة أن حركة الشعر الحر لم تبقَ على حالها خصوصا وأنها انتشرت خلال بضع سنوات بشكل مذهل. ورافق هذا الانتشار سوء تطبيق للأفكار النظرية التي طرحتها نازك في بيانها التأسيسي. ما حدا بها إلى التنظير على وفق ما رصدته من تطبيقات مغلوطة وأخرى سلبية في الدواوين والنصوص الشعرية المنشورة في المجلات والصحف. ومن مجموع هذا الرصد، انتهت نازك الملائكة إلى وضع أطروحتها في الشعر الحر، مشخِّصة الهنات ومؤشرة على القواعد المطلوب إتباعها خشية الوقوع في تلك الهنات. إن هذا التصحيح وإعادة التصوير لمسار الشاعر في كتابة قصيدة التفعيلة هو ما اعتبره النقاد الإسقاطيون تراجعا وانكفاء. ونرى في هذا تقصيرا لا بحق جيل الرواد وحدهم، بل تاريخ الأدب الذي يقتضي في التعامل مع الأجيال الأدبية الأخذ بنظر الاعتبار الشروط الموضوعية التي ساهمت في بلورة هذا الشعر وكذلك الظواهر التي رافقت كتابته في تلك الحقبة من تاريخ الأدب.

ولقد أدرك الناقد عبد الجبار البصري أنه تجاوز الحدَّ، فراح يبرر حنقه على حركة الشعر الحر بأن موقف النقد الأدبي من الشعر هو "مجرد إشارات وليس من السهولة أن تجد تفصيلا ناجحا لان الصعوبات كثر؛ أولها حداثة هذه المدرسة ونموها المطرد وتطورها السريع وغموض المدرسة وتكتم أصحابها. وأن اغلب من تصدوا لدراسة الشعر العراقي اليوم كانت مقاييسهم ذاتية خاصة". وفي هذا القول إسقاط نفسي لأنه هو نفسه صاحب المقاييس الذاتية. فلقد أشاد بالناقد مارون عبود من لبنان، لأنه قال رأيا قاصرا في حق نازك الملائكة هذا نصه "ورغم قلة ما كتبه - أي مارون - عن شظايا نازك ومادها فقد وردت هذه العبارة العميقة جدا قد رأيتها في ديوانها الجديد تتجه نحو الرمزية اتجاها عنيفا، فهب أنها وفقت في بعض خطراتها فإنني أخشى عليها شر التطرف في الشعر والفكر والتصوف" فعلّق البصري قائلا: "إنني أحيي مارون عبود كأحد أبناء الجيل الجديد، لأن واجب الجيل الجديد أن يحترم

أسلافه، وأن يقدِّم لهم باقات الورد كلما حلَّ عيد الميلاد".

وهذا لوحده مؤشر على عدم تحري الدقة عند إصدار الأحكام وإطلاقها جزافا. علما أن الناقد مارون عبود ناقد انطباعي يمارس النقد هواية، وأحكامه تقديرية في الغالب. ومن آرائه أن "من الخير أن يقف النقاد عند هذا الأثر الأدبي أو ذاك لنقده وتحليله وبيان ما فيه من إجادة وإتقان أو ضعف وتخاذل وإسفاف، ولكن من الخير أيضا أن يقف النقاد عند الحياة الأدبية العامة من حين إلى حين يثبتون ما فيها من هذه المظاهر المشتركة التي تدل على الضعف أو على الفساد أو على سوء الاتجاه لعل وقوفهم عندها وتبنيهم إياها أن ينبه التضاد أو ما فيها من شر ويحملهم على الجد في تجنبها والتخلص من أوزارها الثقال".

وإذ يضطر الناقد الإسقاطي عبد الجبار داود البصري إلى قول شيء حسن في حركة الشعر الحر، فإنه سرعان ما يفنده "وأحسن ما وجه من نقد للمدرسة المنطلقة حتى عدَّ مصدرا من مصادر دراستها ما تكتبه نازك الملائكة في مجلة الأديب حول حركة الشعر الحر في العراق" وكتب في الهامش "أضافت إلى هذا البحث موضوعات أخرى وصدر كتابا باسم الشعر المعاصر" وصحيح أن نازك الملائكة جمعت بعض دراساتها لكن الكتاب يبقى ذا وحدة موضوعية وبخطة علمية منهجية. وفيه رصدت نازك الملائكة الظواهر السلبية في الشعر الحر ووضعت فصلا في قصيدة النثر. علما أن كتاب البصري موضع الرصد (مقال في الشعر العراقي الحديث) هو نفسه حصيلة تجميع مقالاته المنشورة ما بين الأعوام 1957 - 1967 في مجلتي الآداب البيروتية والأقلام العراقية التي رأس تحريرها لبضع سنوات.

ولعل أكبر خطأ وقع فيه هو جمعه بين مقدمة (شظايا ورماد) ومقدمة ديوان (أغاني الغابة) لموسى النقدي، عادا المقدمتين تنظيرا فكريا لحركة الشعر الحر. وغاب عنه أن موسى النقدي لم يقدم لديوانه، وأن الذي كتب المقدمة هو عبد الوهاب البياتي، وليس فيها أي تنظير، إنما هي عبارات مجاملة ودية من شاعر تجاه آخر مستجد. ومما جاء فيها "وبعد فهذه مجموعة شاعر مغامر، يولد تحت ظلال سيوف ورايات الشعراء الممزقة. فيها خطوط متباينة لقصائد أحلى لم يكتبها بعد ولا شك أن البسطاء سيجدون فيها بعض ما وجدته أنا من إبداع وصدق وعاطفة وإخلاص على تفاوت في القوة والضعف".

إن إسقاطات عبد الجبار البصري لم تقتصر على كتاب نازك الملائكة (قضايا الشعر المعاصر) بل شملت كتابها (الصومعة والشرفة الحمراء) فقدَّم أولا عرضا للكتاب ثم قام بوضع ملاحظاته التي تنم عن نقمة وحنق واضحين.

وبعد أن قال "وبهذا سكتت نازك الملائكة عن الكلام المباح" أورد ملاحظاته السلبية وهي: 1) أن منهجها لم يتعد الموضوع والأسلوب العروضي، 2) أنها لم تدرس نفسية الشاعر، 3) لم تقم بإدخال الانثربولوجيا في بحثها كما في نقد الدكتور محمد النويهي، 4) نهجت نهج القدماء في التركيز على الجزئيات، 5) خالفت ما هو معروف عن علي محمود طه وتجاهلت ما كتبه إحسان عباس.

وهذا إسقاط مقصود لنقد النصف الأول من

القرن العشرين على نقد نازك الملائكة، وفيه كَشَفَ عما تكنه نفسه من إجلال للنقاد العرب، مع أن نازك الملائكة كانت متقدمة عليهم بما عُرفت به من نهج حداثي في معاينة النصوص الشعرية وتحليلها، وتتبع أنساق الشعر الاجتماعية والفنية.

أن ازورار الناقد عبد الجبار البصري عن حقيقة حركة الشعر الحر أوقعه في مطبات، أبانت عما في التزامه المنهجي من روح المغالطة في التجهيل والانتقاص. ولقد صدق الزهاوي في قوله "والنقد إن لم يكن عن علم وإخلاص فهو حقد".

الهوامش:

(1) عبد الجبار داود البصري، مقال في الشعر العراقي الحديث، بغداد، دار الجمهورية، 968، ص 66.
(2) المصدر السابق، ص 68
(3) المصدر السابق، ص 84
(4) المصدر السابق، ص 58
(5) نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، بغداد، منشورات مكتبة النهضة، ط 3 ، 1967 ، ص 201.

محمد مكية.. خلود ومعاصرة عشر سنوات على رحيله

د.معتز عناد غزوان

مرّت علينا في التاسع عشر من تموز الماضي من عام 2015م؛ الذكرى العاشرة لرحيل شيخ المعماريين د. محمد مكية عن عمر ناهز المئة عام وواحد. هذا الزمن الابداعي الطويل الذي قدم فيه مكية خلاصة ابداعه وتمسكه بهويته الوطنية وانتمائه الاصيل لمرجعياته الحضارية والانسانية، تجسدت في العديد من المنجزات التي قام بها داخل العراق وخارجه. ومن اهم منجزاته في العراق كان جامع الخلفاء بشارع الجمهورية في العاصمة بغداد، ومبنى كلية التربية/ ابن رشد في منطقة مجمع الكليات بباب المعظم، ومبنى بلدية الحلة بمحافظة بابل، فضلا عن العديد من المنجزات الخاصة للبيوت والمباني المختلفة. كما نفذ العديد من المشاريع المتميزة خارج العراق ومنها جامع الدولة الكبير في الكويت، وجامع ابو بكر الصديق في قطر، وجامع السلطان قابوس في سلطنة عمان، وبوابة مدينة عيسى في البحرين وجامع تكساس في الولايات المتحدة الامريكية والكثير والكثير. ونستعرض بهذه المناسبة المهمة انجازه لمشروع جامع السلطان قابوس في سلطنة عمان والتي قمنا بزيارته ميدانيا والاطلاع على ابرز تلك الابداعات في العمارة والتصميم الداخلي وبشكل تفصيلي. اذ يعد مسجد السلطان قابوس من أهم المساجد أو العمائر الإسلامية المعاصرة في منطقة الشرق الأوسط لما يحمله من مواصفات عالية في الأداء والوظيفة والجمالية التي اتسمت بها العمارة العربية الإسلامية كنتاج للتواصل الحضاري والإنساني المعاصر للتراث، لاسيما من خلال التكامل ما بين الداخل والخارج.

فكل مجتمع إنساني حسب رأي مكية يسعى إلى تكامله واستمراريته وانطلاقه يحتاج إلى أن يستلهم الماضي في الحاضر كما وصفه الباحث والفيلسوف الدكتور حسين الهنداوي في كتابه المهم عن فلسفة مكية في العمارة. وهذا جاء مع دعوة الدكتور محمد مكية المستمرة إلى المعماريين الجدد في ضرورة الإلمام بالتراث المعماري القديم والإسلامي، وضرورة دراسة الفضاء الداخلي والخارجي في تصميم العمارة المعاصرة، والتعامل مع ثلاثة عناصر

مسجد الخلفاء في بغداد

مهمة هي (الإنسان والمكان والزمان)، فالزمان والإنسان يعني القيم الاجتماعية، والقيم الاعتبارية والخصوصية، أما المكان فهو المسرح الذي تدور فيه الحياة الحاضرة في الزمان، أي الحضور في الذاكرة. وكما يقول مكية "إن التقاليد ليست حنيناً للماضي، ففي العمارة الإسلامية ثمة مفردات وجدتها شخصياً، تحث وترمز وحتى ترفع مكانتي عالياً بسبب قيمة جوهرها التجريدي، أنك لا يمكنك أن تكون حداثياً جيداً من دون أن تثبت خطاك في مسار التراث الطويل"، بيد أن التقاليد بل وحتى مفهوم التراث الذي يقصده محمد مكية وبحسب تحليل المعماري الدكتور خالد السلطاني، جعل من تأويلاته الشخصية له عنواناً لمنجزه التصميمي، هو ذاك الشعور الذي يدركه الجميع ويحسه الجميع، وهو من ثم ينتمي إلى المجتمع الذي يصمم له.

لقد أكد مكية في عمارته الإسلامية تحديداً على أهمية استلهام المبادئ الأساسية في العمران، لاسيما وهو يؤكد لزوم تحديد ماهيتها بدقة وتأكيد أبعادها الإنسانية وعلاقتها بالمفاهيم العديدة المرتبطة كالحداثة والمعاصرة والتقليد وغيرها.

وتعد تجربته الأولى في عمارة المساجد المعاصرة في مسجد الخلفاء في بغداد بداية الستينيات من القرن الماضي. الذي يعد حدثاً تصميمياً مهماً عكس ما كان يتوق إليه المعمار سابقاً من ولع كبير وعميق بالتفاصيل، ومن انتباهه إلى ما يمكن أن تحتويه تلك التفاصيل من أسرار الألفة المكانية، المنشطة بإنتاج ما يشبه (الإيقونة) المختزلة في الذاكرة الجمعية وتصوراتها عن العمارة والعمران.

ومقابل ذلك يرفض مكية موقف التنكر للتراث تنكراً أعمى ومغلقاً بشكل نخسر فيه معطياته العبقرية وجوانبه الوظيفية والروحية والاجتماعية والجماعية، التي لا تزال تشكل مكوناً أساسياً في شخصيتنا وهويتنا، وذلك تحت هذه الذريعة أو تلك

وعلاوة على رفضه لهذين الموقفين نراه يرفض موقفاً ثالثاً انتقائياً هو ذلك الذي يتعامل مع التراث بموجب البرغماتية الإيديولوجية والقائم على الدعوة إلى الأخذ من التراث بما يلاءم حاجاتنا، والتفاعل مع الموروث تفاعلاً حراً وإيجابياً وخلاقاً بوصفه نتاج من تاريخنا الطويل. من خلال تلك الأفكار التي اعتمدها محمد مكية في معظم نتاجه الإبداعي حيث استطاع أن يجعل من التراث العربي الإسلامي متواصلاً عبر الحداثة وفكرها مع التأكيد على الأصالة والمعاصرة.

الوصف العام لمسجد السلطان قابوس:

بني المسجد على ارض تحتل مساحة 416 ألف متر مربع، في مدينة مسقط عاصمة سلطنة عمان، ويمتد هذا البناء لتغطية مساحة منطقة من 40 ألف متر مربع، وهو مجمع صرحي متعدد الوظائف، ويمكن أن يكون هذا المشروع الأكثر نجاحاً للدكتور محمد مكية لقيمته ورمزيته وموقعه ومساحته، وبذخ ملكاته من خلال تداول نفيس المواد والتجهيزات، مثل الثريات والسجاد وأعمال الزخرفة والخزف الكربلائي كما يشير المعماري الدكتور علي ثويني في كتابه (عن سيرة مكية). وقد بدأ المشروع منذ عام 1992م وانتهى بافتتاحه في الرابع من أيار عام 2001م.

تميز الفضاء الداخلي أو العمارة الداخلية الهائلة للمسجد بالفخامة والسمو، فضلاً عن التعدد الواسع في استعمال واستثمار العناصر الزخرفية والتزيينية من مختلف التراث العربي والإسلامي العالمي، فعندما

مسجد السلطان قابوس في سلطنة عمان

تتجول في الممرات الداخلية للمسجد وكأنك تنتقل إلى الأقواس أو العقود العباسية في المدرسة المستنصرية والقصر العباسي التي تتميز بشكلها الخاص ونمطها المعروف لتحقق نوعاً من التكامل الجمالي والوظيفي مع الأقواس أو العقود الخارجية.

وتشير المصادر التاريخية إلى أن تلك العقود في أصلها فارسية إذ ظهر أول انموذج لها في باب بغداد بمدينة الرقة والذي ينسب إلى عهد الخليفة المنصور في القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد).

كما استخدم الدكتور محمد مكية العقود أو الأقواس بطراز أموي واضح ودمشقي متميز وهو جزء من التراث السوري في التبادل ما بين الألوان كالتنظيم على وفق النظام التبادلي، تنزل منها ثريات فخمة، وترتكز تلك العقود أو الأقواس على أعمدة أخذت تتنوع في قيمها اللونية. كما وضعت ألواح خشبية بلونها الصريح في معظم سقوف الممرات العليا والتي ترتبط بعمق التراث الخليجي بشكل عام، يتلاءم مع البيئة الصحراوية التي تمتاز بها منطقة شبه الجزيرة العربية. وقد زينت تلك السقوف بالزخارف الملونة على جوانبها، ونقشت فيها نقوش زخرفية بسيطة أخذت شكلها ولونها من لون الخشب الجميل، فضلاً عن التكامل مع الأبواب الخشبية الضخمة المزخرفة. وهنا يكون تأويل مكية لاستخدامه التنوعات المختلفة لرموز التراث، والتي تكمن في أن التراث الإسلامي يسعى إلى الجمع بين المحلية والتقليدية وبين العقل والعلم والتجديد، وبين الخصوصية المحلية والشمولية العالمية. وهذا ما دعا مكية إلى التنوع في استخدام مفردات التراث العربي

الأقواس الداخلية والممرات

الإسلامي من اجل تحقيق عملية التواصل الحقيقي للخطاب البصري بشكل عام من خلال التكامل ما بين الداخل والخارج.

ومن الجدير بالذكر أن بعض عناصر التصاميم الإسلامية اكتسبت مقاييس رمزية روحانية فالبوابات في المدينة العربية حملت برمزية فتحات الجسد، وتوافقت مع المعنى التعبيري لبوابات السماء، من جانب آخر فان بعض العناصر التي جرى استخدامها في العصور السابقة والتي كانت تحمل قيماً وظيفية بحتة تمت محاكاتها رمزياً في أزمان لاحقة.

لقد جعلت تلك الحركية والتنوع في استعمال مفردات التراث العربي الإسلامي نوعاً من التداولية في المعنى والشكل والرمز والإيقونة في التصميم بشكل عام بوصفه نصاً أو خطاباً بصرياً. فالتداول يكشف عن

المحراب

المظاهر المتنوعة للشيء، ولأنماط وجوده وتجلياته، ولهذا السبب إذا كان تغير موقع الشيء من نسق إلى آخر يؤدي حتماً إلى تغيير في دلالته، فهذا معناه أن الدلالة ليست معطى جاهزاً بل هي صيرورة، ولا تحضر في الذهن بوصفها كلاً بل بوصفها مستويات.

تميزت الزخارف بتنوعها في الفناء الداخلي للمسجد من حيث التكوينات البسيطة من جهة والكثيفة من جهة أخرى، وقد استخدمت بعض تلك الزخارف العراقية العباسية التي استعملت أيضاً في المساجد الخاصة بالأضرحة والمراقد المقدسة، والتي يطلق عليها أحياناً في التراث العراقي المحلي بالكربلائي. بينما نقشت زخارف أخرى على الآجر وأخذت منظراً جميلاً ورائعاً.

كما استخدم مكية الزخارف الهندسية وتنوعها مع بعض العناصر الزخرفية النباتية في تصميم الأبواب.

أما المحراب فقد اتسم بكبر مساحته وعظيم مكانته مع وجود مقرنصات في أعلى المحراب التي تعيد إلى الذاكرة المقرنصات العباسية في القصر العباسي ببغداد، فقد استلهم مكية هذه الوحدات الزخرفية الإسلامية المهمة في تأكيد عناصر العمارة الإسلامية العريقة. وتستخدم المقرنصات في صفوف مدروسة التوزيع والتركيب حتى لتبدو كل مجموعة وكأنها بيوت النحل.

مع الناقد سعيد الغانمي

لا تكمن الثقافة الحقيقية في تسويق الآراء بالعنف او بالتعود على التجهيل

أجرى المقابلة سعدون هليل

الغانمي تولد 1958، كاتب ومترجم عراقي، يقيم في استراليا، تخرج من قسم الترجمة بجامعة الموصل عام 1982. له اكثر من 70 كتاباً بين مؤلف ومترجم. بدأ دراسة علم اللغة في الثمانينات، ثم تطورت اهتماماته للنقد الادبي والفكري والدراسات التراثية. نقل اعمالاً نقدية مهمة للعربية وحقق نصوصاً تراثية مخطوطة لم تنشر سابقاً. يتميز بالتحليل النفي للسرد العربي القديم، ويدرس أنماطه المختلفة من الحكايات البطولية للمقامات. حصل على جائزة الشيخ زايد للكتاب عام 2017 في فرع الفنون والدراسات النقدية. ويعتبر من ابرز الباحثين والمفكرين العرب المعاصرين الذين جمعوا بين الأصالة والمعاصرة في دراسة التراث بأدوات نقدية حديثة.

كيف أثَّرت نشأتك في العراق على توجُّهك الثَّقافيّ والفكريّ والأدبيّ؟

الغانمي: لا بدَّ أن تكونَ لبيئة متعدِّدة، مثل البيئة العراقيَّة، أهمِّيَّتها في تنشئة الأجيال التي تتربَّى على قيمها. ولا يخفى أنَّ التَّعدُّديَّة العرقيَّة والثَّقافيَّة والفكريَّة هي عنصر إبداع في تكوين الأفراد، بقدر ما تكون عنصر إجهاضٍ لإبداعهم. ويرتبط هذا الأمر بدرجة تنظيم هذه التَّعدُّديَّة، ونوع السُّلطة التي تنظِّمها. وبقدر ما تكون السُّلطة ناجحةً في احترام التَّعدُّديَّة، تتحوَّل التَّعدُّديَّة الثَّقافيَّة إلى عنصر تطوير للمجتمع؛ تفتح مواهبه، وتضخُّ فيه القيم الإيجابيَّة، وتعمل على تنمية موارده الفكريَّة وقيمه الأخلاقيَّة المتفتِّحة. وفي المقابل، حين تكون السُّلطة استبداديَّة لا تعمل إلا على ترسيخ نفسها، وتنمية بطشها، فإنَّ التَّعدُّديَّة تتحوَّل إلى عنصر مدمِّر، لأنَّ السُّلطة تتولَّى الانحياز لبعض الأعراق أو الثَّقافات وتسويدها على غيرها، وتسخير موارد البلد للاستفراد بها، وحينئذٍ تنقلب التَّعدُّديَّة الثَّقافيَّة إلى عنصر تخريب للمجتمع بأسره.

وبرغم بساطة هذه الصُّورة الثُّنويَّة، فإنَّها

صحيحة، وتنطبق على البيئة العراقيَّة التي نشأنا في أحضانها جميعاً. وفي الواقع، فقد جرَّبنا جميعاً كيف تستطيع السُّلطة أن تبطش بالمجتمع، وتقلب قيمه الإيجابيَّة إلى قيم سلبيَّة لتعزيز استبدادها، وتنمية مواردها على حساب موارد المجتمع وقيمه الإيجابيَّة. ويمكن أن نسمِّيَ أنفسنا بأنَّنا الأجيال التي أكلت أعمارها الحروب؛ في البداية حرب الشَّمال، ثمَّ الحرب العراقيَّة الإيرانيَّة، ثمَّ حرب تحرير الكويت، التي انتهت باحتلال العراق تماماً. وربَّما لا تكاد توجد عائلة نجت من تبعات هذه الحروب؛ نساء ترمَّلت، وأطفال تيتَّمت، ورجال تعوَّقت، وأجيال طحنتْها الكوارث.

وانعكست ملحمة الخراب التَّدميريَّة هذه في الأدب، الذي استولى عليه الهمُّ الأيديولوجيّ في تسويق النَّظرة العنصريَّة للفئة الحاكمة، وأدواتها الرَّهيبة في بسط هذه الأيديولوجيا، كما انعكست لاحقاً في الدَّعوات المتتابعة لأدب الحروب، وتمجيد ثقافة العنف، وترسيخ سلطة الاستبداد البشعة. وكان هذا كلُّه يتطلَّب من المثقَّف أن يحصِّن نفسه في البداية ضدَّ هذه الأيديولوجيا البغيضة، وأن يحافظ في الوقت نفسه على إيمانه بالتَّعدُّديَّة دون أن يستفزَّ حفيظة السُّلطة، أو يرتزق على أعتابها، أو يهين نفسه بانتظار فتات موائدها، وإلا فإنَّ السُّلطة جاهزة للانتقام منه بمنتهى السُّهولة. كان الواجب الأخلاقيّ يدعو المثقَّف النَّزيه إلى مقاومة ما تدعو إليه السُّلطة من قيم استبداديَّة بقيم تعدُّديَّة مقابلة لها. ومن هنا جاء اهتمامي شخصيّاً بتوفير الأدوات النَّقديَّة لمقاومة تضخُّم الأيديولوجيا في الانفتاح على المناهج النَّقديَّة الحديثة، التي تحثُّ على التَّعدُّد والتَّنوُّع واحترام قيم الآخر، وتبديد سلطة الاستبداد الوهميَّة، بالدَّعوة إلى التَّسامح، وهذا ما يشكِّل النَّقيض المباشر لأدب الحرب الواحديّ ذي البطل الكريه المنتصر دائماً تمجيداً لقيم الاستبداد والتَّسلُّط. بأدواتنا النَّقديَّة البسيطة، التي ابتكرناها بعيوننا وأيدينا وضمائرنا النَّقيَّة، كنّا نريد مقاومة الآلة الجهنَّميَّة العملاقة التي صنعتها الدَّولة عن طريق استباحة الأعراف، وانتهاك القيم، وسيادة نماذج الكراهية والعنف والبغضاء.

ما هي المحطّات المفصليَّة في مسيرتك الأدبيَّة والعلميَّة التي شكّلت رؤيتك الإبداعيَّة والفكريَّة؟

الغانمي: من الصَّعب أن أكون ناقداً ومنقوداً في وقتٍ واحدٍ، ولعلَّ الآخرين أقدر مني على تصنيفي. ولكن يمكن القول بشكل عام إنَّ اهتمامي بالأدب قد بدأ بالفلسفة. وهذا شيءٌ صرتُ مؤخَّراً أصنِّفه بوصفه إعجاباً بالأبنية الفكريَّة والصُّروح النَّسقيَّة التي تبنيها الفلسفة. وبالطَّبع فقد أفضى بي هذا الطَّور الأوَّليّ إلى معرفة الأنساق الفلسفيَّة الكبرى في الفلسفة الغربيَّة قديماً وحديثاً، بدءاً من أفلاطون وانتهاءً بهيغل. لكنِّي لم ألبث في هذا الطَّور أكثر من عقد واحد، إذ انشغلت بعده بدراسة التَّفاصيل الدَّقيقة في علم اللُّغة الحديث، وهو ما قلب اهتمامي رأساً على عقب، لأنَّ عنايتي صارت تنصرف نحو المشكلات التَّفصيليَّة الدَّقيقة بعد أن كانت تنصرف إلى المشكلات الإجماليَّة العظيمة. وهكذا لم أعد معجباً بالصُّروح الفلسفيَّة العملاقة، بل بمحاولات حلِّ المعضلات الفكريَّة المنهجيَّة، لأنَّها هي التي تفضي إلى استقلال الحقول والمباحث العلميَّة، وعثور كلِّ علمٍ من العلوم على منهجيَّته الخاصَّة.

ولا أخفي أنَّني في هذا الطَّور الثاني من نشأتي

الفكريَّة قد مرَّنتُ نفسي على تعليق أحكام الإعجاب بالأنساق الفكريَّة، وكذلك الأحكام الأيديولوجيَّة بمختلف طبعاتها، وتعرية الظَّواهر بما فيها من براءة صريحة لمعرفة العناصر التي تكوِّنها، والعناصر التي تعوق نموَّها. وبالطَّبع فإنَّ جزءاً كبيراً من هذا التَّجرُّد يعود إلى أنَّنا كنّا نعيش في عصر أيديولوجيٍّ متضخِّم. وكان لا بدَّ من مقاومته بالدَّعوة إلى الدِّراسة النَّصِّيَّة، التي تريد أن تحصر عنايتها برؤية مكوِّنات العمل الداخليَّة بمعزل عن الانحياز الفكريِّ السابق.

وبالطَّبع فإنَّ الانصراف إلى بحث المناهج لا يمكن أن يتحقَّق ما لم تعنَ بالتَّعريف بهذه المناهج نفسها، والكشف عن حدود كلٍّ منها. ولذلك ركَّزتُ في عدد كبير من التَّرجمات التي أنجزتها على نظريَّة الأدب الحديثة، والتَّعريف بالمناهج النَّقديَّة فيها، واستطلاع إمكان ارتفاع الأدب إلى ركن مكوِّن من أركان نظريَّة المعرفة. وفي هذا الاتِّجاه فقد أنجزت ترجمة أربعة وثلاثين كتاباً يُعنى أغلبها بالتَّعريف بالنَّظريّات الحديثة في الأدب. كما حقَّقت عدداً من الأعمال الفكريَّة والكلاميَّة والأدبيَّة التُّراثيَّة، والسَّرديَّة على الخصوص، من الأدب العربيِّ القديم، بهدف إعادة النَّظر فيها برؤية جديدة.

ويمكن اعتبار العقد الثاني من القرن الجديد نقطة انطلاق لي للتَّفرُّغ إلى كتابة مشروعي الشَّخصيِّ، بدءاً من كتاب "ينابيع اللُّغة الأولى"، الذي صدرت طبعته الأولى عام 2008، ومروراً بكتاب "فاعليَّة الخيال الأدبيّ" (2015)، وانتهاءً بكتاب "مجمَع اللُّقى البلاغيَّة: الاستعارات الكبرى في الفلسفة والأدب". أعتقد أنَّ جميع هذه الأعمال ترمي إلى كتابة مشروعي الأدبيِّ الشَّخصيِّ، بإبراز مواجهتي مع الأدب العربيّ الحديث، محمَّلاً بتراثٍ نقديٍّ غزيرٍ، وأدوات نقديَّة حديثة في الوقت نفسه، ومحاولاً الإخلاص لهذا الماضي من جهة، وللزَّمن الذي أعيش فيه من جهة أخرى.

من هم أبرز الباحثين والمفكّرين والفلاسفة الذين تأثّرت بهم؟ وكيف انعكس ذلك على أعمالك؟

الغانمي: في مطلع حياتي الأدبيَّة، كما نوَّهتُ في البداية، كنت مأخوذاً بالأنساق النَّظريَّة والصُّروح الفكريَّة التي يشيِّدها كبار الفلاسفة، بدءاً من أفلاطون حتى هيغل. وعند انكبابي على دراسة الأنساق اللُّغويَّة تبيَّن أنَّ الأنساق الفلسفيَّة ليست سوى طريقةٍ في إقامة الصُّروح على أساس من اللُّغة، على نحو لا يكاد يختلف كثيراً عن الصُّروح الشِّعريَّة والسَّرديَّة التي يشيِّدها الشُّعراء والحكّاؤون. وهذه بالطَّبع هي النَّظريَّة التي صرتُ معنيّاً ببيانها وتوضيحها في أعمالي الأخيرة. وحين صرتُ أتعمَّق في علاقة اللُّغة بالفكر، وأركِّز على بلاغة الأفكار بقدر تركيزي على بلاغة الألفاظ، صرتُ أستوحي مفكِّرين آخرين ممّن عنوا بهذه القضيَّة، أي بالمفكِّرين الذين يحاولون استكشاف القيمة المعرفيَّة للأدب وفحص أسس كونه عمداً من أعمدة نظريَّة المعرفة، وبالتالي إدراج نظريَّة الأدب في صرح مشترك مع نظريَّة المعرفة الفلسفيَّة.

وقد ابتدأت الشَّرارة الأولى لهذا الفهم مع اطِّلاعي على أعمال الفيلسوف الألمانيّ أرنست كاسيرر في منتصف الثَّمانينات، ولا سيَّما كتابه "اللُّغة والأسطورة"، الذي ترجمته لاحقاً وصدر في أبو ظبي. وفي هذا العمل دعا كاسيرر إلى أنَّ الأسطورة واللُّغة والدين

تصدر من منبع واحد، هو ما يسمِّيه بالاستعارة الجذريَّة، لكنَّه لم يستطع أن يضع هذا التَّصوُّر في مخطَّط مفهوميٍّ جديد، بل أقامه على أساس من الكانطيَّة الجديدة.

مع الناقد الكنديّ نورثروب فراي، تفتَّحت هذه النَّظريَّة بطريقة لافتة في كتابه "المدوَّنة الكبرى: الكتاب المقدَّس والأدب"، الذي ترجمته وصدر في أبو ظبي أيضاً، وهو قد استعاد فيه رأياً قديماً للمفكِّر الإيطاليّ فيكو حول تقسيمه للفكر الإنسانيّ إلى ثلاث مراحل مرَّت بها البشريَّة، رأى فراي أنَّ هذه المراحل أو الأطوار هي الطَّور الأوَّل في الاستعمال الاستعاريِّ للغة، وهو الطَّور الذي استمرَّ طويلاً في الحضارات البابليَّة والمصريَّة والكنعانيَّة واليونانيَّة حتى عصر هوميروس وهسيود، والطَّور الثاني في الاستعمال الكنائيّ للغة، أي بالاعتماد على المنطق أو الذات أو العقل، وهو الطَّور الذي يبدأ مع تبلور الفلسفة في العالم الإغريقيِّ القديم، وصولاً إلى الطَّور الثالث، وهو الاستعمال الوصفيّ للغة مع نشوء العلم الحديث بدءاً من القرن السابع عشر. وفي كتاب "فاعليَّة الخيال الأدبيّ"، أعطيت لهذه النَّظريَّة أساساً لغويّاً استناداً إلى فكرة المثلَّث الدَّلاليّ الذي قدَّمه ريتشاردز وأوغدن في كتابهما "معنى المعنى".

كنت قد تعلَّمت من ريكور وديريدا، وقبلهما من ابن خلدون، أنَّ العلوم الإنسانيَّة يمكن أن تتفاعل وتتداخل فيما بينها بنوع من الحوار الإيجابيِّ الذي يُغني الجميع. ودفَّعني هذا إلى البحث عن نموذج تتفاعل فيه هذه العلوم. وهذا ما أشرتُ إليه تحت اسم "المنهج الحواريّ" في مقدّمة كتاب "فاعليَّة الخيال الأدبيّ". وبعدها بفترة اطَّلعت على كتاب المفكِّر الرُّوسيّ ميخائيل باختين "الفنّ والتَّجاوب"، الذي رأى فيه أنَّ العلوم الإنسانيَّة لا توجد في مناطق مركزيَّة منعزلة، بل هي توجد على الحدود والتُّخوم لهذه العلوم جميعاً. ولذلك فهذه العلوم تمتاز بكونها توجد على المناطق الحدوديَّة عند مشارف العلوم المشتركة، التي يؤثِّر أيٌّ منها في العلم الآخر المجاور له. وهكذا فالبحث في أحدها هو بحث في علمٍ آخر بالضَّرورة.

كيف تنظر إلى دور التَّرجمة في نقل المفاهيم الفلسفيَّة الغربيَّة إلى الثقافة العربيَّة؟

الغانمي: ينطوي هذا السُّؤال على عدَّة أسئلة في داخله. أوَّلاً هناك الفهم العام للتَّرجمة بوصفها نقلاً من لغة إلى لغة أخرى، وثانياً استيعاب السِّياق الثَّقافيِّ للمفاهيم المختلفة في بيئتها الأولى، ومحاولة تقديم المكافئات الدَّلاليَّة لها في الثَّقافة المنقول إليها، وأخيراً الانتقال من طور التَّعريف بالمفاهيم إلى طور استملاكها وهضمها ثقافيّاً في البيئة المنقولة لها. ومن الواضح أنَّ عمليَّة التَّرجمة لا تقتصر على ترجمة النُّصوص الفلسفيَّة، وأنَّ بعض التَّرجمات ينحصر دورها في التَّعريف بالمفاهيم النَّقديَّة والفكريَّة والأدبيَّة. لكنَّ التَّرجمة بشكل عام تظلُّ محاولة لتقديم فكر الآخر بلغة الذات. وهذه عمليَّة تضحية كبيرة يقوم بها المترجم. وهي ليست عمليَّة نقلٍ سلبيٍّ، كما يتصوَّر كثير من الناس، بل هي عمليَّة إبداعيَّة. غير أنَّها تنتمي إلى صنف الكتابة المتعدِّدة الأصوات. وقد كرَّرت القول مراراً إنَّ المترجم غير مسؤول عن الأفكار التي يترجمها، بل هو مسؤول فقط عن التَّعبير عن هذه الأفكار بلغة مماثلة للغة النَّصّ الأصليِّ في دلالاتها الحرفيَّة والاستعاريَّة. ومن هذه الناحية، فالمترجم مسؤول عن الجانب اللُّغويِّ فقط في العمل الذي يترجمه، أمّا الجانب

الفكريّ فهو ينتمي للمؤلِّف الأصليِّ. ونحن نعرف أنَّ الجاحظ كان يتحدَّث عن استحالة ترجمة الشِّعر، ونعرف المثل الإيطاليَّ الذي يقول (أيّها المترجم، أيُّها الخائن). مع ذلك، لا تحول هذه المعرفة بيننا وبين مغامرة الخوض في التَّرجمة. ففي التَّرجمة لا ننقل مفاهيم الآخر وطريقة تفكيره وحسب، بل نحن نفتح آفاق لغتنا لكي تستوعب بعض المفاهيم التي لم نجرِّبْها من قبل. وهذا يعني بالنَّتيجة أنَّ التَّرجمة الإبداعيَّة الناجحة هي إغناء للغة المنقول إليها، بقدر ما هي تعريف بالمحتويات الثَّقافيَّة للغة المنقول منها. ومن هذه الناحية، يتفاوت إبداع المترجمين. يكتفي بعضهم بالسُّطوح الحرفيَّة، ويريد آخرون أن يخترقوها للوصول إلى الدَّلالات العميقة المختبئة في السِّياقات الثَّقافيَّة المختلفة. وينجح المترجم بقدر ما يتخلَّى عن أفكاره الشَّخصيَّة لصالح أفكار المؤلِّف. لكنَّه في الوقت نفسه ينجح بقدر ما يهتمُّ بجعل لغته مكافئة دلاليّاً للغة النَّصّ الأصليِّ. وهناك نصوص مترجمة ربَّما كانت تتفوَّق على أصولها التي تُرجمت عنها، كما هو الحال في ترجمة ابن المقفَّع لحكايات الحيوان، وكما هو الحال في التَّرجمة الفرنسيَّة لليالي العربيَّة التي أنجزها أنطوان غالان.

تبقى العمليَّة الأخرى اللاحقة على التَّرجمة، وهي عمليَّة استملاك النُّصوص. إذ لا ينبغي للمترجم أن ينقل العمل بترجمة حرفيَّة، بحيث تظلّ لغته مغتربة وغير مفهومة، بل ينبغي أن يبرع في نقل نصٍّ ينسى معه القارئ أنَّه نصّ مترجم. وهنا أريد أن أشير إلى مثال فريد في اللُّغة الإنكليزيَّة، وهو أنَّ كتاب "نقد العقل الخالص" قد تُرجم إلى الإنكليزيَّة ثمان مرّات، جرت جميعها على أيدي علماء مختصِّين. والهدف من وراء ذلك هو استملاك فكر الفيلسوف الألمانيِّ كانط والتَّعبير عنه بلغة إنكليزيَّة ينسى معها القارئ أنَّه يقرأ لغة مترجمة. وحين يستطيع فكر آخر الوصول إلى لغة الذات فإنَّه يُستملَكُ في هذه الذات وينصهر في شِعابها.

ما العلاقة بين الفلسفة والشِّعر في تجربتك الشَّخصيَّة؟

الغانمي: هناك تناقض وتكامل في الوقت نفسه بين الشِّعر والفلسفة والفكر النَّقديّ بشكل عام في تجربتي الشَّخصيَّة. وأنا الآن لا أعدُّ نفسي شاعراً بأيِّ شكلٍ من الأشكال، لكنِّي مع ذلك معنيٌّ بالشِّعر حتّى النِّهاية، وأعتقد أنَّه ممارسة لا تختلف في الأعماقِ عن ممارسة التَّأمُّل النَّظريّ. وليس من شكٍّ في أنَّ الفعاليَّتين تختلفان من حيث التَّعامل مع اللُّغة، فالشِّعر يجنح إلى التَّفكير الاستعاريِّ، والفلسفة تميل إلى التَّفكير الكنائيِّ، بمعنى أنَّ الشِّعر يختار المفردات استناداً إلى وقعها، وعلاقات المماثلة والمشابهة فيما بينها، في حين تختار الفلسفة، والفكر النَّقديّ عموماً، المفردات على أساس المجاورة، وقدرتها على بناء المفاهيم وتحويلها إلى صروح نظريَّة أو فكريَّة أو آيديولوجيَّة. مع ذلك، تتماثل الفعاليَّتان في كونهما تريدان أن تعبِّرا عن الذات وعن تجربة احتكاكها بالعالم على نحوٍ إبداعيٍّ.

والمفارقة أنَّني بدأت حياتي الأدبيَّة شاعراً، وكنت أؤمن بقوَّة بأنَّ الشِّعر يستحقّ أن تُكرَّسَ له حياة كاملة. وعلى هذا الأساس ألممتُ بعلوم كثيرة، وربَّما بلغات متنوِّعة، من أجل تكريس نفسي للتَّجربة الشِّعريَّة. لكنَّنا نعرف أنَّه بدءاً من الثَّمانينات عملت السُّلطة على تسخير الشِّعر ومسخه إلى بوقٍ دعائيٍّ

لها. فكان لزاماً على كلِّ شاعر أن يعتكف على ذاته، ويتظاهر بالتَّخلِّي عن الشِّعر، درءاً لكبريائه، أو التَّحوُّل إلى مهرِّج يدعو إلى ترسيخ ثقافة العنف والاستبداد والكراهية والبطش الأيديولوجي. وقد اخترت على المستوى الشَّخصيِّ أن أنحاز لصالح الشِّعر النَّقيِّ بالتَّوقُّف، أو في الأقلِّ بالتَّظاهر بالتَّوقُّف، عن كتابته، وفي نفسي حسرة، وفي لهاتي غصَّة لم ينطفئ لهيبها. لكنِّي سرّاً كنت أعود بين الحين والآخر إلى تسريب انفعالاتي بالشِّعر. وقد أعددتُ مؤخَّراً عملاً ينطوي على أربع مجموعات شعريَّة وسرديَّة تمثِّل "الأعمال الإبداعيَّة" التي كتبتُها، وربَّما أدفعها للنَّشر قريباً. وبالتَّأكيد فإنَّها انتقاء من بين آلاف القصائد المؤلَّفة التي أهملتُها.

وعلينا أن ندرك أنَّ هذين النَّشاطين الآن يواجهانِ معضلات حقيقيَّة. فالشِّعر لم يعد يحظى بالمركزيَّة، أو المنبريَّة، التي كان يحظى بها في أواخر القرن الماضي. وإلى حدٍّ ما فقدَ جزءاً كبيراً من وظيفته الاجتماعيَّة، وصارت تنافسه "ثقافة الصُّورة" في أدوات الاتِّصال الحديثة، التي عمَّمت نوعاً من الشِّفاهيَّة الثانية، الخطيرة على مستقبل الثَّقافة. وكذلك فإنَّ الفلسفة لم تعد تحظى بالمركزيَّة التي حظيتْ بها بعد الحرب العالميَّة الثانية، حين نقلها سارتر ونظراؤه من حلقات التَّفكير الأكاديميَّة المغلقة المقتصرة على النُّخب الثَّقافيَّة إلى الأوساط الثَّقافيَّة المفتوحة في المسارح والمقاهي وندوات التلفزيون وما أشبه. وشيئاً فشيئاً صارت الفلسفة تتحوَّل إلى "رطانة أكاديميَّة" تمارسها النُّخب الثَّقافيَّة، دون أن يكون لها بُعدٌ حياتيٌّ واجتماعيٌّ.

أعتقد أنَّ ما سوف يبقى من هاتين الفعاليَّتين ليس الأشكال المتغيِّرة، بل طموحها في إبراز التَّجربة الإنسانيَّة في الاحتكاك بالعالم. ولن يخمد هذا الطُّموح أبداً، بل سوف يدافع عن نفسه بأشكال جديدة، لكنَّه يبقى محكوماً بالعثور على بعدٍ اجتماعيٍّ أو حياتيٍّ أو توصيليٍّ، يخرجه من كونه مجرَّد طموح فرديٍّ إلى الأفق الاجتماعيّ، الذي يتفاعل فيه مع رغبات الحياة الثَّقافيَّة على اتِّساعها.

هل تعتقد أنَّ الكتابة الإبداعيَّة تفتح آفاقاً لا تستطيع اللُّغة الفلسفيَّة الوصول إليها؟

الغانمي: تختلف الكتابة الإبداعيَّة عن الكتابة النَّقديَّة من حيث الهدف والوظيفة والاتِّجاه. فالكتابة الإبداعيَّة ترمي في الأساس إلى ابتكار عوالمَ جديدة، ربَّما لم يسبق التَّعرُّف عليها، وبالتالي فهي تريد اجتراح عالم مبتكر، يكون بديلاً عن العالم الموجود. أمّا الفكر النَّقديّ فإنَّ المهمَّة الأساسيَّة التي يقوم بها هي وصف العالم الموجود والتَّعبير عن محتوياته بلغة مفهومة يمكن الثِّقة بها. ومن ناحية أخرى، فالكتابة الإبداعيَّة تعتمد على الاستعارة إلى حدٍّ كبير، وهكذا فهي تقيم علاقات بين الأشياء ربَّما لا تتوفَّر في العالم المألوف. ويعتمد الفكر النَّقديّ من جهته على الكناية، أي التَّرتيب المنطقيّ المتوالي بما يخلق عقلانيَّة من نوع ما، ويحقِّق مرجعيَّة قابلة للاستيعاب. علَى أنَّ هذا لا يعني مطلقاً إخضاع هذين الاهتمامين إلى نوع من المفاضلة بحيث يمكن القول إنَّ الكتابة الإبداعيَّة أهمُّ وأخطر من الكتابة النَّقديَّة. فهذا شيءٌ يشبه القول بأنَّ كرة القدم أفضل من الملاكمة مثلاً. والحال أنَّ لكلٍّ من الرِّياضتين قوانينها الخاصَّة التي تبيح التَّفاضل بين لاعبي اللُّعبة نفسها، دون أن تبيح المفاضلة بين لاعبي اللُّعبتين.

ما دور المثقَّف العربيّ في مواجهة التَّحدّيات المعاصرة؟

الغانمي: فلنكن صريحين؛ لا توجد ثقافة عربيَّة بالمعنى الجمعيّ. هناك أفراد مثقَّفون يعملون بجهود فرديَّة، وكثيراً ما تتجاهلهم المؤسَّسات والهيئات الحكوميَّة، التي لا تعترف إلا بالجهات الرَّسميَّة التي تحظى بدعم السُّلطة الحاكمة. وحالما تتغيَّر السُّلطات تتغيَّر معها النُّخب الآيديولوجيَّة التي تدعو إليها وتبشِّر بها. وربّما كان بعض الأفراد على وعي فرديٍّ كبير ومميَّز، ولعلَّهم يتفوَّقون على نظرائهم في الغرب، لكنَّ عملهم يظلُّ فرديّاً في الأساس، بل هو لا ينجو في كثير من الحالات من سخط المؤسَّسة الحاكمة. لكنَّنا نعرف أنَّ الثَّقافة ليست هي وعي الأفراد كلاً على حدة بمعزلٍ عن الآخر، بل هي مؤسَّسة اجتماعيَّة تمارس القسر على ذوات الأفراد. لذلك يعيش الأفراد المثقَّفون في غربة حقيقيَّة وهم يواجهون المؤسَّسات الآيديولوجيَّة السُّلطويَّة، التي تتنكَّر بلبس قناع الثَّقافة، لكي تمرِّر شرعيَّة السُّلطة في حقيقة الأمر. ولا تكمن الثَّقافة الحقيقيَّة في تسويق الآراء التي تُفرض بالعنف، أو بالتَّعوُّد على التَّجهيل، وتبنِّي الأسطورة، بل في اعتناق الأفكار النَّقديَّة طوعاً ومن دون إكراه، حين يتلقّاها الأفراد تلقائيّاً، ويتبنّونها تطوُّعاً، لأنَّهم يدركون فعلاً أنَّهم بهذه الأفكار يستطيعون مواجهة التَّحدِّيات القائمة بالفعل، لا دفاعاً عن السُّلطة، بل دفاعاً عن وجودهم هم بالذات، وليس اعتناقاً لرؤية آيديولوجيَّة زائفة، بل التزاماً بمصلحة فعليَّة مباشرة.

كيف يمكن للفكر الفلسفيّ أن يسهم في معالجة قضايا المجتمع العربيّ الراهنة؟

الغانمي: أوّلاً من المستحسن أن نتحدَّث عن الفكر النَّقديِّ، بدلاً من الحديث عن الفكر الفلسفيِّ، لأنَّ الفلسفة في كثير من الأحيان كانت تنصرف عن رصد الوقائع إلى صنعها، وتمرير الصُّروح الفلسفيَّة والآيديولوجيَّة بوصفها الوقائع الفكريَّة النِّهائيَّة. وفي المقابل، يحرص الفكر النَّقديُّ ليس فقط على مراقبة الخطى التي تتَّخذها الوقائع، بل أيضاً على رصد خطواته هو نفسه في عمليَّة رصد خطى الآخرين. ولهذا فهو يشمل نفسه بعمليَّة النَّقد في أثناء انشغاله بوصف الوقائع ونقدها.

وغنيٌّ عن البيان أنَّ الوقائع لا تغيِّرها الأفكار، بل تغيِّرها وقائع مثلها، لكنَّ الأفكار يمكن أن تكون استباقاً لبعض الوقائع التي لم تتحقَّق بعد، وبالتالي تكون تبشيراً بواقع لم يوجدْ بعد، ولكنّه يمكن أن يوجد في المستقبَل. ولا يخفى أنّ المشكلة الكبرى التي تواجه المجتمعات العربيَّة الآن هي مشكلة الهويَّة، التي أصبحت محوراً للانقسام الطائفيِّ والعرقيِّ واللَّهَجيِّ إلخ.. في هذه المجتمعات. وأنا أعتقد أنَّ مشكلة الهويَّة إشكاليَّة زائفة ومأزومة. إذ ما من أحدٍ يسأل: مَن أنا؟ ما لم يكن قبل ذلك قد تعرَّض إلى أزمة في ذاكرته أو خللٍ في وجوده. وفي العادة يعيش الناس الأسوياء في تفاهم مع عالمهم، يتجاوبون معه، ويحتكُّون به، ويتغيَّرون بحسب ظروفه المتغيِّرة. في العالم العربيِّ، لا تُطرح أيَّة قضيَّة إلا إذا حوكمت قبل ذلك في ضوء إشكاليَّة الهويَّة المأزومة.

لقد اخترتَ أنت كلمة "معالجة". وهذا يعني أنَّنا أمام حالة مَرَضيَّة تحتاج إلى علاج. فعند السُّؤال عن أيَّة مشكلة من أيِّ نوع، يظهر قبل ذلك السُّؤال عن الهويَّة المأزومة. تتساءل عن الحقيقة، أو الأخلاق، أو تريد البحث في أيَّة مشكلة، فتجد قبل ذلك أنَّك يجب أن تتساءل عن الهويَّة. وهذا ما يجعل الذات العربيَّة، بمعنى

الذات التي تنتمي للثَّقافة العربيَّة، ذاتاً حائرة تواجه ثلاثة أزمنة، وتعيش في خضمِّها. زمن التُّراث الذي يفرض الاستسلام للماضي والقراءة التُّراثيَّة للتُّراث، وزمن الآخر الغربيِّ، الذي يفرض إشكالاته وهمومه علينا من خلال تبنِّي القراءة الاستشراقيَّة، وزمن القراءة النَّقديَّة الذي يسمح بحرِّيَّة التَّناول الزَّمنيِّ لأيَّة مشكلة، بشرط أن تنتمي الرُّؤية للحاضر وإشكالاته وتقنيّاته الراهنة.

من المؤكَّد أنَّ معالجة إشكاليَّة الهويَّة لا ينبغي أن تبدأ من ماضي الأنا، ولا من حاضر الآخر في مكان آخر، بل من حاضر الأنا الآن وهنا. وهذا يعني أن لا تكون نقطة انطلاقنا استناداً إلى لحظة مستعادة من الماضي، ولا استناداً إلى لحظة مستعارة من حاضر الآخر الغربيّ، بل من مواجهة إشكالاتنا الراهنة الآن وهنا. وبالتالي أن نكون أنفسنا في هذه اللَّحظة وفي هذا المكان بالذات، دون أن نخسر أنفسنا بالعودة إلى الماضي، أو تزييف هويَّة ملفَّقة مستعارة من تصوُّر غربيٍّ مغاير. وحينئذٍ فنحن نحرِّر مفهوم "الهويَّة" نفسه من أزمته الخانقة، حين نتبنّى هذه الهويَّة المفتوحة، القابلة للتَّجدُّد وإعادة النَّظر في ذاتها باستمرار من دون انغلاق أو تزمُّت.

ما هو تعريفك لموضوع قبول الآخر؟ ومن هو الآخر؟ ومن هو اللاآخر؟

الغانمي: في إهداء كتابي "خزانة الحكايات" استشهدت بالشاعر الرُّوسيّ مایاكوفسكي، الذي أهدى بعض أعماله إلى "نفسه المحبوبة". لكنّي على النَّقيض منه أهديت كتابي "إلى نهرٍ من الآخرين الذين تجمَّعوا وتبدَّدوا ليكوِّنوني". فأنا في واقع الأمر لا أبدأ من الذات، بل من الآخر. ويذهب بعض الفلاسفة المعاصرين إلى أنَّ ديكارت حين تخيَّل شيطاناً يخدعُهُ عن ذاته، إنَّما كان يشير إلى "اللُّغة"، التي تقف مثل آلة عملاقة خارجة عنه كآخر يصنع ذاته. ولهذا يذهب بعض المعاصرين إلى أنَّ نظريَّة المعرفة ينبغي أن تبدأ من الآخر، لا من الذات كما هي في العادة، باعتبار أنَّ هذا الآخر هو المكوِّن السِّرِّيّ للذات.

بالطَّبع هناك نقطتان للبدء في تناول موضوعة الذات؛ الأوَّل هو نظريَّة المعرفة التَّقليديّة، التي استمرَّ فيها التَّقليد الغربيّ بالانطلاق من الثُّنائيَّة الدِّيكارتيَّة في التَّفكير والمادة، وهي ثنائيَّة حكمت الفكر الغربيَّ الحديث وما زالت تحكمُهُ حتى اليوم. وترتَّب عليها النَّظر إلى الإنسان بطريقة ثنويَّة تعزل الذات عن الموضوع عزلاً مطلقاً. صار الفلاسفة المثاليُّون ينادون بحبس الذات في سجنها المثاليِّ المغلق، وصار الفلاسفة الماديُّون ينادون بالانطلاق من لحظة الوجود الموضوعيّ في العالم الخارجيّ. وفي الحالتين تحضر هذه الثُّنائيَّة التي تقسم الإنسان، كما كان في التَّفكير القديم، إلى جسد وروح لا سبيل إلى التَّوفيق بينهما. والحال أنَّ الإنسان هو مجموع حضور هذين العنصرين وتفاعلهما. ولهذا فالأولى بنا البحث عن نموذج لتخطِّي هذه "الثُّنائيَّة" المفرطة في عزلتها.

في المقابل هناك لحظة البدء الأخرى من الظاهرة الاجتماعيَّة، لا في الفلسفة، بل في علم الاجتماع. والملاحظ أنَّ البدء من اللَّحظة الاجتماعيَّة يعني البدء من حضور الآخر، لأنَّ وجود الذات في المجتمع يعني وجودها مع الآخرين. وبالتالي يعني هذا إدخال الآخر في مخطَّط وعي الذات. ومن الغريب أنَّ نظريَّة المعرفة في العالم العربيِّ الإسلاميِّ قد نوقشت في ضوء هذا المخطَّط مع أبي الحسن العنبريِّ، قاضي البصرة في عصر المهدي. وقد شرحت

ذلك في كتابي "معمار الفكر المعتزلي". وهو مخطَّط تابعه ابن خلدون أيضاً.
وإذا عدنا إلى تحليل فكرة "الآخر" فإنَّها تعني ببساطة جميع المخاوف والهواجس التي تحيط بوجود الذات. فالذات، برغم أنَّها تبدأ دائماً من لحظة العزلة الكئيبة التي تنفرد بها، فإنَّها تدرك دائماً أنَّها ليست وحدها في هذا العالم، بل هناك إلى جوارها ما لا يُحصى من الذَّوات والموضوعات التي تغلِّف وجودها، وتتسلَّل خفيةً إلى مفاصلها. لكنَّ الثُّنائيَّة الدِّيكارتيَّة تريد أن تحبسها في سجنٍ انفراديٍّ، لا تخرجها منه. في المقابل تريد النَّظريّات الاجتماعيَّة أن تقلِّص من مركزيَّة الذات، وتفتحها على وجود ما لا يتناهى من الموضوعات.
وبسبب الطَّبيعة العدوانيَّة لفكرة "الآخر"، فإنَّ الذات تحيطه بالشُّكوك دائماً، وتريد أن تستبعده، فتصفه دائماً بأنَّه غريب ومشبوه وغير مقبول. ولا يخفى أنَّ رفض الآخر هذا ينطلق من دوافع ذاتيَّة مركزيَّة، أو نرجسيَّة إذا أردت. ولهذا عمد الفكر الاجتماعيّ الحديث إلى ترويض فكرة الآخر؛ في البداية بقبوله على مضض، ثمَّ في الرِّضى به. فالآخر ليس فقط البعيد، بل هو أحياناً القريب المختلف، كما يحصل في البرلمانات الحديثة، حين يجتمع الخصوم الفكريُّون. وهكذا صار القبول بالآخر مبدأً من مبادئ الديمقراطيَّة، بما يتيح المجال له للحديث عن ذاته، لا باعتباره غريباً، بل باعتباره مختلفاً وحسب.

هل هناك فلاسفة أو أعمال فلسفيَّة معاصرة ترى أهمِّيَّة في ترجمتها إلى العربيَّة؟
الغانمي: لا تتعلَّق المسألة بمتابعة آخر ما صدر. فهذه مسألة سطحيَّة ينشغل بها السَّطحيُّون، الذين تخدعهم المظاهر عن الاهتمام بالقضايا الجوهريَّة. أهمُّ من ذلك بكثير هو أن يتوفَّر بين أيدينا مناهج أدبيَّة نستطيع بها أن نعود إلى الفلاسفة والأعمال القديمة، فتقدِّم لنا عنها قراءة جديدة تعيد النَّظر فيها، وترسم لهم صورة مغايرة للصُّورة المألوفة. وكما يصحُّ هذا على مفكِّري الغرب، فيمكن أيضاً أن يشمل مفكِّري الشَّرق وأدباءه وعلماءه، كما يمكن أن يشمل الفلاسفة والمفكِّرين المعاصرين من الثَّقافات كلِّها. وبهذه الطَّريقة نكون معاصرين لهؤلاء المفكِّرين في أزمنتهم، ولأنفسنا أيضاً، ما دمنا نعيد النَّظر فيهم بأدوات منهجيَّة مستمدَّة من عصرنا نحن.

ما هي نصيحتك للباحثين الشَّباب المهتمِّين بمجال الفلسفة والفكر النَّقديّ؟
الغانمي: لست في موضع يسمح لي بإسداء النَّصائح لأحد. والفكر النَّقديّ بطبيعته يدفع الإنسان إلى مواجهة شخصيَّة مع الظَّواهر بنفسه، فلا يكتفي بالإعجاب بطرق الآخرين في تناولها. ولهذا فإنَّ نصيحتي للشَّباب هو أن لا ينخدعوا بقبول رأي أحد استناداً إلى الإعجاب بالنَّسق الفكريِّ الذي يقدِّمه، أو استناداً إلى الإعجاب بالحماس الآيديولوجيّ الذي يظهره. ما يستحقُّ الإعجاب فعلاً هو جرأة المواجهة على الانشغال بالفكر وفحص خطى الذات في الوقت الذي تفحص فيه خطى الآخرين، ومحاولة الإخلاص لأزمنة النُّصوص ولزمن القراءة في وقت واحد، بما يجعل القراءة متدرِّجةً في تسلسلٍ منهجيٍّ مقنعٍ.

باب نقدم فيه رؤية نقدية لاحدث منجز ادبي الى جانب اخر نص كتبه ولم ينشر من قبل وذلك يهدف تقديم صورة متكاملة عن الكاتب وكتابه

محرر ادب وفن

بينَ تلَالٍ وَضفَافْ

شعر: خالد الحلّي

دروب مجهولَةٌ
مِنْ بَيْنِ تِلَالٍ غَمَرَتْهَا اَلْأَحْزَانْ
خَرَجَتْ يَائِسَةً
تَبْحَثُ مُنْهَكَةً
فِي اَلظُّلْمَةِ عَنْ عُنْوَانْ
ضَاعَ وَضَيَّعَهَا
لَا تَعْرِفُ كَيْفَ تَعُودُ إِلَيْهِ اَلْآنْ
تَذْرِفُ أَدْمُعَهَا
تَبْكِي. . . تَسْتَنْجِدُ
هَلْ مِنْ أَحَدٍ يُسْعِفُهَا
وَيُبَدِّدُ وَحْشَتَهَا
لَا أَحَدٌ يَسْمَعُهَا
لَا أَحَدٌ. . . لَا أَحَدُ
وَتَظَلُّ اَلْأَرْضُ تَسِيرُ بِهَا
نَحْو دُرُوبٌ تَجْهَلُ وُجْهَتَهَا

بِئْرٌ لِلْنسيانْ
مِنْ بَيْنِ ضِفَافٍ لَا تَرْسُو فِيهَا
سُفُنٌ يُتْعِبُهَا
خَوْضُ بَحِارٍ أَوْ أَنْهَارْ
خَرَجَتْ عَارِيَةَ اَلرَّأْسِ تُطَوِّقُهَا
أَمْوَاجٌ حُبْلَى بِالْأَسْرَارْ
تَبْحَثُ عَنْ بُوصَلَةٍ لِسَفِينَتِهَا
أَوْ بَحَّارْ
وَهِيَ تُقَاوِمُ عَكْسَ اَلتَّيَّارْ
حَامِلَةَ بَاقَاتِ وُرُودٍ
تَنْضَحُ عِطْرًا
كَانَتْ تَكْتُمَ أَمْرًا
وَتُخَبِّئُ سِرًّا
بَاحِثَةً عَنْ أَسْرَارٍ أُخْرَى
طُمِرَتْ فِي بِئْرٍ لِلنِّسْيَانِ
لَا تَتَذَكَّرُ أَيْنَ هُوَ اَلْآنْ

ملبورن 7/8/2025

الاغتراب في "هل ينتهي الكلام؟" لخالد الحلِّي

عقيل منقوش

ونحن ننتهي من قراءة المجموعة الشعرية الجديدة "هل ينتهي الكلام؟" الصادرة عن دار الشؤون الثقافية العراقيّة عام 2025 للشاعر العراقي خالد الحلِّي المقيم في أستراليا، يتجلى أمامنا بوضوح ان الشاعر يشتغل في أغلب قصائدها التسع والسبعين على ثيمة واحدة، ألا وهي خلخلة اليقين عبر سؤال الشعر المتشكّك، والذي أطلق عليه الشاعر بالكلام الذي لا ينتهي عبر تساؤل بالأداة الاستفهامية هل؟

انتهاء الكلام يعني السكوت ومن ثم الموت، والتسليم للأقدار الخفيّة التي تحرّك الموجودات بعلاقاتها المختلفة المتشابكة التي لا يقبل بها الشاعر المشاكس بطبيعته.

تبدأ قصيدة خالد الحلي بمدخل بسيط، لحالة إنسانيّة تعبيرية واضحة من سلوكيات الحياة لتنتهي بسؤال فلسفي معقّد يبحث عن جواب شاف، يغيب أغلب الأحيان في القصائد التي تكون نهاياتها حزينة، فيها من الخسارة أكثر من الانتصار الذي تسعى له الكتابة بعناصرها الجمالية التي تزعم امتلاكها لأدوات التغيير المعرفيّة، ربما لأن الكتابة التي يؤسس لها طويلاً عبر أشعاره هي نوع من التراجيديا الشخصيّة التي أصابته وأصابت بيئته وعالمه، وجعلته يسعى إلى إعادة ترميمها عبر سرديّة شعريّة عاطفية، تكون أناه حاضرة فيها تحاور المرأة المفترضة والحبيبة البعيدة في حقب حياته المختلفة، والتي يكشف من خلالها عن حيوات متعددة لم تكتمل، بل سرعان ما تنطفئ، كلّما وصلت إلى توهجاتها، كما في قصيدته التي تحمل عنوان: "أيامٌ يسربلها الغبار"، والتي يقول فيها:

حِينَ يلُمُّ اللّيلُ بقاياهُ،
ويرمي فوقَ رمادِ الأيّامْ
يوماً آخرَ من أيّامِ حياتي
تَتَمَلْمَلُ باكيةً في بئرٍ مهجورْ
سَنَواتٌ ودُهورْ
تَصْحُو، وتنامْ
تتساءلُ في اليقظةِ
عَنْ أعوامٍ تختزلُ الأحلامْ
تتساءلُ فيَ النومِ،
عَنْ الفجوةِ بين الواقعِ والأوهامْ
عَنْ مقبرةٍ لا تُدفنُ فيها إلا الأزهارْ
عَنْ ألغازٍ يغزِلُها الحاضرُ
ليلاً ونهارْ

عَنْ أسرارٍ يَكْتُمُها الماضي
مُنْذُ عُصورْ
وتقولُ بقلبٍ مَكْسُورْ
يؤلمني أنْ تتراكمَ أيّامي القتلى
ما زلت أشيِّعُ كلّ صباحٍ يوماً
الأيّامُ تضيقْ
لَمْ تتركْ بُشْرى لحبيبٍ
أو لصَدِيقْ
هَلْ مِنْ معجزةٍ
تغدو فيها الأيّامُ شهورْ
تتدفق خيراً وعطورْ
هَلْ مِنْ زمنٍ
لا يَكْتُمُ لغزاً أو أسْرارْ؟

وكلمة (يسربل) في المعجم العربي تعني يلبس "السربال"، وهو ما يغطي الجسم من ثياب أو درع ونحوهما. وسربال الشاعر هنا، هو الغبار الذي يغطي أيامه دليلاً على توقفها وعدم حركتها، ربما لأنها تتشابه بعدم فاعليتها وجدواها، إذ يرى إن المأساة الخفيّة التي تغلفها، تجعلها تضمحل وتتلاشى، حاملة معها أسرارها وألغازها، من دون أن تفصح عن شيء يجعل الشاعر يصل إلى جوهرها الفعلي بوصفها صيرورة حياتية، يستطيع أن يبتهج بها حدّ أن لا يفرط بها أو يسعى لدفنها وكأنها جثث تتراكم على بعضها، وهذه ليست عدميّة سوداويّة تدّل على يأس عميق من جدوى الوجود والعيش فيه، بل احتجاج كبير على "مقبرة لا تدفن فيها إلا الأزهار".

إن حساسيته المفرطة تجاه الواقع المعاش للشاعر تجعله لا يفرق بين أيامه التي شاءت لها بوصلة القدر أن تنام في مكان يتكرّر برتابته الخالية تماما من التحفيز الذهني، على الرغم من أن روحه تواقة للخلق الجمالي الذي يملك أدواته بكفاءة عالية، لكن الصدمة تولّد الإحباط الذي يتمدّد بغرزه في الجسد بطيئا مثل سكين تقطع العظم لتصل إلى العمق لتعلن النهاية، وهذه القصيدة الحزينة المتسائلة هي أنموذجٌ لا يختلف عن باقي القصائد التي ترصد حالات مشابهة لها تؤشر لعمق القطيعة بين الكائن والوجود، والتي يحاول الشاعر فيها أن يجد معنى واضحًا أو خفيًا لهذا الخراب الذي لا يتوقّف.

لكن في قصيدة مختلفة بعنوان "دع سوانا يسألون"، نجد الشاعر يقول:

كَمْ سَألنا؟
كَمْ سَنَسْألْ؟
دونَ أنْ يأتي جوابْ
جلُّ ما راودنا مِنْ أسْئلةْ
ظلَّ مُهْمَلْ
خلّفَتْهُ القافلةْ
هَلْ سَنَبقى نتأمّلْ
سارِحِينْ
في ضَبابِ الإحتمالْ
غارِقِينْ
نتحرّى عَنْ نُجومٍ آفلةْ

عَنْ سِنينْ
هَرَبتْ منّا،
وما عُدْنا نراها
عَنْ زمانٍ مُبهَم سوفَ يجيءْ
قُلتِ لي، والحزنُ يَنْهَلْ
مِنْ صدى صَوْتِكِ
أنّاتِ عذابْ
هَلْ سنبقى نحنُ نَسْألْ
وكلانا
لَمْ يَذُقْ طَعْمَ الجوابْ
بعدَ أعوامِ اِرتِقابٍ وعذابْ
كَمْ سَألنا؟
كَمْ سَنَسْألْ؟
هَلْ سنبقى وحدنا
سائلينْ
دَعْ سِوانا
يَسْألونْ
معنا
علّهمْ لا يَيْأسونْ

مِثْلنَا

الشاعر يعلن عجزه عن الوصول إلى الحقيقة التي يسعى إليها بسؤاله الدائم، ليس لأنه غير مؤهل لمعرفتها، بل بقبول الواقع الظاهري للأشياء، والتآلف معها، ليس وحده فقط، بل مع المرأة القرينة التي يحاول أن يجعل منها مرآة عاكسة لذاته التي يخلق حوارا دائمًا معها، ولأول مرّة يستدعي تدخل الآخر لمقاسمته السؤال بعد أن أصابه اليأس التام.

إن الاغتراب الذي يعاني منه الشاعر في هذا العالم، ليس ترفًا معرفيًا أو ترفعًا برجوازيًا، بل التصاق كبير بالطبيعة وعدم القبول بمغادرتها، إنها الفطرة الأولى التي تعجز كل العلوم الحديثة أن تنزعها منه، بكل تمظهراتها العلميّة وحداثتها التكنولوجية.

خالد الحلي شاعر عراقي ظل وفيًا لقصيدته الموزونة التي تدّل عليه وحده، ببساطتها وخفة مفرداتها، بعاطفيتها وابتعادها عن التقليد والتعقيد. منجزه الإبداعي الشعري.

في مقهى سيدوري!

يوسف أبو الفوز

حصل ما لم يتوقعه يوما، ولكن تمناه دائما، بكل جوارحه. اتجهت نحوه مباشرة، وإشراقة ابتسامتها الملائكية تسبقها إليه. شعر بالارتباك يغزو كل خلاياه. أيعقل ذلك؟ ان ابتسامتها ونظراتها تقولان هذا. يا رب السماء، انها تتجه نحوه. انها تقصده بهذه الابتسامة الحيّة وترمقه بنظرات المحبة. وإذ صارت على مقربة منه لفحه عطرها الفاغم. لم يقدر له في يوم ما، لا في أي زمان ومكان، شم مثل هذا العطر. شيء ما فوق الوصف، ربما من عطور الجنة. وقفت قبالته تماما. كان وجهها القمحي يفيض بالحياة. عيناها المعجونتان بتراب القهوة، تبسمان بمودة لم يألفها أبداً ... أبدا.

ـ مرحباً!

قالت ذلك. نعم قالت ذلك، ببساطة، وله تحديدا. يااااااه، ما أجمل نبرة صوتها ووقع كلماتها. مع ذلك فغر فاه دهشة، غير مصدق أبداً ... أبداً. لم يستطع سوى التلفت جانبا ليتأكد، أحقا تقصده بتحيتها، هو بالذات وليس غيره؟ حدق مليا إلى عينيها. أي لون هذا؟ أهو لون القهوة المخلوطة بشفق الصباح؟ أم هو غرين الفرات تظلله سعفات النخيل؟ يوما، في لحظة صداقة وصفاء، قال له والده وهو يضغط على كفه بمحبة وقوة:

ـ تذكر يا ولدي دائماً، ان العين هي مفتاح روح الإنسان. حدق جيدا في عيني أي إنسان تقابله وتحادثه. لا تخش شيئا وستتعلم

بسرعة. ستقودك عيون محدثك إلى معرفة إن كان صاحبها يحبك أو يكرهك أو يداهنك وغير ذلك. العيون فضّاحة دائما يا ولدي.

وإذ يلمح والده اقتراب والدته منهما، يرفع صوته عامدا، ويغمزه متآمرا، ويضيف وهو يفتعل السعال:

ـ اسأل أمك... كيف عرفت أني اعشقها؟

ببساطة فضحتني عيناي أمامها!

وتضحك أمه بجذل صادق، وعينيها تنطقان بروح الشباب الذي مضى، وتعلو صوتها، فجأة، نغمة دلع غريبة عنها:

ـ ليس وحدي الذي أكتشف ذلك، بل كل من عرفوا والدك، كانوا يقولون لي ان عينيه تلمعان حين يسمع أسمي.

العينان اللتان تحدقان به تفيضان محبة، عذوبة، حنانا وأملاً! أمل؟! هل قال الأمل؟ نعم قال ذلك تماما. وتماما، هذا هو اللون الذي تنطق به وتعبر عنه، هاتان العينان اللتان

تقابلانه. فمثل هاتين العينين لم يقابل وصفهما في أي من كتب الشعر التي أطلع عليها. لم ير مثيلا لهما في صفحة أي من الوجوه، الغريبة والقريبة، التي عرفها وعاشرها.

ـ مرحباً!

كررت تحيتها مرة ثانية، بذات الإيقاع الذي يسلب من الروح توازنها، ويجعلها تسيح مثل قطعة زيت على سطح معدن ساخن. زاد وجيب قلبه وهو يتأكد أنها تقصده هو تحديدا:

ـ مراحب عيوني!

فلتت منه عبارته بتردد، لكن واضحة، بكل قوة الأمل، التي راحت تنمو في روحه مع رفة رموشها. شعر بالغضب لأنه أجابها بهذا الشكل الروتيني، المجرد. كان عليه اختيار عبارة اخرى، أكثر دفئا وشاعرية. ان يعصر دماغه ليستنجد بما قرأ من شعر ونثر وملاحم، وما سمع من موسيقى وأغان ليجد العبارة اللائقة والمناسبة. أمام ذهوله من اقترابها المفاجئ منه، وسطوة ابتسامتها، وعذوبة صوتها، لم يجد غير عبارة عادية تردد يوميا، ومن قبل كل الناس، في كل مكان. شُدِهَ بها من اللحظة التي لمحها فيها تخطر بزيها السومري، الطويل الفضفاض الذي يكشف عن كتفها الأيسر، المنحوت ببراعة إلهية. هل كان لون الفستان أبيض؟ لا ... أبداً، انه شيء آخر. لون لا وجود له في عالم الألوان. شيء مثل السحر! السحر؟! هل قال السحر؟ نعم، السحر، هذه هي الكلمة المناسبة لكل شيء له علاقة بها، ويصدر عنها!

ـ أيمكن لك مساعدتي؟

إذ سمع سؤالها، شعر بساقيه تخذلانه ويكاد يهوي إلى الأرض. أيعقل هذا؟ هو الذي كان يتمنى ان يحظى ولو بمجرد نظرة عابرة منها، ها هي تأتيه بنفسها، وتكون بحاجة لمساعدته، وتطلب منه ذلك بكل لطف ورجاء؟!

بلع ريقه، شهق كالغريق، محاولا تفهم ما يجري. كررت سؤالها:

ـ قالوا بمقدورك مساعدتي؟

لكن لماذا هو بالذات وليس غيره؟ كيف قدر لها إختياره؟ من أين جاءت ومن أين ... وتنبه إلى المكان حيث يقف أمامها ذاهلا من مفاجأة تحيتها وسؤالها. انه مكان عام، ليس غريبا عليه. انه مقهى عام. مقهى على شاطئ نهر. أي نهر هذا؟ أهو نهر دجلة أم نهر الفرات؟ إن كان ذلك نهر الفرات، فهذا يعني انه في مقهى (علي زغير)، هناك حيث أعتاد طلاب ومعلمو ومثقفو مدينته الجنوبية اللقاء في تلك الأمسيات الصيفية البعيدة، ومع إستكانات الشاي و(الحامض نومي بصرة)، المعمولة على موقد الجمر، من يد الاسطة علي زغير، يتبادلون الكتب والأفكار وهموم ومفارقات أيامهم المكتظة بكل ما هو جديد، ويخوضون نقاشات بدون نهاية حول كل شيء. وإن كان المقهى عند نهر دجلة، فهذا يعني انه (مقهى السلام) في بغداد، في شارع (أبو نؤاس)، حيث اعتاد ان يكون مكان لقائه بأصدقائه ومعارفه في زياراته، بين الحين والآخر، إلى العاصمة. لكن ... كل العالم عرف أخبار العراق، لم تترك وسائل الاعلام الدولية شيئا لم تتحدث عنه، وعما فعله النظام الديكتاتوري الشوفيني المقبور، الذي تبخر فجأة رغم كل العنجهية والمزايدات الفارغة، واختفى رمزه مثل الجرذان، مع دخول قوات الغزو الأمريكية، تاركا خلفه البلاد تعج بالمقابر الجماعية، الثياب السود والحزن، القلق والفوضى والعمائم! طوال أكثر من ثلاثة عقود صادر النظام الهمجي بهجة

الحياة من أبناء العراق، وهكذا كان ضمن ما فعله ان غيّب الحياة من مقاهي كورنيش مدينته الجنوبية، بل وأزال شارع أبو نؤاس بكامله. لم يعد العراق كما كان أبدا، بعد ان صادر الديكتاتور الارعن ونظامه الدموي حتى نهري دجلة والفرات. فأين هو الان؟ في أي زمان ومكان؟ أي مقهى هذا؟ وأنتبه إلى المقاعد من حوله. كاد يلطم جبينه بكفه. أيعقل ان ينسى هذا أيضا؟ إن كانت زوجته تسامحه باستمرار وتتفهم نسيانه الدائم، كيف يسامح نفسه الان؟ ألا يمكن له التركيز قليلا قبل إطلاق الأسئلة ليربك نفسه قبل الآخرين؟ انه يقف في وسط مقهى سيدوري. مقهى سيدوري وليس غيره. وأي مقهى غير ذلك، تجد فيه كل هذا السحر؟! ها هو الحلم مرة أخرى يحمله إلى أحد الأمكنة المفضلة لديه. يا لسطوة الأحلام عليه. عوالم أحلامه التي لم تجلب له، سوى الاحتراق والوجع، واللوعة المترعة بالهواجس، وأيضا لسعات سياط الضحكات الساخرة التي تطلقها زوجته بين الحين والآخر، خصوصا حين تتحرك عندها دوافع نسائية ليست بخافية عليه. في البدء حاولت زوجته استقبال حكايات أحلامه بعدم الاكتراث، ومع مواصلته رواية كل ما يصادفه، صارت تصغي إليه بإهتمام شديد، وتستدعي فرويد ليكون إلى جانبها، وتحاول قراءة ما يقف خلف حكاية كل حلم. راحت زوجته بدلا من مشاركته بهجة أقواس قزح التي تنهمر عليه كل مرة في أحلامه، تسخر مما يرد في بعضها، وبذلك تعكر عليه صفو وهج أحلامه. أحلامه التي قادته إلى مواقف لا يمكن نسيانها. يا لشدة ضعفه أمام إغراءات الأحلام. غازل وراقص وقبّل، كذا من النساء اللواتي رغب فيهن يوما ما في صباه، ووجد نفسه مرة، وبكل ثقة وبرود يصد عن لمس امرأة، رغم فتنة جمالها، إلا انها وإن كانت متكبرة، متعجرفة مع الناس، وجد ان جسدها في حلمه مرصوفا من حجر كراهية خشن، لا يمنح أي حرارة أو وهج حب. وكلما روى شيئا من ذلك لزوجته، كانت أولا تبرطم مفكرة بتمهل، تقيس كلامته، ثم تبدأ بتسفيه أحلامه، مغالية في مزاحها:

ـ أتريدني ان اشعر بالغيرة من نساء أحلامك؟ هناك تمكن من مقابلة كل الشخصيات السياسية والثقافية، التي يرغب، وحاورها بحيوية وثقة عالية، بل وأفحم البعض منهم، لكنه يعترف بأنه لم يقو على محاججة كارل ماركس. نظر اليه بعمق، وشعر كأن عينيه تخترقان أعماقه، وقال له بصوت عميق أتعبه السهر وهو يهرش ذقنه الغزير الشعر:

ـ أرجوكم، حاولوا قراءتي بشكل صحيح، حتى تخف الشتائم من حولي التي يطلقها الـ ...!

كان مسرورا بهزيمة الديكتاتور صدام حسين السهلة أمامه. لم يستطع، رغم كل صلافته، الصمود طويلا امام حججه وهو يعرض لها سجل جرائمه، فغادر المكان بسرعة وهو ينفخ بقوة من منخريه، وكان إلى جانبه يسير هتلر متمهلا مثل تلميذ، يحاول تهدئته وخصلات شعره المائلة تتطاير. أما حواره مع شكسبير، فقد كان قمة المتعة، خصوصا حين التقيا، فجأة، أثناء تجوالهما عبر مرج اخضر، بأنطون تشيخوف، الذي شاركهما الحوار بكل تواضع وهو يسعل ويضع منديلا على فمه، وإن أعربت تحيته وحركاته عن شعور ما بالغيرة، فمعرفته الجيدة بتشيخوف تعود إلى سني دراسته المتوسطة، لذلك لم يتوقع تشيخوف منه انشداده إلى شكسبير بهذه

السرعة، حالما أنتقل الى دراسته الجامعية! والان، لا يمكن له أبدا نسيان ان هذه المقهى هي مقهى سيدوري، فمقاعدها الحجرية، تحمل بصمات أبرع نحاتي وفخاري أوروك، وكان مقعد إنانا المصنوع من شجرة "الحلبو"، التي أهداها إياها گلگامش، موضوعا في مكان عال، كالعرش المقدس، منفردا لا يقربه أحد. من زيارته الاولى التي جاء بها إلى المقهى، لفت انتباهه ذلك الإغراء الهائل الذي تحمله سيدوري وينبعث من كل حركاتها وسكناتها، الذي لم ينتبه له كل الذين تحدثوا عنها، عند لقائها گلگامش وهو في طريقه للقاء أوتونابشتيم. كانت سيدوري وهي تتلقى طلبات زبائن المقهى وتوزع اقداح (شراب الشعير)، أو حين توجه فتيات المقهى لتلبية طلبات الزبائن، وهن يخطرن مثل فراشات ملونة، في كل مرة تظهر بزي مختلف، وتسريحة مغايرة، وكاد يصيح: أنحن في عرض لقناةFASHION TV التلفزيونية؟ في تلك اللحظات لمح گلگامش يصل المكان، متعبا، منهكا، وجهه أشعث، ذابل الوجنتين، حزينا، لباسه من الجلود، يحمل كل عدته الحربية بحزامه العريض، ويتوكأ على رمح طويل برأس نحاسي، وأنهد إلى أول مقعد وقد جللته الهيبة كرداء. لم ينتبه لگلگامش من الجالسين أحد سواه. توقع ظهور أنكيدو ايضا، لكنه تذكر ان مصيبة گلگامش بدأت بعد موت صديقه أنكيدو. ها هو إذن گلگامش، حاكم أوروك. گلگامش ابن الآلهة ننسون، الذي حملت به من ملك أوروك لوجال بندا، فجاء ثلثه إنسان وثلثاه إله. گلگامش الذي طغى وبغى في أوروك، قبل ان تسمع الآلهة شكوى الناس فخلقت أنكيدو ندا له ليلهي گلگامش عن البطش برعيته. فراحا معا يسجلان البطولات والمآثر، قتلا خمبابا حارس غابة الأرز، وصرعا الثور السماوي، فأثارا غضب الالهة، التي قررت موت أنكيدو، فجزع وفزع گلگامش. موت أنكيدو جعل گلگامش يفر هاربا باحثا عن سبيل للقاء أوتونابشتيم ليهديه إلى سر الخلود. محاولا فهم سر الكون والوجود. وها هو الذي يخبرنا طه باقر بأن معنى اسمه بالسومرية (الرجل الذي سينبت شجرة جديدة)، هاهو الذي رأى كل شيء، يصل هنا مواصلا البحث عن الطريق للقاء أوتونابشتيم. توجهت سيدوري إلى گلگامش باسمة، تتثنى بمشية القطة، تهز أعطافها بغنج، وقفت عنده وحادثته طويلا. كانت عيون گلگامش وهو يحادث سيدوري تلمع بشرر الأسئلة. وبعد ان أستقى وارتوى گلگامش من (شراب الشعير)، أراد النهوض ليواصل مسيره وسعيه، وجد نفسه فجأة يجري، وينادي گلگامش، الذي ألتفت إليه بكبرياء، أستمع إلى سؤاله باهتمام وأجابه بهدوء. وإذ سمع جواب گلگامش ظل لأيام يشعر بالغضب من زوجته، التي صاحت بلوعة والدموع تكاد تطفر من عينيها، مفجرة كل الغيض المتراكم في روحها:

- أتدري؟ يهمسون لي ان زوجك غريب الأطوار. أعتقد ان فيك شيئا من الجنون. بل اعتقد أنك مجنون حقا، ومن اجل ان تتأكد من ذلك اقترح عليك ان تعرض نفسك على طبيب مختص.

يعرف ان زوجته تظلمه بهذا القول. نعم، هو مجنون، يعرف ذلك جيدا، ومجنون تماما، ولكن ليس مثلما تظن زوجته. أصيب بالجنون من اليوم، الذي اضطر فيه لمغادرة بلاده، هربا من ضباع الموت في وطنه، الذين سمموا حياة الناس، وبغوا وبطشوا في البلاد.

هو مجنون يبحث عن السر الذي يساعد الناس في بلاده ليعيشوا في طمأنينة وأمان وسلام. انه مجنون بأمل رؤية الناس تعيش في سعادة وتكافل. ان يرى العراق ينهض من جديد وطنا حرا، بهيا للجميع. ان يسمع أغاني تموز تصدح في كل جنبات البلاد. مجنون بحب أهله وأصدقائه والناس الطيبين. مجنون بالتحديق بعيون زوجته العسلية الصافية، بالحياة، بالأمل، بأقواس قزح. مجنون بتاريخ بلاده وتراثه، أساطيره، انهاره، جباله، نخيله وأغانيه. هو مجنون بكل هذا، وان غضب وغيض زوجته منه لا يمكنه ان يبرئها من مسؤوليتها عما جرى عند لقائه گلگامش:

ـ أنا لست مسؤولة إذا جاءت إجابة گلگامش عن سؤالك بهذا الشكل، ثم أيعني هذا أنك ستطلقني مثلا لو أنك في حلم آخر ...

وغادر البيت يومها غاضبا، قبل إكمالها ما تريد قوله. كان واثقا انها هي السبب.

ولولاها لما جاءت إجابة گلگامش له بهذا الشكل الذي جعله يشعر بالوجع لأيام. ومن غيرها كان السبب؟؟ كانت محفزا عمليا لجواب گلگامش!

في صباح ذلك اليوم، وهو يغادر إلى العمل، أخبرها بان نهاره سيكون ثقيلا، مليئا بالاجتماعات وتقارير العمل، ورجاها ان لا تهاتفه إلا عند الضرورة. ولكنها كررت مهاتفته مرتين. قفل يومها هاتفه النقال حتى يستغل كل دقيقة من وقته للعمل، ولكنها اختارت هاتف موقع العمل العام. وجد نفسه يقول لزوجته عبر الهاتف، ومن بين أسنانه:

ـ سأتصل بك بعد قليل!

وفي غمرة انشغاله نسي وعده لزوجته، فكررت اتصالها الهاتفي، وحاول التماسك وهو يسأل:

ـ ما هو الأمر الضروري الذي توجب الاتصال؟!

قالت له زوجته بمزاج رائق، وهو يكاد ينفجر غيظا:

ـ هل تستطيع في طريق عودتك ان تشتري لنا اليوم (ركي)، لان هناك احتمالا ...

ـ ماذا تريدين أن اشتري؟

ـ يسمونه البطيخ الأحمر يا حبيبي، الحبحب يا بعد روحي، الشامي يا شريك العمر، الدُّلَّاعُ يا ...

وأنهى المكالمة وزعل يومها من تصرف زوجته، التي أدركت كما يبدو خطأها، لذا لزمت الصمت ولم تحاججه كعادتها حين احتج على مكالمتها، لكن سبب غضبه الحقيقي منها، كونه حين التقى بگلگامش وصاح خلفه:

ـ إلى أين تمضي يا گلگامش؟

التفت اليه گلگامش تعبا، منهكا. سبقته سيدوري وسألت ذات السؤال:

ـ الى أين تمضي يا كلكاميش

ان الحياة التي تبحث عنها لن تجدها.

توقع ان يكون جواب گلگامش ذا بعد فلسفي. حكمة سومرية ما، متوارثة، يظل يرددها كلما دارت الأحاديث عن مغزى الحياة. شيء من صدى الملحمة، التي عكف على ترجمتها من الأكدية مباشرة ابن بابل، العلامة طه باقر، الذي رفض منصب وزير التربية الذي عرضه عليه الزعيم عبد الكريم قاسم، وأجابه (الآثار أهم من الوزارة)، فعيّنه مديراً عاماً للآثار حتى عام الانقلاب الدموي في 8 شباط 1963، حيث سجنوه بتهمة (حب الزعيم) فتحدى هيئات التحقيق ولم ينكر محبته وشغفه بالزعيم قاسم. يعرف الانقلابيون ان طه باقر لم يكن شيوعيا، لكنه قريب منهم،

وتأثر بأفكارهم في الدعوة للعدالة الاجتماعية فهمشوه، فاجبر على مغادرة وطنه للعمل في ليبيا حتى عام 1970.

ان طه باقر الذي أغرم بالملحمة العظيمة ونشر عام 1962 ترجمته لها وأخبرنا، ان گلگاميش تعلم في النهاية أن القيام بالأعمال الصالحة هو الذي يخلد ذكر الفرد لدى الأجيال، ويجعل روحه تنال الراحة والطمأنينة في (العالم الأسفل)، فبنى اسوار أوروك المحصنة واقام العدل فيها وعامل الشعب كأبنائه، وبذل جهدا لتعليمهم، ليكون للحياة معنى أفضل! وفي ذلك اليوم، الساحر، الفريد، التفت اليه گلگاميش، ليرد على سؤاله بكبرياء وابتسامة غامضة على وجهه:

ـ ذاهب لشراء الركي ... البطيخ الأحمر... الحبحب... الشامي.. الدُّلَّاعُ ... الـ...

أيعقل هذا يا ناس؟ ان يحظى بلقاء جده گلگامش، بطله الاثير، الذي ومن أول أيام وصوله إلى منفاه شمال القطب، لم يترك أحدا إلا وصدعه بالحديث عنه:

ـ أنا حفيد گلگامش، أنا ابن أوروك، و ...

وأخيرا ها هو جده العظيم، يرده بسخرية مرة؟ ترى ماذا سيكون موقف طه باقر منه، لو عرف بذلك؟ ها هو وإذ يجد نفسه في مقهى سيدوري مرة أخرى، يقف بذلك الانبهار أمام سحر الأميرة السومرية، تختلط في روحه كل الأمنيات والأمل. انه جاهز لينفذ لها كل ما تريد. كل ما تطلبه. ان يعطيها روحه. أدرك اخيرا انه يقف في حضرة إنانا ذاتها. مرات عديدة كان يقف منبهرا أمام عرشها المقدس في المقهى. كان يتصور كيف ان الحية العملاقة وطائر الزو والشيطانة ليليث مجتمعين اغتصبوا شجرة الحلبو، وسكنوها وحرموا إنانا من الاقتراب منها، وهي التي بعد ان اقتلعت ريح الجنوب العاتية شجرة الحلبو، ورمتها إلى نهر الفرات، عثرت عليها طافية في النهر، فانتشلتها وحملتها إلى أوروك، وزرعتها في حديقتها المقدسة، ورعتها لتكبر وتكون فتنة للناظرين. لكن المغتصبين سكنوها وحرموا إنانا من الاقتراب منها، ما اضطرها لطلب المساعدة من گلگامش، الذي صارعهم وقضى عليهم وقطع الشجرة، واهداها إلى إنانا التي صنعت منها كرسيا وسريرا. ومن باب رد الجميل لگلگامش بادرت إنانا، وصنعت من خشب الحلبو ايضا آلتين موسيقيتين اسمهما مكو وبكو وأهدتهما إلى گلگامش. كان يود لثم كف إنانا ليشكرها على صنائعها مع بلاده. كان يريد ان يسألها لتحكي له كيف استطاعت، ان تجعل أنكي إله الماء والحكمة، يستسلم لطلباتها ويمنحها نواميس الحضارة كلها، مرة واحدة، والتي منحتها لمدينة أوروك، حيث بدأت حضارة المدينة، وبدأت تترسخ هناك أولى تقاليد الحضارة العالمية؟! ها هي إنانا اخيرا تقف امامه بكل البهاء السومري، لتقول له وببساطة:

ـ قالوا لي ان بمقدورك مساعدتي؟

وقبل ان يتفوه بكلمة ويقول شيئا، اشارت إلى حجر منفرد، تتكسر عنده مويجات النهر:

ـ وودت الجلوس هناك، هل لي ان أحصل على شيء ما، حصيرة صغيرة مثلا، لأضعها حتى لا يبتل فستاني، فالحجر ندي كما ترى.

وشعت روحه فرحا، لأنه قادر على تنفيذ ذلك، نفخ صدره، رفع رأسه عاليا، وشد قامته، وقال لها:

ـ لحظات وسيكون عندك ما تريدين.

وتوجه مسرعا إلى داخل المقهى، و ... لكنه أفاق فجأة واستوى في فراشه، حتى ان

زوجته أفاقت معه على نهوضه المفاجئ:
ـ ها... خير انشاء الله؟!
وسرعان ما دق منبه الساعة، وتركت زوجته سرير النوم، لتغتسل وتحضر الفطور، وتعد نفسها للخروج إلى عملها، وظل في فراشه قانطا، محبطا، يشعر بالألم يشك كالمسامير خلايا جسده، وليس لديه اي رغبة للنهوض وترك الفراش. كانت زوجته في كل لحظة تطل عليه، وتعاود السؤال:
ـ اتشكو شيئا يا حبيبي؟ إذا كنت متوعكا لا تذهب اليوم إلى العمل.
وكان بعيدا عن كل شيء. كان يشعر بالغضب من نفسه. لماذا أفاق من نومه فجأة، قبل تلبية طلب إنانا؟ أجبرته زوجته على ترك السرير، الاستحمام عله يتنشط قليلا وشاركها على مضض الفطور. كانت زوجته تمازحه وتشجعه مثل طفل، ثم دفعته دفعا إلى موقف الحافلة ليلحق بموعد عمله. هناك ظل ساهيا عن كل شيء. ظل جالسا إلى مكتبه، يعب أكواب القهوة المرّة، ويخربش على الاوراق امامه، موحيا للآخرين بأنه مشغول بأمر ما. لم يقترب منه أحد. مسؤولته المباشرة، طلبت منه تقريرا واقتراحات عن ممارسات عنصرية وتنمر واجهها بعض العاملين لديهم خلال تنفيذ مهام عملهم، وعدها بإنجازه بعد يومين. كان بعيدا عن كل شيء. كان الالم يعتصره. وسؤال وحيد يراوده، منذ استيقاظه:
ـ يا ترى هل تعاود إنانا زيارته مرة اخرى؟
ما ان اقتربت ساعات العمل، على النهاية، حتى خرج مسرعا. دار بين المحلات والاكشاك يبحث عن شيء محدد. أخيرا في محل يبيع تحف ومعدات قديمة، وجد ضالته. كانت تلبي المرام تماما. كانت صغيرة بحجم سجادة صلاة، ومضفورة بفن يشبه عمل أهل الاهوار، مصنوعة من حبال القش. توهجت بالدهشة، عيون العجوز، صاحبة المحل، من لهفته الشديدة لشراء تلك الحصيرة الصغيرة، والتي لفها بنفسه بعناية، رغم كونها لم تكن غالية الثمن. حين وصل البيت، ولتكون عند متناول يده، وضعها قريبا إلى سرير نومه، تماما عند مصباح القراءة، هناك، حيث كان منذ أيام يرقد، بورق تهدلت حوافه من كثرة القراءة، كتاب (ملحمة گلگامش) ترجمة طه باقر. حين لاحظت زوجته إهتمامه بالحصيرة، لم تحاول سؤاله، لكنه قرأ ذلك في عينيها الجميلتين، وكانتا في ذلك اليوم تشعان بالحنان والتضامن والتفهم. فبادر وقال لها:
ـ حتى لا أنسى.
وقرأ الاقتناع في عيني زوجته، ربما لكثرة ما عانت من نسيانه الطبيعي أو المتعمد. وظل كل ليلة، قبل خلوده إلى النوم، يمسح الحصيرة من الغبار، يتأكد من وجودها ويتأملها، علّ إنانا تزوره من جديد ليقدمها لها!

هلسنكي ـ
كتابة أولى فجر الأول من شباط 2004
*** النص من مخطوط قصصي معد للنشر**

ليس من العدل أن لا تتقن انتحارك

زياد تركي *

كلما جاء الخريف وضربت هبّات الرياح وجهي بأوراق الأشجار الصفراء المتساقطة، أتذكر جملة الكاتب العراقي جليل القيسي التي وصف فيها الأشجار الخريفية: "صفراء كما لو أنها مصابة بالتدرن"، والتي جاءت في مسرحيته "وداعًا أيها الشعراء" على لسان شخصية الفنان العظيم فان كوخ في لحظاته الأخيرة قبل انتحاره. إنها مواسم التساقط، مواسم "التدرن والاصفرار" كما تخيلها الكاتب جليل القيسي، وربما هو ذات الخريف الذي قرر فيه فان كوخ الانتحار في حقل قرب شجرة. لكن خريفي هذا له طعم آخر بالتأكيد، حيث أجد نفسي أستقبله بفرح غامر بانقضاء الصيف الساخن المتأثر بالاحتباس الحراري.

صادف كلّ ذلك فرح أطفال الحي الأمريكي الذي أسكنه باحتفالاتهم بأعياد الهالوين. كنّا نشتري أنا وزوجتي المزيد من الحلوى ونضعها بجوار الباب، ونضيء حبات القرع البلاستيكية عند عتبة الدار. وكلما جاء الأطفال حاملين جرادلهم ويطرقون الباب مرددين "trick or treat"، أتذكر أطفالنا في الوطن وهم يرددون بليالي رمضان "ماجينا يا ماجينا. حل الكيس وانطينا". هكذا تتشابه في ذهني بعض الثقافات والأعياد وقد تختلف كخريفي هذا.

تعاودني أيضًا تلك الفكرة السوداء التي طردتها من ذهني عندما تأكدت أنى لن أكمل دراسة الفن في أوروبا بسبب الحرب. أعلم الآن أنني لو نفذتها، فسأتقنها تمامًا بحكم التجربة والمهارات التي اكتسبتها من الحياة. كنت لا أريد الذهاب الى الحرب وكانت الفكرة تكبر في رأسي، وأحتار في كيفية استخدام الأدوات المساعدة. كان فان كوخ رسامًا متقنًا للوحة الانطباعية، مبتكراً متمرداً، وهائجاً كإعصار، ومع ذلك أخفق في استخدام المسدس وهو يوجهه نحو بطنه بدلاً من رأسه، أو ربما كان ثملاً جدًا بحيث لا يقوى على رفع مسدسه نحو صدغه. بقي يتلوى يومين في المستشفى قبل أن يموت. ليس شرطًا أن يتقن المبدعون موتهم! فهذا الإخفاق لن يعيق خلودهم أبدًا، ولن يتعرض لهم "أنصاف النقاد" بسوء بوصف "الانتحار" مثلبة فنية أو شيئًا من هذا القبيل. بل ربما العكس، حيث تساعد قصص فشل

الانتحار أو ما شابه بملء جيوب مقتني أعمالهم العظيمة.
لكن بالنسبة لي، حيث أعمل حارسًا ليليًا في بناية بنك أوف أمريكا في بالتيمور، يكون الاتقان أمرًا ضروريًا لميتة مريحة. فلا أحد يطالب حارساً مهاجراً سوى بليلة آمنة على خزائن المدينة. وفي حال تعرض المبنى لسطو مسلح، فليس مطلوبًا منه إشهار مسدسه بوجه العصابة كما في أفلام رعاة البقر، بل أن يبلغ الشرطة بسرعة. ولو قرر أن يشتبك ويُقتل، فلن يترك شيئًا له معنى، ولن يتعرض له نقاد الفن ولا الصحافة إلا من عنوان صغير بصحيفة بالتيمور صن: "مقتل حارس ليلي مهاجر باشتباك مع عصابة مسلحة". هكذا سأبدو مهاجرًا ميتًا وغبيًا، فلست مطالبًا بالاشتباك وإنما الهرب وسرعة الاتصال بالشرطة أو الضغط على زر الإنذار ليحضر جيش من الشرطة بلمح البصر وهو يتولى معالجة الأمر.
أن إتقان الانتحار بالضرورة سيصنع عنوانًا متقنًا في الصحف مثل: "مهاجرة تعثر على زوجها المديون منتحرًا بحوض الحمام برصاصة في رأسه". عنوان كهذا لن يترك انطباعًا عابرا مثل "مهاجر ميت وغبي"، بل ربما يعكس لدى الناس شعورًا ثوريًا إزاء ما يتعرضون له من ضغوط الديون المتراكمة في هذه البلاد ودفع الفوائد العالية لصالح البنوك ومصلحة الضرائب، التي يذهب قسم منها لشراء السلاح لدعم الدول المتحاربة في الخارج، وهو ما أرفضه بشدة واعد السكوت عنه انصياعاً غير اخلاقي. وربما يثور الناس ويخرجون بمظاهرات واسعة تنطلق من البيت الأبيض ومن ثم الى شارع بنسلفانيا وصولا لمبنى الكونغرس، وقد يغلقون الشوارع الداخلية للعاصمة بعد خبر: "العثور على مهاجر مديون منتحراً بحوض الحمام".
لكن ما أنا متأكد منه هو أن أحدًا لن يكترث بانتحاري إلا إذا خدم الخبر جهة سياسية ما لغرض انتخابي. لذا، من الضروري أن يحفظ عنوان الجريدة موتي بكرامة. فهذا يهم عائلتي. كما أن بعض فوائد الموت هي إعفاء تام من بعض الديون المتعلقة بالبطاقات الائتمانية المتراكمة. وبالتأكيد سيساعد الأبناء أمهم التي تعمل كاشير في Walmart لتسديد قروض البيت للسنوات العشرين المتبقية. لكنني أجزم أن الخبر سيدهش جارتي التسعينية التي تعاني من سرطان الرئة، بعد أن أصيبت بالتدرن هي الأخرى، وهي الآن تتحدى المرض بالجرعات الكيماوية. وحتماً ستقول لنفسها أو لابنتها التي ترعاها باستغراب: لماذا ينتحر الإنسان ورئته سليمة؟!
لا أريد أن أعاني مثل فان كوخ وهو يتلوى ليومين لأن الطلقة لم تكن بالمكان الصحيح. يجب أن يكون الانتحار متقنًا وثابتًا وعقلانيًا، وربما حكيماً أيضًا. وإلا أتسبب بجر الأبناء العاملين بولايات بعيدة ليحضروا معاناتي لأيام طويلة في المشافي، أو يتورطوا بالاهتمام بي حين أصاب بإعاقة أبدية. لديهم ساعات طويلة من العمل ليوفروا متطلباتهم المعيشية، وخصوصًا التزاماتهم بالدفعات الثابتة لفوائد القروض الدراسية. ليس من العدل إذن ألا أتقن انتحاري.
إن استعمال مسدس الشركة الأمنية التي أعمل بها في عملية الانتحار ليس تصرفًا مهنيًا، بل يجب أن يصلهم نظيفًا مع البدلة والشارة والباج. لذا، يجب أن أكون عند حسن ظن المشرف جايكوب، وهو مهاجر صيني اختار

لنفسه هذا الاسم (يعقوب) كما أحب أن أسميه، فهو يضحك عندما أناديه ويقول لي: "أقسم أنك لا تشتمني". فهو لا يتخيل حين يسمع (يع/قوب) سوى أنها شتيمة، وأنا أقسم له أنه اسمك هكذا في اللغة العربية. وهو يضحك حتى تختفي عيناه وتبرز خدوده، يضحك لي بود ومحبة. أود أن أحافظ على هذا الود بيني ويعقوب، فلا أرغب أن يكرهني وهو يتسلم مسدس الشركة مغطى بالدم، فهو لا شأن له بهذه الفوضى. لذا، اقتناء مسدس شخصي صار أمرًا ملحًا، وعليّ زيارة Bass Pro Shop المكان المتخصص بكل فنون وأدوات الصيد والتخييم. اعتدت التجوال فيه رغم أنني لا أشتري منه أي شيء، لكني أذهب هناك أحيانًا للاستمتاع بالموقد الكبير في مدخله، والجلوس على مساطب مريحة مقابل أحواض ماء ضخمة تحاكي أعماق المياه، أراقب الأسماك الكبيرة باسترخاء، وهي تتجول باحثة عن الطعام، وهي أيضًا تتفرج على الجالسين عند تلك المساطب، وقد تعتقد أننا نحن الذين تم اصطيادنا ووضعنا في حوض الفراغ الزجاجي.

منذ أن عملت حارسًا ليليًا، لم أعد أشارك غرفة النوم مع زوجتي كي لا أزعجها حين أعود في الخامسة فجراً، ولا تزعجني هي حين تستيقظ في السابعة صباحًا. لكننا نتشارك السرير ليلة يوم الأحد فقط، فهي تعمل السبت أيضًا. في حين أقضي السبت في جزّ الحشائش أو كنس ورق الأشجار المتساقط، أو الذهاب إلى Home Depot لجلب ما أحتاجه من قطع الصيانة في تصليح متطلبات البيت بنفسي، وتجنب تكاليف التصليح الباهظة: قفل مكسور، انسداد المجاري، عطل سيفون التواليت، زر المصباح .... ثم أعود لتنظيف أرضية البيت بعناية. فيوم الأحد هو يوم للاسترخاء بلا أعمال بيتية، نطبخ ونتبادل المكالمات مع الأبناء، ثم نتابع أخبار الوطن المحبطة حتى يغلبنا النعاس.

عادةً أستيقظ في منتصف النهار، لكن اليوم هو نهار مختلف - يجب أن أحسب فيه الزمن بحكمة. لذا استيقظت بعد ثلاث ساعات فقط، وبمجرد سماعي صوت الباب توصده زوجتي وهي تغادر إلى عملها. فتحت عيني بغرفتي الصغيرة المستقلة في الطابق العلوي. وأنا أدخل الحمام بجانب غرفتنا الواسعة، صرت أحسب خطواتي وأنا أنظر إلى الأرض، ثم نظرت من الأعلى نحو الدرج النازل للطابق الأول، فحسبت أنها مسافة بعيدة ومرهقة في حمل جثة من حوض الحمام إلى الأسفل ثم إلى الشارع. ولا ضمان من تناثر قطرات الدم على الدرج حين ترتج أيادي رجال الإطفاء أثناء النزول. أريده انتحارًا وموتًا نظيفًا، لا أرغب أن تقوم زوجتي، وهي تبكي، بمسح قطرات الدم من الدرجات الخشبية. أحاول أن أخفف دراماتيكية المشهد، لا أريد أن ترى كيف تتساقط دموعها وتختلط بدمائي على الأرضية الخشبية، هذا أكثر مما ينبغي.

وقفت تحت الدوش وتابعت المياه المتساقطة من جسدي إلى بالوعة الحوض في (البانيو)، لكني قررت أصلًا أن أنفذ الانتحار بحمام الطابق السفلي، فهو ذو ميزة فريدة، حيث يقع في الجزء الذي أضيف إلى خلف البيت لاحقًا في أواسط التسعينيات، ذو سقف مرتفع يحتوي على شباك سقفي واسع ترى من خلاله زرقة السماء، يمنحني دائمًا شعورًا مريحًا أثناء الاستحمام، عندما أرفع رأسي الى الأعلى، وأحيانًا أرى بعض الطيور تنطلق من عشها المختبئ بمدخنة البيت المتروكة في

أعالي السطح بالقرب من تلك النافذة. كما أن المسافة من هذا الحمام إلى الباب الخارجي لا تتعدى بضع خطوات، وهذا هو الجزء الأهم في تحقيق الخطة.

نزلت إلى المطبخ، فتحت الثلاجة وأخرجت منها طعام الغداء الذي تتركه لي زوجتي يوميًا دون اتفاق مسبق ماذا ستطبخ، وكأنها تتعمد أن ترسم على وجهي مفاجأة. فعلاً، إنها مفاجأة: الأرز ومرقة الفاصولياء مع لحم الضأن. ههه، غالبًا ما تطبخ لي طعامًا أرجوه دون أن أخبرها. كيف يحدث ذلك؟ كيف يحدث أن زوجتك تطبخ لك أكلة تشتهيها من دون أن تعلم؟ لكن بالتأكيد هي لا تعلم أنها ستقضي يوم الأحد القادم وحيدة حزينة مصدومة بين أبنائها الذين حضروا من الولايات البعيدة.

وبما أنه يوم غير عادي، لذا قررت أن أتناول الأرز ومرقة الفاصوليا باللحم كوجبة إفطار وليست غداء، وتعمدت أن أترك الصحون على الطاولة ممسوحة بقطعة خبز، ولم أغسلها كعادتي، وهذا جزء من إتقان مشروع الموت كي أترك لها دلالة بالشكر والامتنان بأني أكلت الوجبة بشهية ولم أرم حبة واحدة، هذا ما لم يفكر به قط فان كوخ العظيم ليقدمه لأخيه ثيو، سوى أنه ورطه بانتحار غبي لم يقض عليه مباشرة، بل بقي في حضنه يحتضر ليومين.

قررت أن أزور زوجتي في Walmart لأودعها قبل الذهاب لشراء المسدس. دخلت السوق وصرت أبحث عنها بهدوء، تلك هي التي يقف عندها صف طويل من الزبائن، لا أتمكن من مناداتها أو الحديث معها، لذا تظاهرت كزبون، اشتريت معجون أسنان وقميصًا برتقاليًا رخيصًا وقناعًا مخيفًا من ألعاب الهالوين، ووقفت في آخر الصف مرتديًا قناع طائر مخيف مع القميص. فكرت أن أهديها آخر مقالبي كي تتذكرني وتبتسم بغيابي، وأجزم أن التصرف بسلاسة وخفة دم هو جزء من إتقان الحياة، كما هو مع الموت أيضًا.

اقتربت منها وهي ترسم ابتسامة مصطنعة للزبائن، فأنا أعرف ابتسامتها الحقيقية أكثر من أي أحد في هذا المكان. تأخرت السيدة المسنّة التي أمامي بالدفع، فهي تلح أن تكتب شيكًا بدلاً من أن تدفع بالكاش أو بالكارد. تململ بعض الزبائن من خلفي وهرب البعض إلى كاشير آخر. "سأقتل نفسي" قالت الفتاة التي تقف في آخر الصف مجازا من ملل الانتظار فأدرت لها وجهي المقنع بمنقار طائر فقلت لها: وأنا أيضا" فضحكنا. جاء دوري، وإذا بزوجتي تضحك بوجهي أو بوجه زبونها البالغ الذي يرتدي قناعاً مخيفاً. لم أنبس بكلمة، فهي ستكشفني حتمًا، لكنها قالت: "من فضلك، اخلعه كي آخذ سعره". فقلت لها بلهجتنا "تتدللين"، وأنا أخلع القناع. ضحكنا بشدة وواصلنا الحديث. لماذا استيقظت مبكرًا؟ قلت: "أصابني أرق، فكرت أن أخرج وأراك، فنحن لا نرى بعضنا". قالت: لم يتبق شيء، غدًا هو الجمعة وسنرتاح من بعده، طلبت من مشرفتي أن أعمل ساعات إضافية الجمعة كي لا أعمل السبت، فوافقت: "سيكون لنا يومان استراحة، أليس هذا رائعًا؟". نعم، رائع بالتأكيد قلت.

في هذه الأثناء، تذمرت السيدة التي خلفي في الصف وصارت تنادي: "إنه ليس مكانًا مناسبًا للعشاق يا رفاق، دعونا نحاسب ونمضي". اعتذرت منها وأخبرتها إني أودع زوجتي لأني سأغيب عن البيت ولن يتسنى

لي لقائها، ثم انحنيت لزوجتي واحتضنتها بقوة، فتصاعدت صيحات مازحة ودعوات من الزبائن في الصف. حتى المرأة المتذمرة تعاطفت وقالت لي: "خذ وقتك، يبدو أن طريقك فعلاً بعيد. Have a safe trip". غادرت المكان ولم يتسنَّ لزوجتي أن تودعني بنظرة من بعيد، فقد انحنت حتى أصبحت جزءًا من آلة الكاشير.

لا بأس ببعض الكذب الذي يساعد في اتقان لعبة الحياة، هكذا فكرت وأنا أغادر المتجر حين كذبتُ على السيدة السمراء التي تمنت لي السلامة في طريق السفر، فأنا لن أسافر إلى أي مكان.

بعد بضعة أميال، صففت سيارتي المتهرئة أمام متجر Bass Pro Shop لشراء مسدس رخيص لتنفيذ المهمة.

بالتأكيد سيكون استخدامه لمرة واحدة بإطلاقه واحدة لن تكون اثنتين. دخلت باب المتجر ووقفت لحظات أراقب النار في الموقد الضخم الذي أُزدان محيطه بألعاب الهالوين التي ينبغي أن تكون مخيفة، والتي تصدر أصواتًا كأنها تنبعث من جثث الموتى في قبورهم، وساحرات ذوات أنوف طويلة وخفافيش ضخمة تتسلق السقوف العالية. واصلت سيري عبر زوارق الصيد والدراجات الجبلية، ولم أمر على حوض الأسماك كالعادة، بل اختصرت الطريق إلى نهاية المتجر نحو منضدة بيع السلاح.

"أحتاج مسدسًا رخيصًا لو سمحت"، قلت للبائع.

البائع: "لم أفهم ماذا تعني برخيص، قل ما هو استخدامك له وسأقدم لك اقتراحاتي. لدينا العديد من المسدسات". بالتأكيد لن أخبره بماذا أحتاجه، لا أعرف سوى نوع واحد هو GLOCK G43X الذي نستخدمه في الحراسة، وهو سلاح أتوماتيكي صغير، لكن سعره لا يقل عن 400 دولار. قلت للبائع: "دعني أتفرج وسأعود إليك". بادر البائع بالإشارة إلى مكان أكثر المسدسات رخصًا، وإذا بي أمام مسدس مفرد من طراز قديم Heritage Rough ذو البكرة التي تحمل 6 رصاصات، مربوط به تاك بسعر 119.99 دولار، يشبه مسدس فان كوخ إلى حد كبير الذي لم يحسن استخدامه كما يجب.

اشتريت المسدس مع أصغر عبوة لم تقل عن 100 رصاصة بعشرة دولارات. وعدت مسرعًا إلى البيت، ركنت السيارة عند رصيف الشارع مقابل باب الجار كي أترك مساحة كافية لسيارة الإطفاء أو الإسعاف حين يحضروا لانتشال جثتي ولتكون بأقرب نقطة من باب البيت. دخلت البيت ووضعت المفاتيح على طاولة المطبخ قرب صحن الفاصوليا الفارغ إلا من بعض عظام اللحم المتبقية.

فتحت علبة المسدس، سحبت العتلة وضغطت على الزناد بلا رصاص، فتبيّن لي أنه بدائي جدًا، فكلما تريد أن تطلق رصاصة عليك بسحب العتلة. لكن اللطيف في الأمر أن البكرة تدور بسهولة، فهذا المسدس يصلح تمامًا للروليت الروسي، لكني لن أحتاج أن أعرض على رأسي مفاجآت محتملة طالما أردت كل شيء متقناً ومحسوباً. رصاصة واحدة تقابل تجويف المسدس وعتلة المسمار منتصبة ومشدودة، لن تحتاج سوى لمسة ثابتة نحو الزناد.

هكذا فكرت وأنا ممدّد في حوض الحمام أنظر إلى السماء الزرقاء وأتخيل هروب الطيور من أعشاشها حين تنطلق الرصاصة. بأي

اتجاه سأضع المسدس دون أن أسمح للدم أن ينتشر خارج الحوض ويلوث أرض الحمام أو أجزاء من التواليت والمغسلة؟ الوسادة قد تكون حلاً رائعًا، حيث أمسكها نحو رأسي بقوة بيدي اليسرى وأضغط الزناد بأصابع يدي اليمنى. حينها لن يتناثر الدم، وستوفر لي المخدة ربما متكأ للحظات قصيرة أودع فيها السماء الزرقاء عبر نافذة الحمام السقفية. هكذا بدا الأمر، كل شيء متقن، لا شيء ينقص الانتحار سوى التنفيذ. دعني أتفحص خلال اللحظات الأخيرة: الوسادة، المسدس، وبجوفه رصاصة واحدة، الملابس المناسبة التي ارتديتها، وهو سيت رياضي من شورت وتيشرت من Under Armourأهداه لي صديق عراقي يعمل بمقر الشركة الأصلية ببالتيمور. لكن ربما فاتني أمر ما، الرسالة التي يجب أن أتركها. يا لغبائي، كيف نسيت ذلك؟ حتى فان كوخ المضطرب لم تفته هذه الفكرة.

تركت المسدس والمخدة عند حافة الحوض، وعدت إلى المطبخ أبحث عن قلم وورقة. قصصت قطعة من كارتونة المسدس، وأخذت قلم باركر وكتبت عبارة فان كوخ ذاتها: ايها الأحبة، أترك لكم هذه العبارة المنقولة عن فان كوخ كما تعرفون، انا لا أجيد صياغة العبارات الجادة. "جسدي لي ولديٍ الحرية في أن أفعل ما أريد به. لا تتهم أحداً، أنا الذي أردت الانتحار". ثم أضفت عبارة خاصة لزوجتي: "كانت رحلة حياة ممتعة وأنت بجانبي، لكن توجب عليَّ النزول مبكراً. سامحيني".

هكذا، بكل بساطة، يتحقق الانتحار المتقن. أخذت قصاصة الورق وتوجهت نحو مرآة المغسلة في الحمام، وحاولت حشرها بفتحة حافة المرآة، إلا أنها سقطت في بحوض المغسلة. مددت يدي، وإذا بقصاصة الكارتون تتبلل قليلاً، يبدو أن الصنبور مفتوح قليلاً منذ البارحة. أعدت القصاصة وثبتها بحافة المرآة بعد أن تأكدت من غلق صنبور الماء الحار، لكن قطرات الماء تتوالى منه بزمن متباعد. ضغطت عتلة الإغلاق بقوة دون جدوى، فأنا أعرف، غالبًا ما تصيب المياه الحارة الأجزاء المطاطية بأضرار. آه، به حاجة إلى التبديل والتصليح.

سيكون من الأنانية واللا مبالاة أن أترك عطل المغسلة وأغادر بلا اكتراث، بل هذا سيخرب كل ما رسمته لأحقق "انتحار مكتمل الأركان". بل بهذه الحالة، لن يتحقق شرط الاتقان طالما بقيت المغسلة تخرخر قطرات الماء وتجعل زوجتي بين حيرتين: إجراءات الدفن ودفع التكاليف وإصلاح المغسلة في وقت واحد. بالتأكيد، أنا أبالغ، فلا يمكن أن يتحقق الكمال، لذا تجاوزت فكرة تصليح المغسلة وذهبت لأستلقي وسط الحوض.

وضعت الوسادة وأعدت رأسي إلى الوراء قليلاً بحيث أنظر إلى السماء بوضع مريح. حملت المسدس لأضعه على رأسي، شغلت شريط الحياة وكأني اشغل عارضة سينمائية 8 ملم وأشاهد ما أتذكره من فصول وتفاصيل لكن عيني ذهبت بعيدًا نحو المغسلة وهي تقطر، حتى صرت أسمع صوت القطرات، إذ بدأت تتضخم أصوات حبات الماء المتساقطة. مع هذا، واصلت تثبيت المسدس ووجهي يتصبب عرقاً وأحدق بعيدًا نحو أعلى غيمة تمر من فوق النافذة السقفية. لكن أصوات قطرات الماء صارت وكأنها سوط ينهال على جسدي بلا رحمة لا أريد لشعور السوط يجلدني وأنا ماض برحلة موت زعمت أنه

متقن.

تراخت يدي التي تحمل المسدس، أخذت نفساً عميقاً، مسحت العرق من وجهي بالوسادة واتكأ ساعد اليد التي تحمل المسدس على حافة الحوض دون أن اشعر وتداخل مع صوت قطرات الماء صوت زوجتي "سوف لن أعمل هذا السبت أليس هذا رائعا". لذا، من الحكمة إصلاح المغسلة وقضاء عطلة يومين إضافيين مع زوجتي. ولطالما أتقنت مفردات الخطة، فأني سأنفذها في أي وقت مناسب.

نهضت وأعدت ترتيب المكان. سأصلح هذا الصنبور المزعج في وقت لاحق. أخرجت الرصاصة من المسدس، وأخذت الوسادة وسحبت الورقة من حافة المرآة. جمعت كل شيء وأخفيته تحت فراشي بغرفتي الصغيرة. نزلت وغسلت الصحون، لبست ملابس العمل، حملت المسدس والشارة والباج، وانطلقت بسيارتي بين أكوام ورق الشجر الذي أصابه التدرن كما أصاب كل شيء من حولي.

***مصور ومخرج سينمائي عراقي، يعيش الآن في الولايات المتحدة ويعمل منتجا للفيديو في قناة الحرة.**

بالتيمور خريف 2024

صورة الجميع
الى قاسم عجام وموفق محمد حسب أسبقية الغياب

رعد كريم عزيز

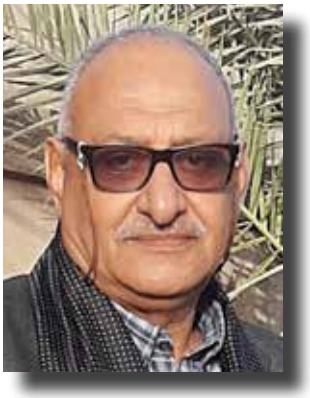

لو جمعنا الزمن من جديد
أنت بأناقتك المفرطة ووسامتك الدائمة
وانا بتهوري وعدم اكتراثي بالوقت
مثلما استيقظُ فجرا واسمعُ البلابل ولكني اخرج مسرعا
مثل جندي يخاف العقاب وانا التحق بالعمل
ستقول لي ارجع ليس من امر يستحق الانتباه
لان أخي علي بعيد
وابني ربيع منشغل بالعمل
وانا في الحلة مشغول بالسماء لأنها تريد نجوما اخرى
وبالشوارع لأنها ضيقة على العشاق
هل رأيت الليل يشق الوقت في الحلة وانا وموفق نسعى للقاء مستحيل؟
هل عرفت من الذي وشى بنا ليلا لاننا كنا نفكر بالنهار؟
وماهر الربيعي يجمع دموعا سقطت على العتبة وهو منشغل بموفق محمد
وحين سألهُ عنك
كانت الطرق متاهة
والجواب سؤال

والنهاية ابتداء الأسئلة
عليك ان تذهب للنهر
حتى تجد بقايا موفق ابو خمرة
ففي الضفة اليسرى بقايا تنور طيني مهجور
وفي اليمنى بقايا حروف خبزة محترقة
يا لهذا الرغيف المر
يتقلب بين شاعر ملتهب
وبين خباز يرمي بالحروف في اتون الحريق
في الحلة عملية إخلاء تشمل الشعراء والطيبين
وفي الطرقات نشيج ودموع واعين يابسة من الانتظار
لم يتبق غير طه عجام يرتب الحروف في ليلة معادة وكأنه يعرف النهايات ومسرى الدم
الذي انطبع على قميص رشيد هارون
في الطب العدلي بالحلة
وهو يستقبل نهاية النهر حين فقد اسم ضفافه
كلنا نقف الأن لنأثث صورة جماعية
لم يظهر فيها احد
لان المصور انحنى ميتا برصاصة غادرة
ولم تظهر إلا الأقدام المختضة برعب
الرصاص في غرفة تحميض الصور

تسريباتٌ لحنيةٌ

طه الزرباطي

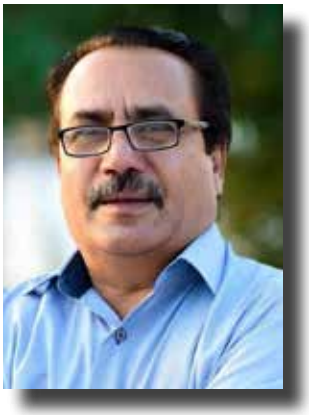

ذلكَ السؤالُ الصغيرُ؛
الخجولُ،
المُتلعثمُ،
جوابُهُ مزيدٌ من الأسئلةِ الكُبرى ...
لا تسألْ ما زرعتُ جوابَهُ بين شفتيك،
لا تسألْ شجرةً عن إجاصهِ ...
لا تسألْ طريقاً عن سالكيهِ،
لا تسألْ سؤالاً عن جوابِهِ المثالي،
يُمكنُ لصلاتِكَ لحظةَ تقواك،
لقُبلتِكَ على شفتي فنجانِ لحظةَ وجدِكَ،
لذاكرةِ عسلِكَ على مُرِّ قهوتي،
يُمكنُ للذةِ أناملي في بساتينِك،
يمكنُ للطريق الصحيحِ أنْ يبتدئَ بِ أُحِبُكِ ...
ولا ينتهي بدمعٍ ممنوعٍ في محطةٍ للغُرباءِ ...
كيفَ ارتكبتُما جريمةَ الحُبِّ؟
من منكما البادئُ؟

ورق
اكتبني على ورقي،
اغضبُ امسحني،
تترك مِمحاتي بعضا منك،
ممتزجا بي،
اكذِّبُ ظني ...
ثم أعودُ فاكتبُني ...
خارج اسوارك،
اتبعني في النصِّ،
كي اقتلني ...
فأخطأُ،
واسمحُ للنصِّ انْ يقتلني

مُرُّ كالقهوةِ،
لكنني بشغفٍ ارتشفكِ يوميّا،
عاصفٌ كحظي،
لكنني أعيش تقلبك اللذيذ،
ابيض كحلم عاشق،
لكنني اعيش كابوس رحيلك،
ترفَّق بقلبي،
كأنه يعيشُ آخر ما أدخرَ من نبضٍ،
من غيرِ وداعٍ سأذهبُ،
كأنني ما كنتُ زوبعةً في ضحكتِك،
ما كنتُ المعنى في غموضك،
ماكنتُ الرحيل في انتظارك ...
خذني ،
لأنني أذوبُ صمتاً في صُر
لو قرأتني،

لو جمعتَ اللغات في لغةٍ،
لو أجدتَ فكَّ غيومي،
حباتٍ من بخارٍ؛
تَتعانَقُ ماءً،
تُفشي عِطرا،
تقولُ
وتقولُ
لو قرأتني ....
حباتٍ من جمرٍ،
ووجدٍ من عطشٍ ورثاهُ ...
لو اكتشفتَ لوناً بخلطةٍ سحريةٍ،
لو جربتَ فرشاة أمانيك،
على شفتي غيمةٍ،
تريد أن تخبركَ مطرا غاضبا،
عاصفا،
مشتاقا،
متلهفا،
محملاً بالهمسات،
لعشاقٍ فاتهُم الأملُ،
وبدأ اليأسُ يغازِلُ ظلماتهم المترامية،
لو اعدتَ النوتاتِ،
وخربشتَ انتظار العود لعائدٍ اليك،
لو جربتَ ما لم يجرؤ عليه فارس،
لو أخذتني منك اليك،
لاكتملت اللوحة،
واندمجت البيانو،
وفاحتْ القصيدة طينا مرويا،
و لقَهقهَ الشاعرُ لأول مرةٍ،
ولوجد طريقا للهروبِ من المعنى،
الى اللا ...
الى حريتهِ القصوى،
الى لا
ثم لا
ثم لا ...
لو قرأتني جيدا،
بلا مواقفَ مُسبقَةٍ،
بلا بِطنةٍ اعلاميّةٍ،
بلا ضوضاء ...
فتحتَ بحر اللوحة،
وموج القصيدة،
واعدتَ الى النبضِ اجنحةً،
لصعدت ارتقيتُ قمةَ سُلَّمِك،
ومنْ هناك،
نمطر،
نكتُبُ بالقُبلِ قصيدةً،
ربما يقرأُها سيارةٌ،
وينتشونَ بلهفتنا،
فقط اقرأ لتكونَ،
اقرأ،
لأكونَ خاطرةً
اقرأ
حينَ أغلقْتُ الكتابَ ؛
تسرَّبَ الأبطال من سجنِ الكاتبِ،
تسربَ القراءُ ...
تسربتْ الأفكارُ ...
بقي الوردُ مقتولا بين دفتيك ...
وردٌ للذكرى

كتابة التاريخ سينمائيا

علي المسعودي *

المخرج والممثل (ناني موريتي) أيقونة وشخصية عظيمة ساهم في سينمائه وأفكاره وكذلك استفزازاته لتشكيل أجيال من المتفرجين. غالبا ما ارتبطت أعمال في العقود القليلة الماضية بالسياسة، وعلى الرغم من أنه "مخرج شيوعي"، سيكون نوع من الاختزال تماما اعتبار سينماه فقط للمشاهدين المنخرطين سياسيا. يقدم (ناني موريتي) في فيلم (شمس المستقبل) دور مخرج سينمائي يصنع فلماً عن دور الحزب الشيوعي الايطالي خلال الثورة المجرية عام 1956. أثناء التصوير، يواجه مواقف مختلفة تختبره مهنيا وشخصيا. حيث يشرع في إعادة كتابة التاريخ، كطريقة للتفكير في الحاضر والبقاء تحت (شمس المستقبل).

هناك العديد من الخيوط السردية في (شمس المستقبل) المتشابكة بالتوازي: جيوفاني، الشخصية الرئيسية، التي يلعبها المخرج نفسه، هو مخرج سينمائي يصور فيلمه الجديد عن الحزب الشيوعي الإيطالي وموقفه خلال الخريف المجري، في عام 1956، المشاكل المادية التي أعاقت تمويل مشروعه تطوير الفيلم. والخط العائلي، حين فوجئ بالانحدار في حياته الزوجية وخروجها عن مسارها، عندما طلبت زوجته الانفصال. وزوجته باولا (مارغريتا باي) التي أنتجت أفلامه، وقد امتدت شراكتهما المهنية والرومانسية على مدى 40 عاما. وبدأت العمل في فيلم أكشن.

في المشاهد الأولى عن الفيلم الذي ينوي جيوفاني تصويره، نرى وصول سيرك مجري مع المهرجين والألعاب البهلوانية الذين تمت دعوتهم من قبل (أنطونيو جرامشي) العضو المحلي في الحزب الشيوعي الإيطالي في عام 1956، أثناء ذلك، بدأت أخبار ما يحدث في بودابست في الوصول. حمل المتمردون السلاح واقترحوا فرض ديمقراطية عمالية لتحل محل البيروقراطية الموالية للسوفييت التي كانت في السلطة. لم يمض وقت طويل على الاستجابة، حيث يرسل الاتحاد السوفيتي دبابات لقمع هذه العملية. كل هذه الأحداث يشاهدها على شاشة التلفزيون إنيو (سيلفيو أورلاندو)، رئيس تحرير صحيفة الحزب وفيرا (باربرا بوبولوفا) خياطة ومناضلة

ناني موريتي

شيوعية شغوفة. بدأت تداعيات الثورة في المجر تتردد صداها، وبدأ سيرك بودفاري في إضراب حتى تتوقف الهجمات الاجنبية وانضم لهم مناضلو الحزب الشيوعي الايطالي، وعلى رأسهم المناضلة فيرا، وبدأوا يطالبون قيادة الحزب والصحافة الحزبية باتخاذ موقف تضامني مع إخوانهم المجريين. لكن الرد الرسمي الذي يتلقونه من الحزب هو دعم قرارات الاتحاد السوفيتي.

في الفيلم، يظهر جيوفاني نيته: استعادة تاريخ الحزب الشيوعي الايطالي، كان يضم ما لا يقل عن مليوني عضو واندماج مهم في أحياء الطبقة العاملة في عاصمة البلاد، كونه أحد أهم الأحزاب الشيوعية المهمة في العالم في ذلك الوقت. إن قرار موريتي بعكس الثورة في المجر ليس عرضيا أو ساذجا بسبب ما تنطوي عليه هذه العملية بالنسبة لليسار الأوروبي ولجميع الأحزاب الشيوعية في العالم. بدلا من قبول الهزيمة والاستياء من كانت الطريقة التي انتهى اليها التاريخ الذي شرع في إعادة كتابته وإعادة التفكير فيه. إنه يجعلنا نفهم أنه لو انتصرت المجر، لكانت بمثابة انطلاقة لإعادة التفكير في الاشتراكية وأن هذه الشعلة ستنتشر في بقية الدول التابعة للاتحاد السوفيتي، مما يسمح باستئناف إرث ماركس وإنجلس، حيث يمنحنا نهج الفيلم مساحة للتفكير فيما كان سيحدث لو كان التاريخ عكس ذلك.

عندما سئل المخرج عن سبب قراره بعرض الخريف المجري، أجاب: "كنت مهتما لأنها كانت فرصة لتغيير كبير لليسار الغربي. فرصة ضاعت. فرصة لها لتصبح حركة يسارية ناضجة، لكنها ضاعت تماما".

في الفيلم، يقدم (ناني موريتي) بعض الأدلة لإعادة التفكير في اليسار وفي هذا الوقت حيث يحكم اليمين المتطرف لجورجيا ميلوني. من ناحية أخرى، استعادة تقليد الحزب الشيوعي، الذي ضاع حاليا، ولكن يحمل رؤية لكيفية إعادة تشكيل الاشتراكية، والتفكير في بديل مختلف للستالينية، وتبني إرث ماركس وإنجلز. يشير عنوان الفيلم إلى أغنية شيوعية إيطالية قديمة، والتي تقول: "الرياح تتوقف وتهدأ العاصفة. يعود الحزبي الفخور إلى المنزل وهو يلوح بعلمه الأحمر، منتصرا وحرا أخيرا. تصدر الرياح صفارات والعاصفة، وأحذية مكسورة ولا يزال يتعين علينا المشي، للتغلب على الربيع الأحمر، حيث تشرق شمس المستقبل". وهي أغنية مميزة في تاريخ الموسيقى الإيطالية كتبها المغني وكاتب الأغاني الشهير (لوسيو دالا)، وتمثل ترنيمة حقيقية للأمل بالمستقبل. تركز الأغنية بشكل كبير على الصراع الطبقي والشيوعية، وقد اعتمدها الكاتب وصانع الأفلام الإيطالي المخضرم (ناني

موريتي) عنوانا لفيلمه.

ان (شمس المستقبل) فيلم طبقي للغاية، متعدد المفاهيم، في النهاية نص جماهيري، بدءاً من أفكاره حول السينما، وتطرقه إلى العلاقات الإنسانية والمجتمع والتاريخ والسياسة. من أجل التمكن من تحليله ونقد أقرب ما يمكن إلى الافكار والمفاهيم التي طرحها، من الضروري تصفح الفيلم كما لو كان يمت له بصلة، طبقة تلو الأخرى (السترات)، لفهم معناه الكامل. لكن البصل هو أيضا رمز للدموع والحزن (الألم وسوء الفهم) ومع ذلك، أراد موريتي الآن أكثر من متشائم بشأن السينما والحياة التي ستأتي وستأتي، تغيير النهاية بمسيرة انتصار محررة.(شمس المستقبل) هو فيلم عن السينما. ويبدو حقا وكأنه مقال خاص وعام عن شغفه كمتفرج، وعن الخيارات الجمالية والأخلاقية التي يستلزمها كل فيلم، الشاشة فضاء مفتوح ومجال تفكير مفتوح لكل شيء: السياسة. الحب والأسرة. ولكن أيضا، على وجه التحديد، الأفلام التي تجعل من الممكن العمل بكل خياراتنا السياسية والعاطفية والوجودية. مع ولادة المنصات الرقمية والتحولات الاستهلاكية التي شهدتها وما تزال تشهدها المجتمعات البشرية حيث تأثرت السينما شأنها شأن بقية الفنون الأخرى من الأدب الذي فقد كثيرا من الشعر والموسيقى التي تحولت بأشكال مخيفة وحتى الفنون التشكيلية وغيرها. فالسينما لم تعد كما كانت، فقد امتلأت عنفا وسطحية وتوجيهات استهلاكية بحتة، وهذا ما ينقده بذكاء إبداعي المخرج الإيطالي (ناني موريتي) في فيلمه (شمس المستقبل). يتابع الفيلم شخصية ''جيوفاني'' مخرج سينمائي في إيطاليا المعاصرة يحاول صنع فيلم جديد ويفشل في كل منعطف، ويكشف علاقته بمموّل غير جدير بالثقة (ماثيو ألماريك).

إن همّ موريتي هنا هو إتمام صناعة فيلم فيه من التاريخ ما يؤرخ مواقف الحزب الشيوعي الإيطالي، وفي الوقت نفسه، نقد للمخرجين الشباب وسينما اليوم، وهذا يمر في مشهدين من الفيلم، الأول حين يوقف موريتي أحد المخرجين الشباب خلال تصوير مشهد عنف (إعدام ميداني بالمسدس) قائلا ''هذا العنف ليس ترفيها بل تدميرا''، ويوقف الممثل في مشهد كان الممثل على وشك إطلاق النار على شخصية أخرى، مما يجعل الحجة حول كيف أن الأطفال في هذه الأيام لا يفهمون العنف ولكن يقلدونه وهذه مسألة في غاية الخطورة. والمشهد الثاني حين يضطر لحضور اجتماع مع مكتب ''نتفليكس'' في روما، بعدما رفض حازما التعامل مع المنصة التي تحدّ من حريته وإبداعه في العمل وكانوا يتفاخرون أمامه وبين جملة وأخرى يكررون بأنهم يصلون إلى 190 بلدا. لكن الجوهر المركزي الحقيقي للفيلم هو نشر كل ما لديه من السينما، وحبه الفريد والحصري للسينما، ومؤلفيه المفضلين وذكرياته، وطريقة التمثيل، وقيمة النصوص، وأخلاقيات المخرج كما لو كانت مهمة اجتماعية. المخرج (ناني موريتي) مثل المسيح الذي يطرد التجار من المعبد المقدس للسينما، ينتقد الانحرافات الجمالية الأخلاقية في السينما، ضد التمثيل المرتجل للسينما. من المنصات التي جعلت كل النصوص ساذجة ومسطحة، ضد الأغنياء

ولكن المنتجين الكوريين المرتجلين، التجار الذين يفرضون خيارات النهايات، التقليدية ليناسب ذوق متفرجيهم وزيادة أرباحهم على حساب المضمون. ويمكن العثور على مفتاح فهم "شمس المستقبل" في اقتباس أدلى به موريتي نفسه في المشاهد الأخيرة من الفيلم حين يلف المخرج حبل المشنقة حول رقبته، قبل لحظة من تغيير النهاية، هذه الكلمات بالضبط "قتل بافيس نفسه حتى نتعلم العيش، كتب كالفينو: فكر في الأمر، ولكن بعد ذلك أنساه". هذا هو المغزى من فيلم ماتريوشكا ناني موريتي "تعلم العيش ". يتحدث المخرج بلسان كالفينو (إيتالو كالفينو 1923 – 1985) وهو كاتب، وصحافي، وناقد، وروائي إيطالي ولد في كوبا، ونشأ في سان ريمو بإيطاليا. ويقرأ قصائد سيزار بافيس (شاعر وروائي وناقد فني ومترجم إيطالي، ويعد من أهم الأدباء الإيطاليين في القرن العشرين).

يغير وجهة نظرنا ويدعونا إلى النظر إلى انتحار الكاتب بعيون مختلفة: كان موت بافيس في الواقع احتجاجا على الحياة. يستخدم موريتي اسمين عظيمين من الأدب الإيطالي في القرن العشرين لشرح وجهة نظره الحميمة بطريقة ليست تعليمية ولكنها فنية. بعد قوله هذا، يزيل حبل المشنقة من رقبته لأنه يفهم أنه لم تكن شخصيته هي التي ماتت، بل أعماق روحه ويختار أصعب حياة ليختبرها: "تعلم العيش ". يحارب بطل الفيلم جيوفاني التغيير الذي تمر به السينما، والتي أصبحت مجرد أداة ترفيهية، ومنتجا معبأ مسبقا لجمهور غير متفاعل ولم تعد وسيلة للقيم والمفاهيم المهمة. هو يؤمن بقدسية السينما، ويثبت ذلك عندما يحاول بكل طريقة تغيير نهاية الفيلم الذي تنتجه زوجته، والذي يريد فيه المخرج الشاب تصوير مشهد عنيف سبقت مشاهدته ومراجعته. ثم هناك الحب، الذي يمثله من ناحية علاقة جيوفاني بزوجته التي تريد تركه. إنه حب قريب من النهاية ولكنه لا يزال يعطي ومضات من المقاومة، كما في المشهد الذي يغني فيه الزوجان في السيارة. الحب هو أيضا حب الصبيين اللذين يراهما جيوفاني ويقترح عليهما ما يقوله، إسقاط ما يود أن يكون الحب، نقيا وخاليا من القيم الحديثة التي تسممه. يحاول تعليمنا حرفة العيش لذا يقرر موريتي اتباع طريق الخيال باستخدام سحر القوة المضادة للواقع القادرة على إعادة كتابة التاريخ. في الواقع، تتحرك أحداث" شمس المستقبل" على أكثر من مستوى سردي، لأن القصة الرئيسية تتبع شخصية جيوفاني، المخرج الذي يتصارع مع فيلمه الجديد مع زوجته المنتجة باولا، ولكن في الوقت نفسه يظهر لنا أيضا التدفق السردي للعمل الذي يعمل عليه، والذي تدور أحداثه في عام 1956 في وقت الغزو الروسي لبودابست، ويركز على انعكاسات ذلك الحدث على الحزب الشيوعي الإيطالي والدائرة المحلية التي ينتمون إليها إنيو وفيرا.

زوجان لمستويين سرديين مختلفين يتحركان بالتوازي ولكن ينتهي بهما الأمر بالتشابك والتداخل، بينما تقوده أحداث جيوفاني الشخصية إلى التفكير والتدخل في الفيلم الذي يعمل عليه والحلم بمشاريعه اللاحقة وليس من المستغرب أن يعمل (ناني موريتي) بشكل مثالي كآلية رئيسية للمحاور السردية لأفلامه، والقصص التي

تدور وتتطور حول الشخصية التي يلعبها. كما أن القيمة المضافة لأداء الفنانين مثل (مارغريتا باي) التي تميزت بضبط النفس في شخصيتها زوجة جيوفاني ومنتجة أفلامه، وكالك الممثل "سيلفيو أورلاندو"، الرائع في دور مسؤول المنطقة الشيوعي المقتنع (إنيو). واحدة من طبقات السرد، وهي العلاقات المتضاربة بين المخرج جيوفاني وزوجته باولا (مارغريتا باي)، اللذين يعيشان بعد سنوات عديدة معا في أزمة زوجية ويحاولان تقليص الفجوة بينهما، لكن مفاجأتهما كانت ابنتهما الصغيرة (فالنتينا روماني) التي تحب دبلوماسيا بولنديا كبيراً في السن (جيرزي ستور) وتصرً على إتمام خطبتها. بينما يتعارض موقف الزوجان مع بعضهما البعض أيضا بشأن الموقف الذي يجب اتخاذه بشأن الأحداث في المجر.

أما فيلم ناني موريتي الجاد (شمس المستقبل) فيعد عودة إلى قوالب وممارسات الأفلام في الخمسينات والسبعينات والأيديولوجيات السياسية، حقيقة أن بطل الرواية الذي يلعبه " ناني موريتي " لا يترك مجالا للشك في أن المخرج البالغ من العمر(69) عاما أدخل العديد من عناصر السيرة الذاتية الخاصة به هنا. فيلم مصمم على الطراز القديم يبحث المخرج فيه عن معنى الحب وأيضا في المواقف السياسية، حيث يتغير العالم والصناعة بسرعة كبيرة. والفيلم أيضا رسالة حب إلى سينما الأمس.

من الموضوعات الرئيسية الأخرى لفيلم موريتي التفكير في القوة التجارية على الفن و مقدار العنف الموجود في السينما المعاصرة حيث يشكك المخرج الإيطالي في هذا السؤال، ليس فقط من وجهة نظر أخلاقية، بل أيضا من وجهة نظر جمالية باستخدام أقوال وأفكار بعض المفكرين والفلاسفة والكتّاب في عصرنا، الرسالة واضحة وضوح الشمس: دعونا نأمل جميعا أن تأتي أيام أفضل، يغرس ناني موريتي فيلمه بموسيقى مرحة الأمل بمستقبل مشرق ويغازل الشيوعية كمنقذ للبشرية ، واقفا في وجه الستالينية، في نوع من الرد على سيطرة اليمين المتطرف في بلاده إيطاليا. في نهاية المطاف، يثير الفيلم مسألة الولاء لحزب ما، حتى لو كان يتعارض مع مثلنا العليا، فهل يجب أن نستسلم أم يجب أن نجعل الأشياء تحدث؟ نجح المخرج في كسر الجدار الرابع، وبينما نشاهد فيلما داخل فيلم، يأخذ السرد منعطفا غير متوقع – ولكنه ممتع – يضع أمام أعيننا أحد شرور عصرنا. هل لا يزال للفن هدف في مجتمع تهيمن عليه الأنانية والعنف؟ هذا هو السؤال الجوهري في فيلم ناني موريتي الذي سرعان ما ندرك أنه يطمح إلى الصدق الفكري في كل مشاهد الفيلم.

يبدأ فيلم (شمس المستقبل) بكتابة شعار للحزب الشيوعي على جدار أحد الجسور في روما وينتهي بلوحة كاملة لأيديولوجيته أو ما أطلق عليها الأمل في المستقبل. في فترة ما بين الخمسينات والسبعينات، وفي أجواء الواقع السياسي، ينتمي بطل الفيلم، والذي يعمل مخرجا سينمائيا، إلى الحزب الشيوعي الإيطالي، الذي كان يعد حتى نهايات الثمانينات أكبر حزب شيوعي أوروبي، مكنته حنكة زعامته التاريخية المتمثلة بالراحل أنريكو بيرلنغوبر من تحقيق استقلالية كبيرة عن الاتحاد السوفييتي وعن الحزب الشيوعي السوفييتي. يبدأ

الفيلم كما ينتهي بإشارة واضحة، وتذكير بأسلوب المخرج الإيطالي فدريكو فليني، وتحديدا فيلمه (ثمانية ونصف) وعوالم السيرك فيه والكرنفالية والرقص الجماعي. يستمد موريتي من الفيلم ذاته موضوعه، مخرج سينمائي يعاني من صعوبة إتمام تصوير فيلمه، لأسباب تختلف من سياق فيلم إلى آخر (شمس المستقبل) ليس فيلما عن الماضي والكآبة وروما الخمسينات بل عن حاضرنا المفقود وعن المستقبل وبطرق مختلفة. كانت النهاية تعتمد على أغنيات إيطالية مبهجة وسعيدة ورقصات واحتفالية جميلة. المسيرات الكرنفالية، حيث تسير أفيال السيرك بجوار ملصق لتروتسكي الذي يستعرض تحته بالميرو توجلياتي. وهو زعيم شيوعي إيطالي قاوم فاشية موسوليني ثم هرب إلى موسكو، ثم عاد عام 1944.

وتخليدا لذكراه أطلق الاتحاد السوفييتي اسمه على مدينة حديثة لصناعة السيارات. همّ موريتي في فيلمه هو التأريخ لمواقف الحزب الشيوعي الإيطالي.

*** كاتب عراقي**

امرأتان

سحر الشامي

(ما قبل المغيب نلتقي انتظاراً لهروبنا معا في الظلمة الحالكة)

شخوص المسرحية:

امرأة 1: في الثلاثين من عمرها.

امرأة 2: في الثلاثين من عمرها.

المنظر: بقعة نائية تحدها بعض الشجيرات والصخور

إمرأة1: يا لها من ظلمة ينقبض لها الفؤاد (تتلفت يميناً وشمالاً) لماذا علي أن أخرج ما قبل المغيب طائعة اياه؟ هل كان عليّ أن أفعل كل ما يقوله؟ (تجلس على صخرة) آه، تعبت من المسير والتفكير. أربكني الهم بعد أن تركت كل شيء خلفي. أخبرني أنه يجب أن يضع حداً لما يحدث، وأنني عقب ذلك سأكون له وحده

إمرأة2: (تدخل لاهثة وحاملة حقيبة على ظهرها. يبدو عليها التعب) ها ان المهمة قد حل موعدها في هذا المكان بالتحديد (تنظر يميناً وشمالاً) كان من المفترض أن يكون حاضراً قبلي، ولكنه سيأتي حتما، أنا متأكدة من ذلك، لقد جربته حين أخبرني مرة أنه بحاجة إلى المال.. جاء في الوقت الذي حدده تماماً، وبالأمس اتفقت معه على الهروب معا.. لنلتقي هنا قبل المغيب وتحت جنح الظلام ننفذ مهمتنا.

امرأة1: (تردد خلفها ساخرة) ننفذ مهمتنا

امرأة2: (تصرخ وهي تلتفت يميناً وشمالاً) من هناك؟

امرأة1: جنية أتعبها القدر

امرأة2: يا الله! .. الرحمة

امرأة1: لا تخافي (تقترب منها)

امرأة2: (تصرخ) ابتعدي، ابتعدي

امرأة1: لا تخافي

امرأة2: (تتراجع) من أنتِ؟

امرأة1: سفيرة النوايا الحسنة في وقت آيل للمغيب

امرأة2: (بوجل) من أنتِ؟

إمرأة1: مثلك سائرة

امرأة2: إلى أين أنت تسيرين؟

امرأة1: إلى..

امرأة2: إلى أين؟

إمرأة1: (تفكر) إلى شيء ما ، أو قولي إلى لا شيء.

امرأة2: (باستغراب) امرأة تسير ولا تعلم وجهتها.. هل أنت جنية؟ قد تكونين جنية فعلا.. دعيني أختبر ذلك (تتلمس جسدها) كلا،

أنت إنسية ابنة إنسي
امرأة1: (تضحك)
امرأة2: (باستغراب) هذه الضحكة أين سمعتها؟
امرأة1: أخبريني أنتِ أولاً ما سبب خروجك قبل المغيب؟
امرأة2: (تجلس وتضع حقيبتها جانباً) خرجت (بتردد) خرجت وكفى
امرأة1: دعيني أخمن.. هرباً من أهلك؟
امرأة2: ربما
امرأة1: أو من زوجك؟
امرأة2: ربما
امرأة1: أو على موعد مع عشيق؟
امرأة2: وهو كذلك
امرأة1: يا لها من صدفة.. أنا أيضا خرجت للسبب نفسه
امرأة2: كثير من النساء يخرجن للسبب نفسه
امرأة1: (تضحك) رغم الخطوط الحمراء التي تحف طريق العشق
امرأة2: (بعد تفكير) والمحاذير المحفورة على مر الطريق: ذبح، خنق، حرق..
امرأة1: (تشير إلى قلبها) بسبب هذا..
امرأة2: يا ويلي إن دق هذا القلب.. تختفي الخطوط الحمراء والصفراء والسوداء
امرأة1: وتختفي معها المحاذير
امرأة2: أضحي بكل شيء في لحظة واحدة أمام قوامه الرجولي الذي اتضاءل أمامه رويدا رويدا
امرأة1: (تضم يديها إلى قلبها) أخبره، كم قلبي يخفق عند رؤيته
امرأة2: (بهيام) فيجيبني..إنه الحب
امرأة1: (بهيام) واذ يقترب مني يدق قلبي أكثر وأكثر
امرأة2: (بهيام) يرد علي.. إنه العشق
امرأة1: (بهيام) وعندما يلمسني يدق أكثر وأكثر
امرأة2: (بهيام) هيااام
امرأة1: (بهيام) يردد.. هيااام ، هيااام.. وصلنا لعتبة الهيام
امرأة2: الباب مفتوح على مصراعيه لمزيد من الحب
امرأة1: و لا شيء سوى الحب
امرأة2: كم أنت عظيم أيها الحب
امرأة1: (تخرج قلادة وتقبلها) هذه آخر هدية أهداها لي (تريها لها)
امرأة2: (بدهشة) إنها تشبه القلادة التي منحتها لحبيبي
امرأة1: (تتراجع) تشبهها؟ هل هذا ما أدهشك؟
امرأة2: بل لأني تذكرت كم كان خجلاً وهو يطلب المال
امرأة1: (تستعرض كفيها) أمسك بيدي ذات مرة قائلا: هذه الأصابع الرشيقة لا بد أن تتحلى بالخواتم (تريها الخواتم في اصابعها)
امرأة2: (تمسك كفي إمرأة١ وتتفحص الخواتم وبذهول) خواتمي نفسها بالضبط.
امرأة1: (بانزعاج) مم؟
امرأة2: (تتفحص الخواتم) أخبرني يوماً ما عن مشروع كان يدور في ذهنه
امرأة1: (بهيام) إنه القلب
امرأة2: (بهيام) يحيا القلب
(يسمع رنين جوال)
امرأة١: (تهرع إلى الجانب الآخر وتخرج الجوال من الحقيبة. تبدو كأنها تقرأ رسالة وتبتسم. تغلق الجوال وتضعه في الحقيبة)
امرأة2: (تهرع إلى الجانب الآخر وتنظر بلهفة. تخرج الجوال من الحقيبة. تضغط على ازراره وتضعه على أذنها. تكرر المحاولة عدة مرات ثم تضع الجوال في الحقيبة) قال

لي: سأكون حاضراً قبل الموعد بساعة، وعلى إثر ذلك تحججت بألف حجة حتى أخرج من البيت، وها قد مرت ثلاث ساعات وأنا أنزوي هنا كالهاربة.
امرأة1: (تضحك بألم) وهاتفه مغلق
امرأة2: (تهز رأسها) نعم.
امرأة1: (تتفحص رقبة وكفي إمرأة٢)
امرأة2: (تستغرب وهي مستسلمة تماما لما تفعله بها)
امرأة1: اعترفي.. وماذا بعد؟
امرأة2: سألني مرة إن كنت أملك قواما جميلاً؟
امرأة1: وبماذا اجبتيه؟
امرأة2: اجبته بالرقص حافية القدمين
امرأة1: أين كان عقلك وقتذاك؟
امرأة2: لقد أخلى الساحة لقلبي
امرأة1: (تتراجع إلى الخلف وبشاعرية) يا رفيقتي في هذه البقعة النائية
امنحيني شرف أن أكون مخلصتك (تنحني)
امرأة2: (بحيرة) ها؟
امرأة1: (بحذر وهي لا تزال تتراجع إلى الخلف ببطء) ما أود قوله..
امرأة2: (بحيرة) تخلصينني؟
امرأة1: أخشى أن حبيبك، وبعد أن جردك من المال والذهب،
أخشى إنه لم يعد بحاجة إلى ..
امرأة2: (تصرخ) لا تكملي بل انظري (تشير إلى رقبتها وكفيها) أنظري إلي. من أجله لم أعد أملك شيئا
امرأة1: متى التقيت به لآخر مرة؟
امرأة2: قبل أسبوع
امرأة1: (مع نفسها) حقاً، منذ اسبوع أخبرني أنه تخلص منها جزئياً، وإن عاودت الإتصال سوف يتخلص منها كلياً بنقض وعده لها.
امرأة2: (تتبعها) بماذا تكلمين نفسك؟
امرأة1: لا شيء.. كنت أقول ليتك تعودين إلى أهلك قبل استيقاظهم من النوم (تمسك كتفيها) صدقيني لديك فرصة على الأقل
امرأة2: وماذا عنك؟.. لديك فرصة أنت أيضا
امرأة1: (تضحك) عن أي فرصة تتحدثين؟ أنا فرصتي قائمة مع حبيب أهبه جسدي بينما يهبني ما أريد، وبعكس حبيب يستنزف..
امرأة2: (تقاطعها) هل تقصدين أنه سرقني؟
امرأة1: (بمكر) بل ومتيقنة
امرأة2: ما الذي سأفعله تجاهه؟
امرأة1: أسرعي كالطير إلى بيتك قبل أن يفتقدك الأهل
امرأة2: (بتردد) ماذا؟ مستحيل (تحمل حقيبتها وتذهب إلى أحد الجوانب وتنظر حائرة. تذهب نحو الجانب الآخر وتنظر حائرة)
امرأة1: (تهرع إليها وتهز كتفيها) إفهمي يا درداء بأنه لن يأتي.
لقد سرق قلبك وثروتك ومضى. فلا تدعيه يكون سبباً في إقامة الحد عليك
امرأة2: الحد!؟
امرأة1: تخيلي سكينا حاداً يفصل رأسك عن جسدك تحت يد تجردت من الرحمة أو حبلاً التف حول عنقك لتسقطي على أثره وإلى الأبد أو طلقة قد تنهيك من الوجود
امرأة2: تخيلت كل ذلك قبل قدومي إلى هنا، ولكن قلبي يخفق باستمرار وجدا وعشقا ولوعة.. فأنسى أو أتناسى
امرأة1: انصتي إلي
امرأة2: إني أنصت
امرأة1: خذي نفسا عميقا (تأخذ نفساً عميقاً)
امرأة2: (تأخذ نفساً عميقاً) أخذت
امرأة1: (بهمس) كوني مستعدة دائما أن لا تنسي
امرأة 2: ماذا؟

امرأة1: قبور النساء المنزوية في الصحاري والعطشى إلى زائر ينثر عليها الورد وماءه
امرأة2: (بحزن) نعم
امرأة1: وتذكري أن السكين سلطان على رقاب العاشقات
امرأة2: (تتباهى) وأنا من العاشقات
امرأة1: إنها الحماقة بعينها
امرأة2: إياك أن تقولي ذلك، إذا كنت تعلمين معنى الحب فالعشق ليس حماقة
امرأة1: وماذا تسميه؟
امرأة2: امنحيني شرف أن أكون دليلك هذه الليلة لأخبرك معنى العشق
امرأة1: تفضلي
امرأة2: (تعثر على غصنٍ جافٍ) كيف ترين هذا؟
امرأة1: ليس سوى غصن جاف
امرأة2: أنت ترينه كذلك، أما أنا فأراه في ظل العشق مورقا، مخضراً ومثمراً
امرأة1: (كأنها تأكل) ما ألذ طعمه!
امرأة2: تسخرين مني؟
امرأة1: (تمسك الغصن وتكسره وترميه. تستعرض) مات العشق
امرأة2: (تمسك جزئي الغصن وتنحني بحزن) أنت من قتلته
امرأة1: (تهرع نحوها) عودي الى بيتك قبل أن يفتقدك الأهل. كوني اليوم أول من يجلس على مائدة العشاء. ابتسمي لأبويك وداعبي إخوتك. ساعدي امك في غسل الصحون وقبليها مراراً. إغسلي وجهك وارتدي أحلى ما لديك. ضعي المساحيق وتعطري. كوني سيدة نفسك.
امرأة2: (تنهض) هل أنت إنسية أم جنية؟
امرأة1: (بعد أن تمسح دموعها) أأنا (إظلام. بقعة ضوء عليها فقط) كل شيء مرهون بك (صمت) إن التشبث بما لا يضمن سعادتك يأتي بما لا تتمنيه حتى لعدوك. تخيلي معي كيف يكون الحال إن مرض أحد أفراد أسرتك؟.. يعتلي الوجوه الاصفرار حتى يلتبس على الرائي أيهم المريض.. تخيلي معي الفرح الذي تضيء به أساريرك إن رأيتهم سعداء، الكل يجتمع على نمط واحد مهما تغيرت الأمزجة والأطوار. إنها الأسرة وهو معنى أن تكون إنسانا داخلها.
امرأة2: ولكن بعد كل ما فعلته أنا، هل تتملكهم رغبة في التغاضي عن كل ما قمت به؟
امرأة1: ما زلتِ واحدة منهم، وقد يغضبون منك من دون ان يحقدوا عليك. قد تحتاجين معهم الى مزيد من الحوار. حاوريهم بسكينة الابن البار
امرأة2: وزوجي.. ماذا عنه؟
امرأة1: (تفكر وفجأة) ماذا لو أغاظك يوماً؟ تغتاظين ثم تهرعين لمواساته ما أن تسمعي صوته مناديا على جرعة ماء. مؤكد أنك ستقومين بعمل عظيم، حينما تقدمين له قدح الماء وكفك الناعم يميل على رأسه بلطف. حينها سيشعر بالخجل من تلك الإغاظة. سوف يغفر لك بعد مراجعة طويلة لذكرياته معك.
امرأة2: (تنتحب)
امرأة1: (بلطف) ماذا ترين الآن؟
امرأة2: (تنظر نحو السماء) أ مازالت الفرصة سانحة؟
امرأة1: نعم
امرأة2: وماذا عنك؟
امرأة1: لا عليك مني
امرأة2: (تحمل حقيبتها وتمضي) وداعا
امرأة1: بل، الى لقاء ممتع مع كل هذا الصخب (ترقص بنزق على انغام موسيقى صاخبة، وسرعان ما تعم الظلمة فضاء المكان).

(إظلام)

مطبوعات وصلتنا

• رضا الظاهر، شكسبير ـ مقاربة جمالية ماركسية، مؤسسة أبجد للترجمة والنشر، بابل، 2025.
• ايتالو كالفينو واخرون، عيون العدو -قصص مترجمة، ت: علي عبد الأمير صالح، دار شهريار للنشر، البصرة 2022.
• علي عبد الأمير صالح، ادباء نوبل يتكلمون (ترجمة)، دار اهوار، بغداد، 2025.
• ريسان الخزعلي، معتز يرسم الهبوط 12 نيسان 2025 تنويعات مرتبكة (شعر)، دار ماروسي، 2025.
• سلام حربة، قافز الموانع (رواية)، اتحاد الادباء والكتاب في العراق، 2025.
• خضر عبد الرحيم (حتى مصرع الفجر) سيرة سجين سياسي، ط1 ،دارسطور،بغداد 2025.
• غيورغي ادا موفيتش، العزلة والحرية، ترجمة: تحسين رزاق عزيز، دار المأمون في وزارة الثقافة، بغداد 2025.
• الأقلام (مجلة) رئيس مجلس الإدارة: د. عارف الساعدي، رئيس التحرير: علي سعدون . العدد 1 ،السنة 62 ، اصدار دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد 2025.
• سفين-أيريك ليدمان ، بير ماغنوس يوهانسون، شرخ في اللغة،ترجمة عبد العزيز ججو، ، مؤسسة ابناء الموصل للصحافة والطباعة والنشر والاعلان، الموصل 2024 .
• سفين-أيريك ليدمان، أن يرى نفسه في الاخرين، ترجمة عبد العزيز ججو، مؤسسة ابناء الموصل للصحافة والطباعة والنشر والاعلان، الموصل 2024.
• سفين-أيريك ليدمان، من افلاطون الى أزمة الديمقراطية، ترجمة عبد العزيز ججو، ، دار ميزر للنشر والتوزيع، ستوكهولم/السويد 2025.